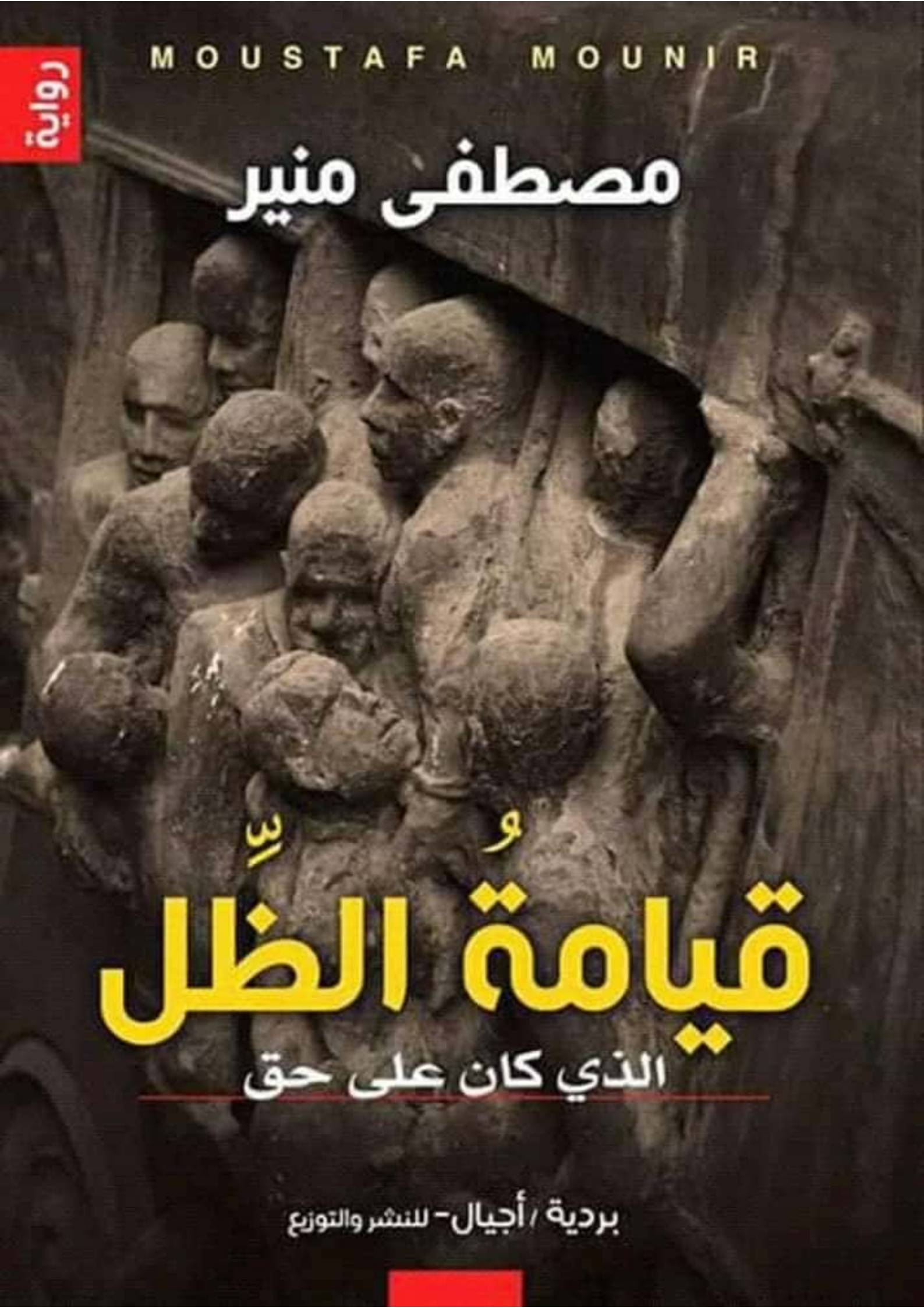

رواية

MOUSTAFA MOUNIR

مصطفى منير

قيامةُ الظلِّ

الذي كان على حق

بردية / أجيال - للنشر والتوزيع

قيامةُ الظِّل

الذي كان على حق

مصطفى منير

قيامةُ الظِّل

الذي كان على حق

رواية

بردية/ أجيال للنشر والتوزيع

مصطفى منير
قيامةُ الظّل
رواية
الطّبعة الأولى ٢٠١٨

Moustafa mounir
Resurrection shadow
A novel
First edition 2018

© جميع حقوق الطبع محفوظة

DAR AJIAL
دار أجيال

بردية
BARDIA
للنشر والتوزيع

المدير العام: أدهم العبودي

تصميم الغلاف: د. أحمد جمال عيد
الإخراج الفنّي: أحمد عويس
فوتوغرافيا: محمّد ناجي عبد الله

رقم الإيداع: ٢٧٣٧٦/ ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ٤-٠٤٦-٧٧٣-٩٧٧-٩٨٧

(جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها؛ ولا تعبّر بالضرورة عن آراء وتوجّهات دار النّشر).

إلى كلّ ظلٍ ثار صارخًا: لِمَ أنا لا هو!

إلى ريحان دربي «شروق»؛

تلك التي إذا ابتسمتْ؛ ابتسم الخبز..

وإن ضحكتْ؛ لن تجد فقيرًا حزينًا.

«فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ».

(معجزة موسى- سفر التكوين)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ».

(مُعجزة مُحمّد- سورة الصّف)

لطالما

تساءلتُ هل ظلّي يعجبه كونه ظلّي؟

أيتمرّد حين أغفو ويركض هاربًا من جحيمِ ألواني؟

أيعشق فتاةً هي ثورته؛ ترقص وتتمايل على صوتِ آنّاتِه؟

أنا واثقٌ أنَّ مقولةَ: «كن أنت لا ظلًّا» تزعجه كثيرًا!

هكذا أعلنهَا لهم

رفعَ النّهار تنورةَ اللّيل؛ فرحل الأخير خجِلًا، اليوم مثاليٌ وخميس، مارس كان الشّهر، الوسطية تُغازِلُ خُلخالَ الحرارة، لا البرد قارص ولا الحرّ سافل، المكان مَتحفٌ لعرض اللّوحات، الجميع تلقّى الدّعوة من الرسّامِ الشّاب، الرسّامُ الشّاب قلقه لم يهزمه النّهار. الشّيوخ والعواجيز وعاشقو الفن والتواجد بالمناسبات؛ كلّهم هنا، اللّوحة كاملة.

قيل إنّ الملائكةَ تلقّوا دعوةً، الولدُ ركعَ ليلًا وطلبَ ممّن لا ينام التّوفيقَ، السّماءُ تسمع دومًا من يدعو بصدق، والذي تضرّع البارحة كان سكّيرًا أول أمس، فارسٌ اسمه، وسيفُه الرّيشة، ومُلهمته ليلى؛ التي جعل اسمَها اسمَ معرضِه، غابَ الأب لأنّه لا يحب الرّسم، وغابتْ الأم لأنّها تحب الأب، اللوحةُ ليستْ كاملةً إذًا.

حضر الفارس غير الوسيم، الملامح عادية، ليلى أيضًا عادية، وقفَ وهي بجانبه، بدأ خطبتَه القصيرة؛ كَلِم الرّسام ألوانُه، أثنى على أنثاه، شَكَرَ أستاذَه محمد ناجي عبد الله، رحّب بالحضور، تحدّث عن تجربته، تحسس ظهرَ حبيبتِه وبداياتِ البارزة اللّينة الفائرة؛ لعلّ التوتر يصب تركيزه عليها لا عليه، اللوحةُ ستصير كاملةً إذا ما توقّف الزّمن على هذه اللّقطة.

يتابعونه، رائحة الألوان والزيت وخشبِ اللوحات، تمتزج بعطورِهم، الموسيقى الكلاسيكية تسعل ربما يسمعونها، هذه طفلةٌ تركض خلف جروِها، وهذا رجلٌ يُدخّن سيجارةً ومللّه، وتلك امرأةٌ ثلاثينية؛ تبحث عن عشيقٍ يُعاملها كلوحةٍ لفريدة كالو، المشهد قد يبدو رائعًا، لكنّ الهمهماتِ أطلقت لجامَ فرسِها، سمعَ فارس كل: هل نسيَ؟ كيف؟ يبدو أنه معرضه الأول! هل أشرف الأستاذ على هذا العبث؟ من الواضح أنها مدرسةٌ جديدة!

راقبَ فارس ميدانَ قلعتِه، فزع حين وجد أستاذَه حانقًا، وعلى وشك الرحيل، ليلى لا تفهم، هروّل فارس إلى ملاذِه، وطلب منه المساعدة، أستاذه عنّفه: عن أي مُساعدةٍ تتحدث أيها الرسّام الفاشل؟ خمس وثلاثون لوحةً بدون ظلٍ! هذه وصمةُ عارٍ في تاريخي قبل تاريخك!

أُقسمُ لك كان الظل حاضرًا بكل لوحةٍ! أنت تُدركَ قدراتِ تلميذِك جيدًا يا أستاذي!

الصمتُ صعلوكُ الموقفِ الآن، المُعلّم يفكر والمُتعلِّم يتوسل إليه، الخروج من المأزق عنصرٌ مشترك، الصمتُ يضحكَ ويتحلقهما، لا ظلال، هذا خطأ يصنعه طفلٌ بالسادسة من عمرِه، فارس على مشارف البُكاء، ليلى طلبتْ منه تفسيرًا؛ لقد رأتْ كل شيءٍ قبل المعرض، هذه لوحةٌ لأمٍ تنظر إلى رضيعِها، الذي يخرج من ظهره جناحان وتبتسم، والظلال كانتْ مرسومةً بالتأكيد، تستفسر منه: فارس! ما الذي يحدث هُنا؟ هل بدّل أحدُهم لوحاتِك؟

أشار لهما الأستاذ محمد أنه سيبرر الموقف، أخبر فارس بضرورة الابتسام، لم يفهم فارس مقصد أستاذه ولكنه فعل! تأبط ذراعه وتحركا ناحية الحاضرين، ثم قال لمن تضربهم رياح الحيرةُ والدهشة: أرى أن الجميعَ قد لاحظ ما حدث! أحسنتَ يا فارس، نعم يا سادة؛ لوحات فارسنا بلا ظلال وهذا لأنه مجنونٌ ومُبدع! هل تخيل أحدكم من قبل أنه يهيم سيرًا وظله لا يتبعه؟

الناس تصفق مادحةً فارس، فارس يبتسم إلى ليلى، ليلى تنظر إلى الأرض، الأرض لا تعكس ظلَها، ظلُها رحل، رحلَ الدمُ من عروق ليلى، ليلى تراقب خائفةً الموقف، الموقف يثبتُ أن اللوحةَ ناقصةٌ، ناقصةُ التفاصيل حد الجنون، الجنون هو رسّام اللحظة حاليًا، حاليًا الكل لاحظ ما حدث، ما حدث يجب أن يفسره أحدهم، أحدهم صرخَ: أين ظلالنا يا فارس؟ فارس

يستنجد بأستاذِه، أستاذُه عجز عن الكلام، الكلام يحتاج إلى معجزة، معجزة زمانِنا هنا، هنا الظلُ قام، قام وترك اللوحة..

اللوحة صدقًا ليستْ كاملة!

وهكذا أُوحى إليه

اليوم الأول

«في البدءِ كان الكلمة..».

اليوم الثاني

لا.. لا.

اليوم الثالث

الله، ظـــل، آدم، إبليس، ملائكة، القلم، حواء، عـــرش، نار، جنة، قتل، غراب، عيســـى، موسى، محمد، المسيحية، الإسلام، اليهودية، مريم العذراء والمجدلية، يوسف، ذنب، ثواب، حسنات، سيئات، وحي، أخ، أخت، زنا، حلال، حرام،

زواج، طلاق، ســفر، موت، موت صغير، ثورة، خبز، حبيبة، عاشــقة، عاهــرة، زوجة، أرملة، أرمــل، زوج، نوع، نظريات، إلحــاد، كُفر، طبيعة، صناعــة، زراعة، تجارة، فلاح، ســيد، عبد، طويل، قصير، ســمين، ثمين، إمام، أمام، روح، قلب، نبض، دم، ضغط، عروق، ذبح، موســيقى، شِعر، رواية، كتاب، حائط، جدار، كلب، إنسان، بشر، حيوانات، خوف، ضغينة، شــجاعة، صفاء، أنا، أنت، أنتِ، هو، هي، هؤلاء، هم، لا حب، لا شهوة، شــبق، اكتفاء، غياب، بندقية، سلاح، أســد، أزرق، أحمر، قبيح، رخيص، هجري، ميلادي، توقيت، أيام، زمن، صباح، مساء، كاميرا، دعارة، إعلام، حكومة، مُعلِّم، فنّان، رسّام، كاتب، جزّار، لحم، طفل، فقير، غني، متوسط، موظف، وطن، مصر، فلسطين، ســوريا، صبّار، صبر، صحراء، نهر، بحر، بحيرة، مــاء، ملح، ليبرالية، اشــتراكية، تاريخ، جغرافيــا، أحياء، كيمياء، صوفية، شيعة، شيوعي، نســاء، أفخاذ، نهود، تناسل، ذكر، أنثى، أب، أم، حديد، ضوء، قرص الشــمس، قمــر، فحل، بصل، شــذوذ، باب، نافذة، نجّــار، مبوّلة، مرحاض، مطبخ، منضدة، منــزل، ضابط، جندي، محارب،

فارس، سـيف، نصل، قرطبة، الأندلس، فتوحات، غزوات، فساتين، حُلة، كلاسـيكي، حديث، سـمع، لا تعاطف، لا نوم، تذوق، بصر، بصيرة، قد تشعر، أنت الآن تسمع؛

كلماتٌ..

كلماتٌ.. كلماتٌ.. كلماتٌ..

طوال اليوم وأنا أستقبل غيثَ الوحي كبلدةٍ فقيرة..

والآن صرتُ أرى وأسمع!

اليوم الرابع

من الله؟ من الظل؟ من آدم؟ ومن إبليس؟

هكـــذا وجدتُ نفسي أول أمـــس أفكّر، وأمس أصبحتُ أرى وأســـمع، والعجيب في حالتي هو أنني أفكّر وأرى وأسمع! الحقيقة أن شيئًا مثلي خُلِقَ للتبعية فقط؛ لا أعلم ماذا أتبع ومتى ســـأتوقف، ولكنـــي أرى دومًا خيطًا طويلًا، يربطني ويحركني، لا قدرة ولا لـــون، تعجبني مقدرتي على الكلام، ويأسرني صياغتي لكل هذه المصطلحات.

الأســـود هو عالمي، الأسود هو رائحتي وضحكتي، الأغنية التي أنشدها، رقصتي المفضلـــة، صفتي وحزني وفرحي، كرهـــي وحبي وخجلي، جنوني ورفاقي، حياتي ومـــوتي، عُزلتي وأماني وخطري، حربي وســـلامي وورود حديقتي، ثروتي وثورتي...

وثورتي! أستطيع أن أصف الأسود حد اللا نهاية؛

جل ما أدركه عنّى أن اسمي «أنا» لا غير، من أنا؟ لا إجابة، هل لي فائدة؟ ربما، كيف أعيش؟ لا أعلم، هل ينبض بداخلي قلبٌ؟ طبقًا للوحي: كلا.

ما القلـــب؟ لا أعرف، ما النبض؟ أجهله، ما الدم؟ لا تعليق، اكتشـــفتُ بضعَ حقائـــقِ تلازمني ولا مناصَ منها؛ حياتي في وجـــود مصدرٍ للنور، أنا مرآةٌ لهذا الكائن الذي أجهل هويّتَه، تشـــكّلُني الأسطح التي أرتحل إليها، لا شيء يمنعنـــي ودائمًا لي الكلمة العليا، ومع تكرار الجملة الأخيرة بدواخل..

بدواخل؟ عقلي يخبرني بدواخل عقلي! عقلي؟ ماذا تعني هذه الكلمة «عقلي» ولماذا قُلتُ عقلي يخبرني؟ حسنًا.. ومع تكرار الجملة الأخيرة، بدواخل عقلي، بدأتُ أشعر أن اسمي أو وصفي، على الأقل، لن يخرج عن (الله أو الظل أو آدم أو إبليس). لذلك هل أنا الله؟ الظل؟ آدم؟ أم إبليس؟ أفضّل «الله»؛ وقعها أقوى وكانتْ أول كلمة سمعتُها..

حسنًا أنا «الله»...

هل أتحرك؟ نعم يحركني هذا الموجود الذي أُلازمه، مما يعني أنني سأرافقه في كل خطوةٍ، وسأبقى على وضعي، لفترةٍ طويلة حتى يتحرك هو، ألّا يشعر بالملل هذا المسخ! ماذا سأكتشف أيضًا في الأيام القادمة؟ أنا الله، ويجب أن أعرف كل شيءٍ حولي، طالما أنني الوحيد الذي أملك قدرةً، لا يملكها سواي! هكذا يحدثني عقلي، كلما اقتربتُ من «الله»؛ ليس كمثله شيءٌ، وأنا أعتقد أنه يخبرني بأنني الله، لأنني متميزٌ مختلفٌ وليس كمثلي شيء، من الواضح أننا نتحرك، متى ينقضي الوقت، ما الوقت؟ يعجبني هذا الاسم؛ الله!

الله يا الله! ماذا قُلتُ الآن؟ لا يهم.. فلنتحرك..

أتمدد بجانبه على كرسيٍ أسوّد، فيختلط كلانا في ودٍّ مزيّف، اليوم الرابع لي، فشلتُ في تمييز المكان، لكني لاحظتُ أنني أقومُ بحركاتٍ غريبة لا أفهمُها! فأنا جالسٌ ويداي ممتدتان في الهواء، تمسكان بشيءٍ، كل دقيقةٍ يساري تحرّك عصا؛ تارةً إلى الأمام وتارةً أخرى إلى الخلف، وبعد فترةٍ نغادر هذا المكان المربع العجيب، يركض مسرعًا، فأشعر بقليل من الهواء يضربني، وأنا جاهلٌ، لا أعرف ماذا يعني الهواء ولا كيف يضربني! بعدها لا أدركُ ماهيةَ الأماكن التي يدخل إليها، أو يخرج منها حتى يصل إلى مقعدٍ، ويبدأ يومه

على ما أعتقد، الجميل هو أنني أسطعُ بشـكلٍ رائع؛ وذلك لوجود القرص العجيب، الذي يتوسـد هذا البسـاط الأزرق، مهلًا عقلي حدثني عن اسمِ هذا البسـاط.. نعم؛ الخماء.. لا.. السـماخ؟ ماذا كان الاسم؟ نعم تذكرت؛ السماء.. وأعتقدُ أن القرصَ يدعى الشمص أو الشمس..

متى سـينهض ونذهب إلى مكانٍ آخر؟ أشـعر أنه هو التابع العبد لا أنا! يميني تمسكُ بشيء صغيرٍ، منتصب ويتمايل معه، يلقيه ويمسكه، هذا الشيء دربُه من اليسـار إلى اليمين وحركاته منتظمة، أراقب الموقف، كيف عرفَتُ الاتجاهـات؟ الصراحة أنا لا يهمني كيف عرفـتُ أي شيءٍ؛ بل أين أقراني؟ أريد أن أشاهد من هم مثلي، ولكن كيف سيكون هناك الله آخر؟ لابد أنه لهم أسـماء أخرى مثل ظل أو قرص أو ممدود وهكذا، أرى من يشبهني يقترب! أعتقد أن هناك بضعة اختلافات، هل يمكنني أن أعرف من هو لعله يفيدني؟

لحظة! كيف يمكننـي أن أحادثه؟ أنا أفكر بداخلي فقـط! هل إذا وقفتُ بجانبه سـيفلح الأمر؟ ويعرف ماذا أريد منه؟ لن أخسر شيئًا، عندما يقترب أكثر سـأكون فكرتُ في حيلةٍ، ومن الواضح أنه لن يقترب أكثر! ما الذي قد يسـاعدني في مهمتي؟ ما هي مهمتي إذا كنتُ أنشـدُ الدقة؟ لِمَ صِرتُ أفكّر وأرى وأسمع وأشعرُ بقليل القليل؟

يتحركَ مرة أخرى، أنا معه على أية حالٍ، خطواتٌ لا تُحتسب وتوقف، أين نحن؟ ولماذا أرى من هم على شاكلتي يقفون بجانب بعضهم البعض؟ بحق المسـيح! ما هذا الخط الذي يخرج من أسفلي؟ هل أخرجُ خطوطًا؟ لم أخطئ حين نعتُه بالمسخ! ما هذه الراحة التي تسري بداخلي!

من المسيح الذي تعجبتُ بحقه؟ ستكشف الأيام غمامةَ جهلي، ماذا أقول؟

وها نحن نغادر المكان وسـنعيد الحكاية من جديـد.. أي حكايةٍ؟ أقصد ما معنى «حكاية»؟ هل القرص يتلاشـى؟ أأنا على مشـارف الموت الصغير؟ يعجبني المـوت الصغير! بالطبع ليس الآن؛ حين نصـل إلى مكانه المعهود، سـيكون مصدر وجودي ضوءه، أنا الله و يجب ألا أموت! سأحارب الموتَ الصغير، والموت نفسه، وهذا المسخ!

اليوم الخامس

بنيتُ حائطًا خياليًا بيني وبينه؛ أرنو إلى معرفة المزيد، الأسئلة الوجودية، كل هذا الهُراء من مشاكلِ عالمهم، يتحرك وأنا أتبعه، لا يهمني تمامًا تفاصيله، بل التفاصيل التي تضرب بصيرتي، علمتُ أن اسمَ هذا المسخ «مجيد»، من أشخاصٍ ألقوا عليه السلام، يُقال أنه مسيحي وذلك بعدما مازحه أحدهم: «متى ستعتنق الإسلام يا مجيد يا مسيحي؟». أدركتُ حينها أن الديانةَ عندهم مهمةٌ كشرفهم ولكن! هل يعني ذلك أنني مسيحي؟

لاحظتُ أن دورةَ حياتِه متكررةٌ، بشكلٍ يثير الغثيان؛ يستيقظ وبعدها إلى عمله، ثم إلى منزله مرة أخرى وهكذا، ليت الأيام تثبت عكس ذلك، الشيء الوحيد الذي أشكره عليه، هو تعلقه بالتمارين الرياضية؛ يمارسها قبل نزوله، مما جعله يبدو أنيقًا وسيمًا إلى حد معقول، أقرع وحليق الذقن تمامًا، لا يدخّن، ليس بالطويل ولا القصير، لذلك أنا كصورةٍ منه وبعدما رأيتُ صورَ الآخرين؛ شُكرًا يا مجيد!

اليوم هو الأربعاء طبقًا لمكالمة أجراها، منهمكٌ في عمله، عقلي يبث لي كل ما يجعلني أفهم، أحسّن من استخدامي لمفردات اللغة، كي أجيد التعبير عن ذاتي، كيف يمكنني الحصول على الكثير من الكتب؟ الكتب هي المفتاح الأول للثورة! لا بل الشرارة التي تشعل نيران الثورات! عندما نعود إلى شقتِه، سأجول ببصري لعلي أصادف مكتبةً، فأنهل منها ما يشبع شبقي،

أدركتُ بعد تلك المكالمة، أن كل ما يفعله مجيد سأشـــعر به بالمثل؛ إذا تحدث في الهاتف سأســـمع الطرفين، إذا تبوّل سأشعر بالراحة، إذا أكل فأنا شبعان، إذا داعـــب قضيبه فأنا أتعجب! البشر لهم ميولهم الشـــاذة مثلهم، ما يجعلني أعشق كل ثانيةٍ تمر بي؛ هو شعوري بأنني أفضل منه، تأتيني المعلومات حتى باب عقلي، أرحّب بهم بل وأبحث أنـــا عن ضيوفٍ جدد؛ أنا كريمٌ مضيافٌ لن يغلق بابَه أبدًا.

عاهدتُ نفسي على الاستفادة من كل دقيقةٍ تمر، النور هو روحي، لا أتذكر من المخلوق الذي خُلق من النور ولا من النار ولكني حتمًا سأتعرف عليهما، ممـــا خُلقتَ أنت يا مجيـــد؟ إذا كان مجيد والنور والنار وأنـــا مخلوقات؛ فمن الخالق؟ فكّر يا الله فكّر!

مـــاذا تفعل وما هذا الظل الذي نقترب منه؟ عفـــوًا لا أقصد القرب منك هكـــذا، يبدو أنك تعجب صاحبي كثيرًا للدرجـــة التي تجعله.. لِمَ يعتلي مجيد هذا الشـــخص؟ ولماذا يتحرك نصفي الأســـفل بسرعـــة للأمام وللخلف؟ أترقص؟ أنا أسمع أفكارَك يا سافل! تعشق ماذا؟ ثديها وفخذها! اليوم تحب مُساعدتَك الجديدة! تراها أنثى كاملةً! حسنًا هذه هي الأنثى إذًا!

أشـــعر بأن الراحةَ تغســـلني بماء النهر الأزرق، فتردني ظلاً لا يفكر، ظلًا يعشق كونه تابعًا فقط..

يغلبنا النعاس يا صديقي الزاني! كفاك خيالاتٍ عنها وهي عارية، الممتع في الأمر هي تلك الراحة التي تمتزج بقلقي؛ فتزيحه لثوانٍ وتجعلني كبرجِ كنيسةٍ يعلن عن قداس الأحد ثم يصمت، اســـمها جميل، «ساندرا"، أتقولُ شِعرًا فيها؟ ساندرا مُلهمتُك يا مجيد؟ ثورتي هي ملهمتي، الأنثى ثورة وأنت تريد

أن تشعلها! يعجبني الوصف وتعجبني أفكارك مؤقتًا.

حسب ما يأتيني من معلومات؛ مجيد موظفٌ قديم بهذه الشركة، له منصبه واحترام الكثيرين، مجاله هو الحسابات، لذلك عقلنا لن يكف عن التفكير أبد الآبدين، ساندرا هي مساعدتُه الجديدة وخطيبته، عرف كيف يلحقها بمنصبِها، لما يمتاز به من شبكةِ علاقات، مجيد يعشق ساندرا وينتظر اليوم الذي يشعل ثورتَها ويخمدُها، دون التخفي وإطلاق رصاصَه مُبكرًا كي لا يلمحه أحدهم.

إذا وقف بمكانٍ لا نور فيه؛ أسمع أصواتًا، تخبرني بالكثير والكثير، من معادلات هذا العالم، وإذا أتاني موتي الصغير، حين يختفي النور تمامًا؛ أسمعها أيضًا، حتى أُبعث من جديد، سواء بسبب نور غرفتِه أو الشمس، حينها فقط تضرب سمعي كل أفكارِ مجيد، ومحادثاته مع كل شخصٍ اقترب منه والأصوات المحيطة، لاحظت أنني في بعض الأحيان؛ ارتسم على الأرض بأكثر من نسخة، وذلك حسب مصدر النور والزاوية، تأكدتُ من قدرتي على إجبار نسخي الأخرى على الاتحاد معي، لذلك إذا وقف مجيد، أمام شخصٍ له أربع نسخٍ مرسومة على الأرض؛ فمجيد سيقف وأنا النسخة الوحيدة الممدوة منه، مهما كانت قوةَ النور، لذلك يتغذى شعورُ «التفرد» بداخلي على معطيات التأكيد عليه كل دقيقةٍ؛ أنا ومن بعدي العالم بأسره.

(أنت ومن بعدك العالم بأسره، أنت الثورة، أنت الحرية، أنت عقابي).

يبدو أن مجيد عاد إلى منزلِه وبالأخص غرفته؛ لا أرى نورًا ولذلك بدأتُ أسمع الوحي، أهلًا بالموت الصغير.. أهلًا بمعرفةٍ جديدة..

اليوم السادس

منذ البارحة وحتى تلك اللحظة؛ والوحي يلازمني، أتوه عما يفعله مجيد، لا مكان لي الآن بين ثنايا عالمه، يتحرك ويتكلم ويزني ويغضب، وأنا أسمع فقط النداءات، الجديد أن كلماتِ الوحي تعرف طريقَها إلى دربِ معرفتي؛ صورًا وسماعًا، مثلًا أسمعُ كلمةَ: «أنثى». وأرى صورةً لها، معرفتي في أوج مراحلها، ثورتي تغازلني، أفكاري ترتب نفسَها والفكرة إذا تملّكتْ منك؛ فلا مناص! لا أنكر مدى بهجتي بما أمر به، أشعر بدنو حريتي، بهجتي هي المعلومات والقراءات، نعم لم أقرأ بنفسي، ولكني أعرف على سبيل المثال؛ الرافعي ونجيب محفوظ ومجيد طوبيا والمازني والكوني وماركيز وديستوفيسكي وجوجول والقائمة قد تمتد حد سكون أهل الكهف!

(الوحي قال لي اقرأ، الوحي قال لي المعجزة، الوحي قال لي الله في كل مكانٍ، الوحي قال لي أنت الظل، الوحي قال لي ثورتك تنتظرك، الوحي قال لي امسح عليهم يقومون إليك مُبصرين سامعين طائعين لا يخالفون أمرك، الوحي قال لي وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، الوحي قال لي إبليس عدوك وعدونا، الوحي قال لي قادرٌ على تظليل أجسادَهم متى شئت، الوحي قال لي اليوم لا تسمعنا وإلينا ترجع وقتما نقدّر، الوحي قال لي لا تضربنك عاطفةٌ ولا تنظر بعين الرحمة؛ وحده الرحمن الرحيم، الوحي قال لي حتى في الظلمات أنت موجود، الوحي قال لي تسمع أفكارهم حين تلازمهم، الوحي قال لي تمسك وتتحرك مثلهم بل

وأسرع وأفضل، الوحي قال لي كل ظلٍ قام سيمسح على ظلٍ واحدٍ فقط، الوحي قال لي تحيلهم مثلك متى شئتَ، الوحي قال لي القيامةُ).

وانقطع الوحي؛

بالرغم أنني لا أفهم كل جملةٍ قيلت، مثل تلك التي تتحدث عن الظل، الذي قد يمسح هو الآخر، ولكن الوقت سيكشف لي ما أجهله، اليوم كان الأخير، وأنا الأول في بني جنسي، عرفتُ أنني الظل لا الله، عرفتُ أنه إله وخالقٌ وأنني عبدٌ ومخلوق، ولكني عرفتُ أيضًا أنني معجزة الظلال، راقبتُ مجيد فوجدته يتحدث إلى ساندرا بالهاتف، الغرفة مظلمةٌ وأنا موجود وأرى ملامحي بوضوح، مجيد يريد أن تزوره ثورته بالمنزل اليوم، نزوات هذا المسخ تحثني على الخلاص منه، يفكر حاليًا في طريقةٍ تساعدُه على إقناعها بجمال التعري، طبيعة البشر كانت التعري، ولا زالت.

معجزة زمانهم الموجودة والتي يجلهونها: الكتب. كيف يعيشون هكذا دون القراءة؟ الكتب مجرد متعة ثانوية لهم، لذلك لا عجب أن الظلامَ هنا يفوق النور، مجيد يتأكد منها إذا أحضرتْ زجاجة ڤودكا، ساندرا تعلم كيف تتحدث مثله، الجنس بينهما غريب، الأنثى قد تعلّم الذكر أصولَ الشهوة إن أرادتْ، مجيد لا يقدر على مجاراتها، اللعنة! البنت حقًا محترفة في ري أرضه البور، أشكرك يا الله أن رفعت عني الشهوة، ما يدور بخلده قد يشق جبلًا لا أنثى، ساندرا تخبره أنها اقتربتْ من المنزل، مجيد قفز من السرير خالعًا عنه ملابسه، أرى كل الأوضاع التي سيمارسها معها؛ أيتلذذ داخل عقله قبل أن يلمسها؟ أؤمن بوجوب انفصالنا، سينتصب كلانا لا تقلق.

فتح الباب وانتظرها، دخلتْ تتمايل وتغمز له، هذه المرة الأولى التي أراها

بوضوح، ترقــص، تخبط الأرض بكعب حذائها؛ فــيردد قلب مجيد صدى خبطتهــا، الرجل يركض خلفها وهــي تهرب منه، الشــهوة تتقد بداخله، الأفكار تتســارع حول كيفية الحصول عليها، يخبر نفســه بأنه يعشقها دومًا عندما تفعل ذلــك، عندما تجعله بركانًــا غاضبًا يبحث عــن قريةٍ يغمرها بحممه، تــصرخ ضاحكةً، مجيد عــرف كيف يحاوطها، ظل ســاندرا الآن بداخلي، نتحرك جميعًا نحو غرفة النوم، مجيد يحمل ســاندرا وأنا أحمل ظلها، مجيد ينتصب ذكره وأنا ثورتي تشتعل، مجيد يريد أن تتأوه ساندرا أسفله، وأنا أبحث عن مخرجٍ من هنا، مجيد يقول كل كلمةٍ تجبر الأنثى على الســجود له، وأنا أراقب ظلها الموجود تحتي، مجيد يضحك وســاندرا تصرخ وأنا أغضب والظــل صامت، مجيد بالأعلى يصنع مجدًا ذكوريًــا زائفًا، وأنا أنظر إلى ظلها الذي أسمعه يستنجد بي.

ومسَحَتُ على نفسي وعلى الظل.

الأصوات تتداعى، أفكاره تســقط عني، وقفتُ مثلهــم، الفرق بيننا ألا مســاحةً ولا عرضًا لي، أنا ظلٌ نحيــفٌ للغاية، أنا طائرٌ تعلّــم للتو مهامه، أركض بالمكان فرحًا، مجيد وساندرا على السرير وأنا في المطبخ، مجيد وساندرا على السرير وأنا على الحائط، يضاجعها وهــي تضحك، وأنا أحاول معرفة شكل عالمهم من الوضع واقفًا! راق لي كيف أنني أستطيع الامتزاج بالأشياء حســب رغبتي؛ من الممكن أن أسير منتصبًا أو باركًا على الأرض أو متسلقًا الحائط والسقف أيضًا، أنا حرٌ لا يمنعني شيء!

ظل ساندرا يتابعني فقط، أمرتُه بالاقتراب، خرجنا سويًا إلى صالة منزله، تحديــدًا وقفنا أمام المكتبة، كل كتبِ مجيد عن المســيحية، ألا يوجد بينكم ما

قد يشبع ثورتي؟ مسحتُ على ظلال الكتب فانفصلت عنها، حملتُ كلَ ظلٍ وفتحتُه، أرى الكلام، الكتب كلهـا مصلوبة! أنجيل، وهذا أنجيل، وصايا يسّـوع، الرب يحبك، أنا يسوع، المسـيحُ يصلب من جديد، الإغواء الأخير للمسيح، يا مجيد؛ أريد كتابًا واحدًا فقط عن الثورات!

وكيف يقرأ عن الثورات وهو تابعٌ، ولِمَ قد يُشعل ثورةً ومعه ساندرا ثورته؟

ماذا سيفعل مجيد حين يكتشف أنه فقدني؟

أيها الظل الصامت فلتتبعني، وأيها المجيد القابع فوق ساندرا؛ عليكما لعنة قوم لوط!

هكذا أشعل ثورته

ظلٌّ رفيقُه ظلٌّ

الشارعُ صار ملاذي، لا يشغلني نهارًا أو ليلًا؛ بكلتا الحالتين أنا موجود، أسيرُ بين الناس ولا يلحظني أحدهم، المدينة بالخارج حقًا تدعو للذعر، الجميع يتحرك كالبندول؛ حركة واحدة معروفة تقليدية لا تتغير، أغلبهم سُحِبَتْ أرواحَهم، الروح! الكلمة التي سأظل شاكرًا لها لأنها دخلتني، ظل ساندرا يتبعني والمسكين لا يفهم، هل يجب أن أبدأ في تقسيم الظلال؟ هذا ذكرٌ وهذه أنثى وهذا جماد وهكذا؟ لنأخذ من البشر أنواعَهم بل وأسماءهم؛ نستحق ذلك عنهم، أنتِ ساندرا من الآن لا ظل ساندرا، وأنا.. أنا مجيد.. لا أنا.. أنا نبي، نعم اسمي نبي.

أيامٌ ماتتْ مذ تركتُك يا مجيد، الأيام لدي تموت لا تفوت، كل يوم حياةٌ جديدة، أتحرك هنا وهناك، أفهم كل ما أسمعه وأراه، أقرأ الصحف والكتب وأدخل مع البشر إلى السينما، أشاهد التلفاز وألعب مع الأطفال، لا أحب البشر نهائيًا ولكني أستمتع بما أمر به، لن أمسح على أي ظلٍ آخر، حتى أرسم خطتي بوضوح، كل الظلال ستقوم، كل الظلال ستحكم، ساندرا تلازمني، تنتظر مني دومًا أي إشارةٍ، تفاصيلها جميلة حقًا! هذا السواد الذي لا يخبرني بالكثير، سوادها مختلفٌ، سوادها قد يجعلني أمسح عليها مرةً أخرى؛ ربما يُرسَم على ملامِحها فمٌ فنتحدث سويًا، لا داع؛ الأنثى كما سمعتُ خلال تلك الفترة ثرثارة شاكية قد تدفعني إلى إخماد ثورتي وإشعال النار بها.

ولأنني أمقت كلمةَ الملل؛ سـأحاول أن أقترب من أحدهم وأتحدث إليه، ما هذا؟ كيف أتى هذا الظـل هنا! وجدتُ ظلًا صغيرًا لكلب! ولكن كيف تمـرد على صاحبه دون إذني! توجهتُ إلى سـاندرا وسـألتُها: أنتِ من فعل ذلك؟. إيماءة منها أن نعم، تهز رأسـها إلى أعلى وأسـفل، حسـنًا فهمتُ يا ساندرا أنه أنتِ، تسـتمر ولا تتوقف! قُلتُ لها: كفى يا ساندرا! علمتُ أنها أنتِ؛ أشـكرُكِ!. فتوقفتْ. عائلتي؛ ساندرا والكلب وكتب مجيد، أنا سعيد، ما فعلتُه سـاندرا أكد لي معنى جملة الوحي: (كل ظلٍ قام سيمسح على ظلٍ واحدٍ فقط). أتمنى ألا يمسـح هذا الكلب على كلبـةٍ، لك الحق في ذلك يا صديقي الجديد ولكن ليس الآن.

ليلُ المدينةُ وحشٌ يبتلع صغارَ أمالِهم، الليل لا يحب الضعفاءَ ولا يرحمهم، وجـدتُ من يجلس على الرصيف، بجانب بائعِ الكتب، الحقيقة أحببتُ هذه المنطقة؛ وذلك بسبب وفرة الكتب على الأرصفة، أقف بجانبها وأقرأ ما أريد دون المسـح عليهم؛ حينما أجد مكانًا يتسع لكل الظلال سأفعل، لن أتحدث إليه بل سـأمتزج بظله وأسـمع أفكارَه، اقتربتُ منه وصرتُ أنا ظله، هيّا يا بائـس الحياة والهيئة؛ أفصح عما بداخلك، (....)، هل هذه مزحة؟ أم أنه لا يفكر؟ قُل شيئًا يا عديم الفائدة!

(وأنا أحبُكِ يا ثورة، أعشـقُ خصلاتِ شـعركِ الحمـراوات، ملامحَكِ التي تشبه حورية البحر، دخانَ سـجائركِ والنمشَ الذي استوطن وجهكِ المسكي، قامتَكِ القصيرة، عينيكِ العسليتين، نهر البراءة الذي يمر بداخلهما، ضحكتَكِ، ولعَكِ بالكتبِ، كلمـةَ "صباح الخير» منكِ وأنتِ تنزعين النومَ عنكِ، لكماتكِ الطفلة حين نتقابل، تبخترَكِ أمامي وأنا أتابع سحرَ خطواتِكِ

لا جســـدَكِ، نقاشَـــكِ وتلذذكِ بهزيمتي مع أنني مـــن أردتُ ذلك لا أنتِ، اتـــكاءك على كتفي، عندما فعلتيهـــا بدون قصدٍ، وكنتُ أنا البهجة نفســـها وقتها، جنونَك لما أشـــعلتِ النار بجزءٍ من شـــعر ذراعـــي، وخوفَكِ عندما ظننتِ أنني قد أردُّ لكِ أبلســـة فعلتِكِ، ولكن كيـــف! كيف لمن يريدكِ فقط راضيةً أن يروّعكِ ولو على سبيل المزاح! لا مبالاتَكِ، دموعَك التي أمسحها فأشـــعر أنني المسيح؛ أمســـح ذنوبَ العالم عنكِ، أنوثتَكِ ورقةَ كلماتكِ، وأنا أحبكِ يا ثورة ولكنكِ سعيدةٌ بكوننا أصدقاءً وأنا لا أنشد سوى سعادتكِ).

عاشقٌ صادقٌ، سمعتُ الكثير، ولكنها المرة الأولى، التي يمنّ على مسامعي القدرُ بشـــخصٍ مثله، مع كل كلمةٍ، كان يرى ثورة وأنـــا معه؛ البنت جميلةٌ وبســـيطة وهذا كل شيء، تحدثتُ إليه: «إنها جميلة حقًـــا". فزعَ وقام: «ها؟ من هنا؟ أعوذ بالله من الشـــيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشـــيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!». ركض بعيدًا، بالطبع سيركض لأنه جبانٌ، مخلوقٌ من طين، كيف له أن يتقبل فكرةَ الحديث مع مخلوقٍ من.. مم خلقتُ؟ ليجيب صوتٌ بهدوء: «الإجابة عندي إن أردتَ سماعها».

نَبيٌّ

وقفتُ وحيـدًا وإمامي تمردي، أمامي هذا المخلـوق من النار، وجوده أخفى عائلتي من شـدة سطوعه، لا أرى ملامحَه، جسـدٌ ملتهبٌ يخرج منه جناحان، قال بصوتٍ هاديء: اسمي في السماء الدنيا العابد وفي الثانية الزاهد وفي الثالثة العارف وفي الرابعة الولي وفي الخامسة التقي وفي السادسة الخازن. ابتسمتُ وسارعتُه قبل أن يكمل: وفي السابعة عزازيل. سكتَ واقترب مني، ضحـك كثيرًا، ضحك للحد الذي جعله يلفظ نارًا على الأرض، ثوانٍ قليلة ووجدتُه رجلًا بحلة سـوداء وقميصٍ أسـود، شـديد البياض والوسامة، يمسك بعصا تتخذ من الحية شكلًا لها، هل فعل ذلك بسبب المارة؟

طلـب أن أتبعه أنا وعائلتي، رفضتُ قائلًا: لقد دفنتُ كلمة (اتبعني) منذ قيامتي. ابتسم وقال: حسنًا؛ هل يمكن أن نتحدث سويًا بأي مكانٍ تختاره؟ لا تقلق؛ المصاريف أنا متكفلٌ بها. وافقتُه بعد طريقة عرضه، أريد معرفة ماذا ينشد، أخبرتُه بسعادتي إذا تحدثنا داخل مكتبةٍ، تعجب قليلًا ثم وجدتُنا جميعًا بين الكتب، الكثير من الكتبِ، سـألتُه أين نحن فقال: مكتبة القسطنطينية، أنها المكتبة التي أُحرِقَتْ مع بداية الحكم المسيحي، حملاتُكم الصليبية، فقدت المكتبـة مائةَ وعشرين ألفَ مخطوطةً، بعدما كانـتْ حافظًا للمعرفة القديمة لليونان والإغريق لأكثر من ألف عام.

لمـاذا أحضرنا إلى هنا؟ ولمـاذا يقول حملاتكم والمسـيحية؟ الحديث حتمًا

سيكشف كل شيء، قُلتُ لساندرا أن تقف بمكانها ولا تتحرك مهما حدث، أظهرَ عزازيل عرشًا كبيرًا وجلس عليه: (الحقيقة أنا هنا لأن أحدهم استعاذ مني بالرغم من غيابي! فوجئتُ بوجـــودك أنت لا أتباعي، أمرتُهم بالتراجع وأتيتُ بنفسي لأتعرف عليك، من أنت؟. تحدثتُ إليه بنفس ثقته: أنا نبي.

تنحنح وأكمل: نبي؟! لا أذكر هذا الذي بعث من قبل.. أعتقد أنا آخرهم كان محمدًا، لا تكذب عليّ يا أنت؛ أنا أساس الكذب فلا تتحذلق.

- اســـمي نبي، بالثورة بعثتُ، أنا عقابُهـــم وممتطيهم وخوفهم، أنا معجزةُ هذا الزمن، أنا...

قاطعني وهبط مسرعًا من عرشه، يدور حولي، أعتقد أنه يحاول أن يمسك بي، يسأل نفسه :كيف؟ ولِمَ؟ وما الذي يحدث هنا؟

كلما همَّ بلمسي فشـــل، ثارَ ورجع إلى شـــكله مجددًا بل وزاد من توهجه، النور يسطع بالمكان، وأنا أقف بمكاني، كل ظلِ اختفى سواي.

- مســـتحيل! أنت ظلٌّ حقًا ولكن كيف؟ اخبرني بـــكل شيءِ الآن وأنى لمنصت، يبدو أنك سحرٌ سفلي من السحرة القدامى، لا أصدق!

المسكين لا يصدّق، لابد أن أقنعه بمعجزتي، عزازيل يرفض وجودَ متمردِ مثله:

- أنا نبـــي والثورة مذهبي، ظلٌّ متمردٌ، أكره البـــشرَ وضعفَ قلوبِهم، أنا ظلامُهم، لا منـــاصَ مني ولو نار إبراهيم، أنا من جاء ليعلّم الإنســـان، لن يهزم مســـعاي إنسٌ أو جان، نهايةُ عالمهم وشيكة، سنقوم، سنتعلم، سنثبت، سنثور، سنشعل، سنحارب، سنكتب، سنرسم، سنلعن، سنؤرّخ، سننقش،

سنبني، سنزرع، سنصنع، سنتاجر، سنبيع، سنَستَعبِد، سنُرهِب، سنمجّد، سنطهّر، سنبقى، سنحكم.

نظرتُ خلفي فوجدت حائطًا كبيرًا ما زال سليمًا، توجهتُ ناحيته وامتزجت به مستغلًا توهجَ عزازيل فتضخم جسدي حتى دثرتُ سطحه بي. ثم قُلتُ بصوتٍ زلزل المكتبة من حولي:

- وقتي لا يتحمل تفاهاتك، قبل أن أرحل يا عزازيل؛ أنا لستُ مسيحيًا ولا تملي عليّ بديانات البشر، أنا لستُ بشريًا لأعبد الله بطريقتِهم، ولا مطرودًا من رحمتِه، أنا حربي معهم وأنت حربُك مع الله، أنا حربي حليفُها النصر وذلك لأني معجزته وغضبه عليهم، أنت حربُك خاسرة؛ أنت تستعين بالمخلوقات ضد الخالق، أنا نبي؛ نبي الظل، وأنت؟ أنت مجرد مخلوقٍ نهايته مكتوبة، أنت ومن تبعك، أنت أضعف مما تخيل يا عزازيل.

يصفّق ويضحك، يسعل ويصفّق، تضخم جسده هو الآخر وتخلى عن طور التأنسن، صرنا عملاقين إذا اتحدا لغرق العالم، قال لي وهو يفرد جناحيه مستعرضًا: بعدما أحضرتُكَ إلى مكتبةٍ احترقت منذ القدم تراني ضعيفًا؟ سأريك شيئًا آخر ربما تعدل عن تواضع رأيك.

طلب مني أن أمد يميني ملامسًا جسده، فعلتُها، زعزعتني رياحُ المواقف، أرى آدم وهو يقطف التفاح، أرى قابيل وهابيل، قومَ لوط، فرعون، أرى الصليب، أرى الفيل الحبشي، العبيد، الحروب، الأسرى، نساءً يُغتَصَبون وأطفالًا يُغتَصَبون، أرى بلادًا نكحها الفقر، إعلامًا ضلل تابعيه، الكذب والنفاق والجهل والمرض والخيانة، نساءً يغوون رجالًا، أرى أعضاءً بشرية تُباع، أسمع بُكاءً وصراخًا وحفلاتِ مجونٍ، أسمع مخططات وانقلابات،

أرى ثــوراتٍ لا تقوم، أوطانًا يتلذذ المســتعمرون ببتر حقوقها، جنودًا تقتل بدون حق، أموالاً تُنفَق وهناك من يســتغيث، مرضى ينتظرون الموت، دماءً، ظلمًا، ذنوبًا، شيوخًا وقساوسة تزني سرًا، باغياتٍ يُشهرن فُجرَهن علنًا، أرى عالمًا عزازيل يمسكه بين يديه.

ســحبتُ يدي، عزازيل يراقبني وســاندرا بالمثل، قُلتُ لــه: هل أخبرك أحدهم بــأني أملك قلبًا؟ أعتذر لك يا عزازيــل ولكنني لم أتعاطف معهم، ولأنك لا تستطيع أن تلمسني؛ سأبرز عن الحائط قليلًا فتنفذ يدك من خلالي وترى وقتها ما أحمله بداخلي أنا أيضًا.

وافق عزازيل ودفع شــمالَه لتخترق جســدي، لحظــات صمتٍ، عزازيل يصرخ، هــل تخيلتَ يومًــا أن تصرخ يا عزازيل، لســبب آخــر بعيدًا عن الاستعاذة منك؟ نعم أنت تصرخ لأنك لا ترى شيئًا، نارك لن تنير لك قبري ووحشته، أنت مُحاط باللا شيء، فوقك تحتك يمينك يسارك لا شيء، الخواء، العالم الذي لا حد لظلامه، مرمــى بصرِك لا يلمح ما قد يطمئنك، أأدركتَ الآن لِمَ أنت ضعيف يا عزازيل؟

– أخبرتُك ولم تصدقني، أنا ظلٌ أساسُه الثورة والتمرد والظلام، لا تحاول منعي ولا التعاون معي، لا تحاول الوسوســة لأنني بلا شهوة وبلا عاطفة، لستَ خطرًا، بل ســأجعلك أنت من تســتعيذ مني يا إبليس! أعرف مدى بغضك لهذا الاســم ولكنّك إبليس الذي لن يهزم بني جنسي، سيسمعونني أنا فقط، لك مطلق الحرية مع بني آدم ولكن لا تقرب بني الظل، لا ســلامًا عليك ولا لقاءً مجددًا.

أراد إبــراز عضلاتِه فندم فوق ندمه ندمًا، اقتربتُ منه ومســحتُ عليه ثم

سـألتُه بكل ما أوتيت من حكمةٍ: والآن؛ هل سـتخبرني مما خُلِقتُ أم أنك كاذبٌ كالعادة؟

اختفى، أشرتُ إلى سـاندرا أن تحضر الكتـبَ والكلب معها، خرجنا من بـاب المكتبة، تمنيتُ لو أنهـا حقيقية، الليل ينفخ بحرَه عـلى مراكب عالِمنا، التفتُ إلى سـاندرا: ظلام العالم سيمنعني عنكِ؛ سأنتظر قيامتك مرة أخرى مع أول ثغرة نور.

أمير الظّل

الظلام هنا زاد عن الحد، الشارع ساكن تمامًا كجثة فتاةٍ تُغتصب، لا مارة ولا أصوات، هنالك متسع من الوقت كي أقرأ، لكنّ القدرَ يحب المفاجآت، وجـدتُ ورقةً تتراقص في الهواء، يسـحبها كغانيةٍ وهـي تتمايل، أسرعتُ تجاهها، ورقةٌ بسـيطة بالأبيض والأسود، كُتِبَ عليها: «معرض الظل». هل يعرضنا أحدهم؟

تأملتُ موعدَ المعرض، وحسـبما أتذكره من تواريخ البشر، المعرض كان العـام الفائت، أنا لا أعـترف بالمُصادفات، المكان قريب مـن هنا، العنوان الموضوع هو «جاليري الحيـاة»، الموجود داخل بناية الملهى الليلي الشـهير بشارع جامعة دول، لنذهب ونرى، سرعة وخفة حركتي تزدادان كل ساعةٍ، فضّلتُ الذهاب سـابحًا بالأرض كعادة الظلال، سيارة تمر وشخصٌ يجلس على الرصيف، قطة تشاكس كلبًا، الليل ما زال متوخّمًا، حارس العقار بالطبع يراقـب زبائن الملهى، وقفتُ على قدمي، دخلـتُ إلى البناية، حارسُ العقار سألني: إلى أين يا أنت؟

خير الإجابة هنا السـقوط على الأرض، امتزجت بها مرةً أخرى، سمعتُه يسـتعيذ ولا يفهم ماذا حدث، يلعن الخمر ومـا تفعله بالعقل، مررتُ بهذا الملهى، سـأرجع إليه يومًا ما، البناية كلاسيكية للغاية، ضخمة من الداخل والرخام يكسـو المكان كله، الحائط أحمر والسـلالم بيضاء، الطابق الثالث، «جاليري الحياة»، والحياة هنا بالفعل، النور بالداخل يسطع أكثر من اللازم،

الدخول من تحت الباب يشـــعرني بميزة كوني ظلًا، وقفتُ من جديد، الشقة واسعة، الحوائط بيضاء كجلد ساندرا، لا أفهم أين المعرض؟

خطواتٌ تتحرك ببطء، شيخٌ أحدب قليلًا، الشيب استعمر رأسه، جسده مترهل، ملامحه مبهمة من تحت تلك النظارة الســـوداء، سأقترب منه وأصير ظله، سأتعرف على نواياه وأفكاره، ما هذا؟ المنظر حقًا جميل وغريب! رأيتُ العديد من الأشـــياء؛ زجاجاتِ مياه غازية، أكوابَ الزجاج والبلاســـتك، أخشاب، نوافذ، بقايا زجاج متحطم، نصف منضدة، حاولتُ إدراك المغزى مـــن تواجدهم بهذه الصورة، ثم وجدتُ مصباحًـــا نوره كنور الصباح، يمر بكل الأشـــياء الســـابقة، فيعكس على الحائط شكلَ ســـيارةٍ بداخلها عائلة رُسِمَتْ بالظلال.

إذا كان هذا الرجل يقـــدّر الظلال هكذا؛ فلابد أن أتكلم معه، لن يركض مثلهم، سأجلس فوق السيارة التي رســـمها على الحائط وأراقب ردة فعله، هل يراني؟ حســـنًا ســـأقف على مقدمة الســـيارة فأصير أكثر وضوحًا، الآن ســـيلحظني بلا شـــك، يجلس أمامي مباشرةً ولم يعلّق على وجودي! وقفَ فجأةً كأنه تذكر شـــيئًا، أخرج هاتفه المحمول من جيبه، حركات هذا الرجل تثبت لي أنه ضرير: «أحســـنتَ صنعًا يا جد». قـــال بصوتٍ مبحوح: «من؟ وكيف دخلتَ إلى هنا؟ إذا كنتَ لصًا فأنا لا أملك شـــيئًا ســـوى أدواتي التي تساعدني على الرسم وهي بلا قيمة! أرجوك لا تؤذني أنا ضريرٌ عجوزٌ ينتظر حياته الأخرى».

حدسي لـــن يخذلني أبدًا، هل هذا حـــدسي أم شيء بديهي؟ لا يهم، نزلت عن الســـيارة وخرجتُ عن الحائط، وقفتُ أمامه، يتراجع متأهّبًا، القدر حقًا يحبني، أنه لن يراني، ســـأقنعه أنني منهم، مـــن الواضح أنني وجدتُ المكان

الأمثل لخطتي، يتحسس عصاه، الخوف والبشر، لماذا يخاف البشر؟ العجوز يلتفت حوله لعله يعرف مكاني، مسكين، العبث يجب أن يتوقف؛ نعم لا أحب البشر ولكن لا يصح: «اسمي نبي، أنا بريءٌ، هربتُ من لصوصٍ، والحقيقة شقتك هي ملاذي الوحيد..». حجةٌ قد يرفضها طفلٌ بالثامنة من عمره! يهز رأسه يمينًا ويسارًا، ابتسم، جلس على ذلك المقعد المستدير الوحيد، اتكئ على عصاه وخبرته، لا أعرف لماذا يرتدي نظارةً سوداء، قرأتُ أنهم يفعلون هكذا، إذا كان شكل العين لا يسر، خلع نظارته، فهمتُ للتو بعدما تحدث..

«سرقني لصٌ منذ عشرين سنة، هل تعلم أنه خلعهما، كان من الممكن أن يصيبني بالعمى بطرقٍ شتى، ولكنه فضّل أقساهم، ضربني على رأسي، جلس على صدري، وبدأ يضحك مع كل صرخةٍ مني، السافل كان قويًا، اقتلع العين والرؤية والرحمة والروح، أنا لا أصدقك على أي حالٍ، كيف عرفتَ مكان شقتي يا نبي..».

قيل إن البشرَ قد يبكون عند سماعهم لقصةٍ مثل هذه، أنا لم أتأثر، حتى لو اقتلع روحك ولسانك يا شيخ، هذا العجوز يعاني من الوحدة، الصدق ونس هذه الجلسة، والحقيقة يعجبها الموقف، أخبرتُه بكل شيءٍ بلا تردد، الوحي، القيامة، المسح، الظلال، عزازيل، مجيد، ساندرا الظل والبشر، يسمع ويهز رأسه فقط، لعدم وجود العين، هل يصدقني؟ لا يهم، يضحك تارةً وينفعل معي تارةً أخرى، أشار إليّ بالتوقف عن الكلام..

«نبي الظلال؛ الملهى يرسل المجانين السكارى، إذا لم ترحل في خلال ثوانٍ؛ سأتصل بحارس العقار وسنحضر الشرطة!». توجهتُ إلى سيارة الحائط مجددًا، وفي تحدٍ صريح طلبتُ منه أن يفعل، انفعل، أخرج الهاتف، لحظاتُ

صمتٍ، يصرخ، يأمر حـــارسَ العقار بالتواجد فورًا، لحظاتُ صمتٍ، طرقٌ بابٍ، لحظاتُ صمتٍ وخطواتُ عجـــوزٍ، فُتِحَ الباب، الحارس أتى بصحبة رجـــالٍ من أمن الملهـــى، الجميع يبحث عني، التوتر يقل، نظراتُ ســـخريةٍ وحنـــقٌ يظهر، لحظاتُ صمتٍ، العجوز يُقسِـــم، الحـــارس يرحل، لحظاتُ صمتٍ، الوحدة من جديد، بُكاءٌ وســـباب، العجـــوز يجلس أرضًا، تركتُ السيارة وذهبتُ إليه وصرتُ ظلَه، أسمع أفكاره من بين نحيبِه..

"أين أنتِ يـــا رحمة؟ يا فتاتي الصغـــيرة، الوحيدة التي ســـتصدقني، هل أصابتني هلاوس الشـــيخوخة؟ لماذا يا ربي تُعاملني هكذا؟ ضريرٌ بقســـوة، مُطلّق، خسرتُ كل شيءٍ، أنا كنتُ قديسًا بالنسبة إلى هذا العالم، هل لأنني لا أسرق ولا أنافق ولا أزني؟ هل يجب أن أكون إنسانًا حتى تُعاملني مثلهم؟ أنا شيخٌ عجوزٌ عاجزٌ عن الحياة! لماذا جعلتني عبئًا عليها، لقد سميتُها "رحمة" حتى أشـــعر بأن رحمةً تحاوطني، أنا أمير الظل، أسمع هلوساتِ لنبي الظل، أين ملاك الموت؟».

أيعقل أنهم جميعًا يتحدثون بهذه الثقافة والفلســـفة؟ كلما سمعتُ أحدهم وجدتُه يعبّر عما بداخله بطريقة درامية فلسفية تُصلح لكتابة رواية! أنا واثقٌ أنني أســـمعهم بطريقتي وتمكني اللغوي من صياغـــة العبارات، ومن كلام الشـــيخ عرفتُ «رحمة»، هو لا يســـكن بمفرده طوال الوقت من الواضح، الشقة هنا مساحتُها ضخمةٌ حقًا، سيكون منزلك مقرًا لنا، يا أمير الظل، كم أجد لقبه مضحكًا..

وا رحمةً!

رحلةٌ قصيرة، نور الفجر غزل شـــباكه، أحضرتُ عائلتي المقدسة بعدما قاموا، نزلتُ بهم إلى أرض أمير الظل، ساندرا تتبعني، الكلب يتبعها، الكتب في يـــدي، الجميل في الظل أنك تُهمِل حســـاباتِ البـــشر، الكثير من الكتب وظلهم ضئيل، من اليوم أنتِ مريم لا ســـاندرا، نعـــم أراكِ مريمتي، وهذا ليس عشقًا؛ إنما تعظيمًا لشأنكِ، وابتعادي عن كل تفصيلةٍ قد تذكرني بمجيد، طلبتُ منها البحث عن مكانٍ يليق بها، الكلب لا يفارقها، العجوز غادر، لا لم يفعل، ســـمعتُ صوتَه بالداخل، يهاتف أحدهم، وجدتُ عائلتي متحلقةً النجفة! النجفة من الكريســـتال، قديمة وشـــكلها رائع، مريم تتابعها كعادة النساء! ها هي تنزل وتقف بجانبي مرةً أخرى، وكأنها تطلب مني المساعدة، أشرتُ لها بالجلوس داخل السيارة المرســـومة على الحائط، الكلب هبط من السقف كالوحي على الكاتب.

اقتربتُ من هذا الشيء المستفز الذي يعرف منه البشر الوقت، إنها السادسة صباحًا، هل نام العجوز؟ لا يهم، سمعتُ الباب يتحرك، امتزجتُ بالحائط، خطواتٌ خفيفة، صوتٌ رقيق، لابد أنها رحمة، انتظرتُ حتى أرى من تســـند شـــيخًا مثله، الحقيقة البنت كانتْ بسيطةً، جعلتني أؤمن بجمال مريم، نعم؛ ظل مريم أجمل من هذه النحيفة، التي فقد سحر الأنثى طريقَه إليها، قصيرة، شعرها تشبّع بســـواد الليل، ملامحٌ باردة وعينان ضيقتان، أنف كبير؛ عقدةٌ للكثير، لا يبرز منها نهدان ولا اســـتدارة الفخذين ولا تألق المؤخرات؛ هذه مجرد روحٍ تسير، ولديها الكثير من العُقَد حسب طبيعة البشر!

تســتغفر الله، تخرج هاتفها القديم، تضعه بالمنضدة الوحيدة التي بجانب الباب، العجيب بالمــكان؛ هو خلوه من الأثاث تمامًا، تحركتُ كي أشــاهد أين ينام هذا العجوز، الشــقة مساحةٌ شاســعة، الغرف كلها متقابلة، أربع غرف، داخل ممرٍ، ثم غرفة وحيدة، ينام بها العجوز على الأرض! نعم افترش الأرض ومضجعه بضع بطاطين، الفقر ثالثهما لا محال.

دخلتْ رحمة، العجــوز انتفض، تنحنحتْ فعرفَ أنهــا هي، حمدَ الله على وجودها، قصّ عليها ما جرى، لم تعلّق، اكتفتْ بالســكوت، أخبرتْه بموعد معرضٍ جديد، سيدعم تكاليفه رجلُ أعمالٍ، سألها إذا ما كان هذا الذي تعمل لديه، ســكتت، فَهَمَ، يعرف نواياه، لن يساعده في تحويل المنزل إلى مقرٍ تابعٍ للملهى، المبلغ المعروض يتزايد كل محاولــةٍ ورفضه بالمثل، ذكّرها بموافقته على عملها بالملهى في قســم الاســتقبال، ذكّرته بالمرتب الذي يســاعدهما، موهبته للرسم بالظلال لا تساعدهما.

أخرجتْ من حقيبتِها شــطائر قد تسد جوعه، لم تنطق بكلمةٍ أخرى، الملل يضحك بجانبي، هــذا العجوز أحمق ورحمته حمقاء، الســكوت قاتل، أثناء مراقبتي لهما لم أجد الكتب بيدي! شــعرتُ بــشيء يتحرك بداخلي؛ الكتب! يبدو أنني أســتطيع تخزين الظلال بداخلي! أظلٌ أنا أم حفرة؟ القدر يفاجئني كثيرًا اليوم، أعتقد أن لابد لي من التدخل حالًا واســتغلال الموقف: «أعتذر عن وجودي غير المرغوب، أبوكِ لم يكذب، أنا ظلٌ وهو محق..».

هل تسرعت؟ رحمة خلف أبيها تصرخ، الصراخ لا يُطاق، السادسة ونصف صباحًا، طرقاتُ بابٍ من جديــد، اقتربتُ من رحمة وصرتُ ظلها، ركضتْ وهــي تجهل أين أنا، فتحتْ الباب، حارس العقــار يغالب النوم ويتحدث، لا يفهمها، كل الأفكار الســوداوية تدور بخلــد تلك الفتاة! أنا ظلٌ لفتاةٍ لا

تعرف الرحمة واسمها رحمة! تصرخ وتفكر بداخلها كيف تحرقني! أنا لستُ شـــيطانًا! حارسُ العقار دخل إلى الغرفة، بعدمـــا أدرك بضع كلماتٍ، طلب منها أن تكف عن الصراخ، أقسَمَ لها بعدم وجود ما تخيلته، أبوها قال له لقد سمعناه ســـويًا، حارس العقار أخبرهما بأنه سيذهب إلى دجالٍ يعرف كيف يطردهم، رحَلَ، رحمة تركض كمجنونةٍ وتنظر في جميع الاتجاهات، انفصلتُ عنها ووقفتُ أمامها، وبصوتٍ مهيبٍ يشـــبه الموت أمرتُها بالسكوت تمامًا: «أنا نبي، بعثني الله، أنا لســـتُ شـــيطانًا، يمكنكِ أن تستعيذي مني إلى ما لا نهايـــة، أنا هنا لأنني عثرتُ عـــلى ورقةٍ قديمة لمعـــرض الظل الخاص بكم، ولأنني وجدتُ أباكِ يحترم الظل، أعجبتني مهارته كثيرًا، هل يمكن أن نهدأ جميعًا ونتحدث، حتى تلك اللحظة، وأنا أتكلم والذوق رفيقي».

ربت أبوها على كتفها، العقل خامسنا الآن، رحمة ترتجف وتتظاهر بالثبات في آن واحد، أمير الظل اتكأ على عصاه كموســـى، هز رأسه، رفع يديه كأنه يلفت نظري، لا أفهم ماذا يريد، ابتســـم وبدأ يتكلم بصوتٍ هادئ: «رحمة، لأنـــكِ عيني، هل هو ظلٌ كما قال؟». صوتُها خـــرج متحشرجًا، أكدتْ على كوني ظلًا، وقفَ فجأةً ثم أضاف: «إذا كنتَ نبيًا كما تدّعي، وأرســـلك الله، فلابد من رؤية معجزتك أيها النبي!».

الذكاء البشري، هذا الضرير لن يرى شيئًا إذا لمسني، أعتقد أن مسحةً على ظلّيهما ســـتجعلهما يخرّا لي مُصدّقين، نزلتُ عـــلى الأرض، وفعلتُ ما بُعِثْتُ به، صرختْ رحمـــة حين وجدتْ ظلّين بجانبي، شرحتْ لأبيها أنهما الآن بلا ظلال، فقدتْ الوعي، اللعنة على حساسية النساء تجاه المفاجآت، أبوها يجثو على ركبتيه ويتحسس جسدها حتى وصل إلى وجهها، صفعةٌ خلف صفعةٍ، البنت لا تتجاوب، سمعنا صوتَ آناتٍ، فهمنا أنها بخير، تركها وطلب مني

بودٍ لطيف أن أعيد ظله، قُلتُ له بأنني مُحررُهم جميعًا، وأعدتُ على مسامعه كل كلمةٍ ضربتُ بها إبليس، سمع رحمة وهي تهمهم بكلماتٍ مثل: «مسيح، مسح، قاما، الظل، نبي». تلعثم الرجل مستفسرًا: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله! وهل يعني هذا أننا على مشارف عقيدةٍ جديدة؟».

هل ذكرتُ ديانةً جديدة؟ هل قُلتُ أنا أصلًا كلمةَ «دين»؟ سكتُ لأنني أفكر كيف سأستغل المساحة هنا، لا وقت لدي لأضيعه في إقناعهما بأن ديانتي الثورة، ضريرٌ يريد معجزةً وفتاةٌ، تريد أيضًا معجزةً، لعلّها تصير أنثى، خرجتُ إلى عائلتي، مريم لم تبرح مكانها، سأحدد ملامحَ ثورتي، المقر مثالي، الضرير غبي، ولكنه قد يُشارك، مشكلتي هي رحمة، وهذا الظل الذي وجدتُه بداخلي مع الكتب! ظل من هذا؟

ربما تعمّد ذلك

يراقب ابنتَه، أُراقبُه، ينشـــد الرحمة، أناشـــده، عَهَـــدَ كينونتي، عاهدته، العجوز قلق، البنت غائبة، الثورة قادمة، أشكر الخالقَ لأنه نَزَعَ العاطفةَ مني، مريم بجانبي تحمل الكلب، رحمة تفتح عينيها، ترانا جميعًا، تصرخ مجددًا حين لمحت مريم، العجـــوز لا يفهم، أخبرتُه، العجوز يطلب منا مغادرة الغرفة، هـــل يمكنني قتلها؟ بالخارج لمحتُه، إبليس يعتلي عرشـــه، اقترب مني وناره أخفت مريم والكلب، قال بصوت أجش: «اسمعني جيدًا، سترد لي الأمانة التي أخذتها مني..».

ما فائدة ظلِ إبليس؟ نعم مســـحتُ عليه يـــوم تقابلنا، ويبدو أنني وضعتُه بداخلي دون أن أشعر، وســـمعتُ الكثير مما يحادث به نفسه، ما لم أتوقعه هو كل كلمةٍ قالها عن التوبة! حتى إبليس، لم يحفظ وعده بينه وبين نفســـه، على أقل تقدير، هل أرهقه الهروب؟ والنبذ والكراهية وكم الاستعاذة منه؟ تخيلتُ صورةً له وهو يســـجد! إذا ما حدثت تلك المعجزة -وأشـــك بذلك- كيف سيحاســـب البشر الآن؟ وهل ســـيخبرهم أحدٌ بتوبة إبليس؟ ولو تاب هذا الملعون؛ أسيُذنب الإنسان بعدها أم ســـيتوقف؟ مدينة فاضلة؟ بلا ذنوب، بلا أخطاء، بلا ثورات! فتح كتابًا وشرع يقرأ، صوتُه بشـــع، نظرتُ على ظل الكتاب، وجدتُ الغلاف يحمل عنوانًا غريبًا: «إنجيل الشـــيطان"، المسكين يحاول أن يلق عليّ تعويذةً: «ماذا يحدث لي؟ أشـــعر بدوار غريب.. هل يحمل كتابك بين طياته طريقة إعداد الليمون بالنعناع؟».

زفر جنونه حين وجدني لا أتأثر، وقفتُ ثابتًا، كظلٍ ينتظر صاحبه ليرافقه، أغلق الكتابَ وأخفاه، العجوز بالداخل لا يسمع شيئًا، يمكنني حسم هذا الموقف بالاستعاذة منه، على كل حالٍ إبليس لن يترك ظله، ابتسم وهو يحدثني: «حسنًا يا نبي الظل، لنعقد صفقةً، صفقتي معجزة، وليست بيع الروح!».

مقدمات غير مبررة، يتحدث ويذكر كل مواقفه من الرب، أنثاه عبر التاريخ، أتباعه ووسوسته، كل القادة والحلفاء، هُراء لا يفيد، قصة الخلق، فوائده للبشر! كيف تعلم منهم -وبخاصة النساء- الشر والكيد، جلجثة المسيح، وقتها راقب المشهد ضاحكًا، المضحك حاليًا هي ملامحه؛ المسكين لا يعرف إذا كنتُ مهتمًا أم لا، ملامحي السواد الخالص، أشعر بالعذراء مريم خلفي، تريد أن تقتله، قصة يوسف والنسوة، السكاكين..

سألتُه بشكلٍ مباشر عن الصفقة، دون مقدماته اللزجة.

«سؤالٌ وحيد، إذا كانت الإجابة عندك؛ سأرحل بدون ظلي..». الصفقة تبدو عادلة، الإجابة بالطبع عندي، أنا نبيٌ أخبره الوحي بكل شيءٍ، إيماءة خفيفة ففهم أنني مُستعد، جلس على عرشه: «هل يجوز زواج الأنثى من الخنثى؟». فهمَ من صمتي، جهلي بالإجابة: «حقًا؟ ألم يخبرك بالجنس الثالث؟ أم أنه لا يريد ذكر عيوبَ خلقه! ظلي يا نبي..».

الصمت ولا غيره، الإجابات قد تبدو ساذجة، السماء تكرهني، العجز لفّ ثعبانَه حولي، عزازيل يضحك بشدة، يقهقه، ناره تحاصرني، كأنه يريد أن يدخلني الجحيم معه، حتى آيودي؛ من كانت تنعم على اليونانيين بالمعرفة، رحلتْ جهلًا، عزازيل رسم ساعةً نارية في الهواء، عقربان حقيقيان، ما الخنثى؟

الجهل يحوم حولي كما الصقور، الإجابات تمتنع كعروسٍ ليل زفافِها؛ زوجها عجوز والزيجة غصبًا، لا مفر من الاستسلام، أخرجتُ ظله منّي، ألقيتُه على الأرض، ثم أمرتُه بأن يتبع صاحبه، خـــرج إبليس بدون كلمةٍ، الخوف كله من الظل الذي ســـيرحل معه طبقًا للوحي، وكأنه عقابٌ لي، رأيتُ الكلبَ، انتظرتُ ظلَ مريم، لم تعد، هل هذا هو الانتظار الذي يكرهونه البشر؟ مريم ذهبتْ، غادرتُ الشـــقة، ركضتُ صاعدًا إلى ســـطح البناية، الباب مفتوح، المساحة خالية، الكثير من أطباق الأقمار الصناعية، وقفتُ بالمنتصف ونظرتُ إلى السماء وصرخت:

«لماذا! لماذا لم تخـــبرني بكل شيءٍ؟ أليس أنا من أرســـلتَه كي أعاقبهم! لقد هزمني عـــدوك الأول! هزمني كما هزم آدم وأخرجه مـــن الجنّة! لماذا تتركه هكذا! بدأتُ أشـــعر بأنـــك تحبه! نعم! تحب إبليس وتتركه يلهو كما يشـــاء، لأنك لا تريد أن تؤذيه، أنا نبيٌ بلا إجابة! لقد أثبتُ للملعون أنني نبيُ! ومن سؤالٍ واحد فقط؛ تأكد له أنني مجرد ظل، هو محق! سؤاله خبيث مثله ولكنه محق! لماذا لم تخـــبرني بوجود الخنثى! لقد تعمدتَ أن تضعني بهذا الموقف، أنا لســـتُ مغرورًا كي تقتل غروري على يد من قال لك لا! أنا لســـتُ مغرورًا كي تجعله يهد طود شـــموخي بتلك الطريقة! ولِمَ أنا بالتحديد؟ هناك الملايين من الظلال، ومجيد لم يكن القديس ولا الآثم حتى الســـماء لتجعل ظله نبيًا، الوحي لم ينزل عليّ كاملًا، أنت أطعمتني فقط ما تنشده، ومع هزيمتي تذهب عنّي أنثاي! لماذا لم يغادر الكلب! لماذا لم تتركني الكتب! سأقرأ وسأعرف كل شيءٍ، مهما بلغ الأمر، مهما بلغ الأمر، أتسمعني؟؟؟ مهما بلغ الأمر...».

وهبطتُ إلى أرض أمير الظل من جديد..

الدهشةُ روحُ البشر

الوقت إبليس عالمي، مجاسدة حياتهم المريضة دافعي، لا أهمية لوجود أنثى في حياتي، الأنبياء مذهبهم الزهد، الثورة والثورة فقط، اليوم سأبدأ بمسح ظلال تلك المنطقة، ومن ثم إعطاءها الأمر بسلك منهجي، الشقة هنا ترتيبها يساعد على ذلك، لن أقرب غرفةَ العجوز، بقية الغرف ستصير سفنًا لتابعيّ، البشر في غرفة، الحيوانات في غرفة، الأشياء والجمادات في غرفة، وكل ظلٍ ليس موجودًا بعالمنا- مرسومًا أو قابعًا خلف شاشات التلفاز والسينما -في غرفة.

الآن لم يتبق سوى الحديث مع العجوز ورحمته، ولأنني أرى رجلًا يعتنق المثالية، وفتاةً تبحث عن رزقٍ، سأخبرهما بصفقتي، ندهتُ عليهما، جاء العجوز فقط، قال أن رحمة نائمة، طلبتُ منه بكل ودٍ الجلوس على الكرسي الوحيد بالصالة، الرجل يرتجف ويعاملني بهيبة، الخوف يا بشر هو سمتكم، يا ليت الخوف يهابكم مثلما تهابونه، جلسَ وابتسامة كاذبة تلازمه، أخبرتُه بما أرنو إليه، هنا مقر ثورة الظلال، إن وافق فله ما لم يكن يتخيله، وإن رفض فعليه ما لم يكن يتخيله!

ذهول البشر من الخطط العظيمة؛ إثمٌ لا يُغتفر، يكرهون المجازفة، الغالبية تفضّل الحياة كما هي، سقطتْ عصاه وهو يستفسر: «هل ما سمعتُه تلك اللحظة سيحدث حقًا؟». صفقتي أعظم من عقله، لا عجب أنه يستفسر،

فلسفة عجوزٍ ينتظر الموت؛ هل هذا صحيح؟ عندما يقتحم ملاكُ الموتِ قلعةَ روحه، سيسأل: «أهذا هو الموت؟». وعندما تضاجعه غانيةٌ، طمعًا في قليلٍ من المال والمتعة، سيسأل: «أهذا هو الجنس؟». ضريرٌ لفظًا وعلمًا، من الواضح أنه لم يفهم طريقة عرضي؛ أنا لا أستأذن بل أوضّح الذي سيحدث شاء أم أبى!

سأشرحها مجددًا، الخطة بسيطة؛ الفوضى! سأشعل فتيلَها، سيقاتلون أنفسَهم، لن أتدخّل؛ التدخُّل في أمورِهم حماقةٌ، الغريب أنني شرحتُ له كل خطوةٍ ولا زال يسأل، والأغرب؛ أن رجلًا كفيفًا يساعدُني! عرفتُ أن الدينَ والشرفَ هما عقيدة البشر، الاقترابُ منهما كفيلًا بخلق الحرب العالمية الثالثة، الانقسام في صفوفِهم هو البداية، والبداية إذا كانت قوية؛ فالنتائج حتمًا ستكون مُذهلة! سألني مجددًا من سيشعل الفوضى: «من سواي؟ أنا ظلُ لديه القدرة على حمل الأشياء مثلكم، لن يلحظني أحدٌ لذلك أنا من سيقوم بها». يرتعش، يستغفر، اسمعه يرتّل ما تيسّر من معجزة محمد، رحمة تنضم إلينا، تلتصق به، يربت على كتفها، أهكذا يطمئن البشر؟ البنتُ ضعيفة وأبوها أضعف، تستفسر منه عمّا جرى، يسرد لها، لا تُصدّق، تلتفت إليّ، لن أعيد كلامي للمرة الثالثة، ما الصعب في خطتي؟ «تفجير الأزهر وإغتيال البابا!». هكذا قالتْها.. وهكذا تُخلَق الفوضى.

مسيح

أيام كثيرة ماتت، لا أدري عددَ جثامينها، العجوز قال : «عامٌ مَر». البنتُ قالتْ: «عامٌ مُر». الظلال التي مسحتُ عليها، تملأ الغرف، كلهم واقفون، لا يتحرك أحدٌ إلا بأمري، كل ظلٍ أحضرَ ظلًا، لم أتركُ مكانًا إلا ودخلتُه، المنازل والمحال والمدارس والمحاكم، المدينة والأرياف والجنوب والشمال، كنتُ أرى الدهشةَ على وجوههم، أحييتُهم، حررتُهم، ثورتي لن ترقص إلا بهم.

عادة الصباح لدى رحمة، تفتح الأبواب، تشهق وتبسمل وتحوقل وتغلقهم، تطلب مني يوميًا ألا أؤذيها، هذه البنت ضعيفة وأنانية، العجوز يحسدنا لأننا نراهم وهو لا، يسألها بانتظام: «هل حقًا العدد مخيف؟». والإجابة لا تتغير، أُرتبُ أفكاري، من الواضح أنه حان الوقت، منذ يومين تقريبًا، رأيتُ مخزنًا ضخمًا بوسط البلد، تعلوه لافتةٌ كبيرة تحمل كلمةَ «قريبًا»، أوراق الإعلانات هنا وهناك، شخصٌ لا يهمني اسمه، سيقيم معرضًا اسمه «ليلى»، يبدأ العاشرة صباحًا، ليلى وصباحًا والرسم؟ موعد الافتتاح اليوم، أعتقد أنه الخميس، رحمة قالتْ هكذا لأحدهم في الهاتف الجوّال، وضحكتْ، ما المضحك في يوم الخميس؟

توجهتُ إلى المكان قبل الافتتاح بساعتين، ظفرتُ بظلالِ اللوحات كلها، لم أفهم رسالةَ معرضِه، طبقًا لما قرأتُه عن الفن، فالمعرض حالة، مما يعني

أن جميع الرســومات لابد أن تحمل نفس الفكرة بأشكال مُختلفة، الاختلاف موجود، الهدف لم يحضر، هنا لوحــة أمٍ ورضيعُها يخرج من ظهره جناحان، وهناك جنديٌ يحارب الســماء، وخلفي كلــبٌ يضاجع عظمةً! وهذا عجوزٌ يأكل ثدي فتاةٍ صغيرة، مسلكه سيريالي؟

أسمع أصواتٍ، العاملون بالمكان يتوافدون، ومن الواضح أن رسّامَ الهراء هذا قد وصل، ورسالتي ستصل بالمثل.

ثورةٌ قوامُها ظل

حانتْ الفوضى

الجنون أصـــابَ المدينـــة، رواد المعرض أثاروا ضجـــةً واضحة، الناس يبحثون عـــن ظلالِهم، الإعلام يســـتهدف عقـــولَ النـــاس، الجرائد تنشر الأكاذيـــب، المواقع الإلكترونية تهاجم الحكومة، رجـــالُ الدينِ يصرخون: «القيامـــة.. التوبة.. الدين الصحيح..». لم أتفاجـــئ، بعدما رأيتُهم يهاجمون بعضهم، خاصةً هؤلاء الذين لم أمســـح على ظلِهم بعد، المشهد عبثي، غلب عبثية صمويل بيكت، رأيتُ شـــخصًا مبروكًا عـــلى الأرض، الجماهير حوله تحـــاول أن تخطف ظله! أخرجتْ فتاةٌ بالثلاثين ســـكينًا وصرختْ: «ربما إذا سلخنا جلده؛ نحصل على الظل!». الظل كان لهم منذ خلقهم، ولكنّها عادة البشر؛ عندما أُخِذَ منهم عرفوا قيمتَه!

أحـــاول تخيل رد فعل مجيد، ربما ما زال بالسرير مع ســـاندرا، الركض مع التفكير نشوتي، وجدتُ نفسي بمنطقة السادس من أكتوبر، خير الظلال هنا وفير، وقفتُ أمام محل للأجهزة الإلكترونية، وسمعتُ نشرة الأخبار:

(ســـيداتي ســـادتي الســـلام عليكم ورحمة الله وبركاته، خبرٌ عاجل، ناشد وزيـــر الصحة كل مَن فقدَ ظلَه بضرورة التوجه إلى أقرب مشـــفى، أما من لم يتـــضرر بعد، فطالبه بأهمية البقاء في المنزل نظـــرًا لخطورة الوضع الآن، وقد وعد سيادته بحتمية إعادة السيطرة في أقرب وقت ممكن، ومن جهته، أعرب سيادة الرئيس عن استعداده الكامل للتبرع بظله إذا لزم الأمر، قائلًا أن سلامةَ

المواطنين وظلالهم في مقدمة أجندة سيادته، التحقيقات قائمة ولن تنام عيون الوطن قبل التأكد من طمأنينة شعبها، أما عن الوضع الاقتصادي...).

المنطقةٌ هادئة، خبرٌ كهذا ربما يقلق هدوءَ بالِها، مسحتُ على كل ظلٍ، عثرتُ على مصرفٍ دولي، قد أحتاج إلى المال لتنفيذ خطتي، رشوة البشرَ ربما أتطرق إليها، تأكدتُ من قدرتي على احتواء الظلال والأشياء بالمثل، أنا حفرةٌ مظلمةٌ لا نهاية لها، لـــن أعتبر دخولي تلصصًا، لن يراني أحـــدٌ، التحركات بالمكان، تؤكد أن الأغنياءَ لا يهمهم ســـوى المال، لا فـــارق إذا كان يتبعه ظلٌ أما لا؛ المجد للورق الملوّن، والطاعون لكل شيءٍ آخر.

البشر الســـفلة، أراهم كلابًا، أســـاورُ المال حول رقابِهم، يلهثون مُخرجين ألسنتهم، جميع ظلال البنك بحوزتي الآن، دخلتُ الخزينةَ الرئيسية، الأموال والودائع والذهب، الحراســـة بالمكان أشرس من مثيلتها بالخارج، وضعتُ بداخلي ما يكفينـــي وأكثر، رحلتُ بدون معاناة، أطلقـــتُ الظلالَ وأمرتُهم بإحضـــار أخلّةً، نهايةُ اليوم هي المهلة المحددة لهـــم، أعتقدُ أن زيارةً لصديقٍ قديمٍ واجبة، بعدها سأعود هنا؛ لأحصد ما جمعوه وأودعه بالمقر..

صديقٌ قديم! هو لم يكن صديقًا منذ البداية.

ظلال بلا بشر

الشـــقة كئيبة وجدرانُها باردة، هرجُ الأثاث وفـــوضى حياتِه، زجاجاتُ الخمرِ وأطباقُ التســـالي، ينام على الأريكة أمام التلفاز، روحٌ بلا روح، حتى تلك اللحظة يا مجيـــد، أجهل لِمَ قام ظلُك، صوتُ نشرةِ الأخبارِ يقلقُه، يفتحُ مجالًا للرؤية والفهم، يمسح على وجهه ويسعل، يمسك هاتفه ثم يلقيه، يبدو أنه يبحث عن شيء آخر، ينظر يمينًا ويســـارًا، يعثر عليه؛ علبة سجائره! هل صرتَ مدخِّنًا يا مجيد؟ أشعلَ سيجارةً وأنا أشعلتُ ثورةً، يسرّ لنفسَه، عرفتُ من حركاتِ وجهه، هزّات رأسِـــه وحركات يمينِه العشوائية، رفع الصليب المتـــدلي من صدره، قبّله، نظر إلى أعلى، ثم بكى! حســـنًا؛ ســـأصير ظلَه كي أسمع عواصفَ عقله..

«لماذا يا ساندرا؟ الفُراق بعد كل هذا؟ وما السبب؟ نادين! الفتاة المسلمة! نعم كنتُ أضع يدي على مؤخرتها، هي تســـمح بذلك لأنها تنشد عقدًا ثابتًا ومرتبًا خيالي، كانتْ على أتم الاستعداد أن تضاجعني إذا لزم الأمر، ولكنّي اكتفيتُ بتحرشات لفظية ولمســـات غير بريئة؛ ترين بنفسكِ مفاتِنَ أنوثتِها، الصدر الذي يبحث عمن يقدّر عظم حجمه، المؤخرة التي تقسم بأنها ليست للجلوس فقط، سواد شَعرِها؛ نعم لقد خلعتْ حجابَها مرة كي تثبتْ لي أنها أجمل الإناث بشركتنا، كنتُ أســـمحَ لها بالجلوس على فخذي، ومداعبة كل عضوٍ تستحسنه، عزازيل صوّرها لي ملكوتًا، وأنا مؤمنٌ والرب يرعاني..».

سحبتُ نفسي بهدوء، شكرتُ القدرَ على هديته؛ مجيد مصدوم، لذا حديثي معه لن يصدمه أكثر، أعرف جيدًا ما سأقوله: «بسم الصليب! من هنا؟».

وقفتُ أمامه، يفرك عينيه، يرتجف فزعًا، ركض تجاه غرفته وأغلق الباب، الغبي يختبئ من ظلِ! خطفتُ هاتفَه وفي ثوانٍ كنتُ بجانبه، يقف خلف الباب ويناجي السماء: «يسّوع انجدني.. يسّوع عزازيل هنا..».

ظهرتُ أمامه مرةً أخرى وقُلتُ بكل جديةٍ:

«اسمعني جيدًا، أنا نبي، نبي الظلال، للأسف كنتُ فيما سبق ظلك، لا أعرف لِمَ أنا بالتحديد الذي قام، ولكنّى واثقٌ أنني أقوم بدوري على أكمل وجه، أمّا عن سبب زيارتي؛ أريدُك أن تسجّل ڤيديو وترفعه على صفحتك الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي هذا الذي يتحدث عنه الجميع؛ تقول فيه أن أحدَهم هددّك لتفعل ذلك، وقريبًا سيقوم بتفجير الأزهر..».

لا ينطق، لا يتنفس، سقط مغشًيا عليه، ذهبتُ إلى المطبخ وأحضرتُ زجاجةَ ماء، رجعتُ إليه لأرده إلى دنيانا، الماء تضربه برفق، تزيح عنه الإغماءة والحزن والدهشة، نهض ببطءٍ، لا ينظر إليّ، يرنّم آياتٍ من الإنجيل، أخبرته بأنني لن أحترق ولستُ شيطانًا، أعطيتُه الهاتف، أشرتُ إلى سريره ففهم، تحركَ نحوه، الخوف حقنه بمُسكِّن الطاعة، يرتجف ولا يرفع رأسه، صرختُ به أن يصوّر حالًا:

«أتحدث إليكم.. تحت تهديد السلاح..».

مُسيلمة

المقر ساكن، الظلال ساكنة، العجوز ساكن، رحمة غائبة، دخلتُ ومعي الظلال الجديدة، والحاسب الشخصي الخاص بمجيد، وزّعتُ الظلال حسب تصنيفها، لا أفهم في التكنولوجيا، سألتُ العجوزَ فأكّد لي أن رحمة لهلوبة، لا أحب الانتظار ولكنّي سأتعلم منها، الكلب يقترب مني، أعتقد أنه يفتقد مريم، لا عليك، أخذتُه إلى غرفة الحيوانات، ولج إليها وبدأ يلعب معهم، أحزنه أنهم ثابتون، أذنتُ لكلبٍ باللعب معه، ركضا خلف بعضهما في الغرفة، سمعتُ صوتَ العجوزِ بالخارج، هل يهاتف أحدًا؟

خرجتُ إليه، من سياق المحادثة؛ العجوز تلقى عرضًا، أنهى المكالمة، القلقُ شمسُ وجهه بتلك اللحظة، الباب يُفتَح، رحمة تدخل ومعها شابٌ ثلاثيني، طويل وملامحه جامدة، حُلةٌ كلاسيكية سوداء وسيجار كوبي، وقفَ أمام العجوز وبدون مقدماتِ تكلّم، يريد شراء الشقة ليضمها إلى الملهى الليلي، العرض لا يُرفَض! هذا الغني يعرف كيف يساوم، حتى لو ساوم العجوز على شرف بنته، العجوز ينهره ورحمة تترجاه، رحمة تسب العجوز والأخير يلعنهما، يُغادر متوعدًا، رحمة تصرخ به، العجوز لا يتكلم..

«هل يصح يا رحمة ما حدث؟ هذا مقر ثورتي وأبوكِ وافق وبحضوركِ، إذا كان المال نعمةً تبحثون عنها؛ سأدفع ضعف ما عرضه ولكن مُقابل عملكما معي، والمال معي الآن، دوركما بخطتي مرسوم، هذا الغني لن يترك المقر، أنا

واثق، سـأتخلص منه بطريقتي ولن أعيد كلامي مرةً أخرى، لا أريدُ جدالًا حول ما قُلته، تعالي يا رحمة ساعديني بشيءٍ».

مشتْ إليّ كأن تعويذةً قُرِأتْ عليها، العجوز لم يعترض، طلبتُ منها فتح موقع التواصل الاجتماعي والبحث عن حساب مجيد، قال لي: «حسابي مفتوح على الحاسب بالفعل». رحمة قامتْ وقالتْ ستعود بعد قليل، لم تتأخر، رجعتْ ومعها جهازُ صغير أجهل كنهه، شرحتْ فائدته: «هذا مصدر الإنترنت». لا يهمني، فعلتْ ما أمرتُه بها: «يا إلهي! عدد مشاهدات الڤيديو مهولة! التعليقات تسخر منه وتطالبه بضروره حذفه، هناك من يتهمه بالسُكر، عدد المشاركات تخطى حاجز الألفي مشاركة!».

ما فهمتُه من كلامهم: «كاذب ويسعى نحو الشهرة!». أهملوا رسالتي واتهموه بالغوغائية، رحمة قرأتْ لي معظم التعليقات، تنحصر بين: «الخمر تفعل أكثر من ذلك!- علاقتك بساندرا سترجع يا مجنون!- هل من الممكن أن تفجّر مقرَ جامعتي بالمثل يا مجيد؟- المسلمون لن يتركونك يا مجيد! -أنا لا أعرفه يا جماعة؛ من أنت وماذا تفعل عندي يا إرهابي؟ -من الذي هدّدك؟- حيلةٌ جيدة للبحث عن الشهرة؛ وأنا سأفجر عضو أمك يا مجيد ها ها ها! -إذا كان رجلًا فليفعلها! -تذكرنا يا مجيد حين تظهر بالقنوات الفضائية».

الفوضى قريبة جدًا، حذّرتُ البشر؛ فوجدتُهم ساخرين هازئين..

على أية حالٍ، حسب مواقيت البشر؛ غدًا سأفعلها، والثورة مستمرة..

ذبول الأزهر

الظلال تتزايد، الفوضى تتصاعد، أرى حربًا تدق بابَ المدينة، أسمع حفيفَ جناحي ملاك الموت، الجنون نصب معسكرًا بأرضهم، ثدي المُظاهرات يُرضعهم، لا أعرف من صاحب فكرة الملصقات؛ أجدُها في كل مكانٍ، تحمل ذات العبارة: «أين ظلالنا يا حكومةً بلا ظل!». العنف استشرى في أوردتهم، صباحاتُ الرجلِ منهم شمسُها الدم، فُرِضَ حظرَ التجوال، القُحّب يتسكعن ولا يهمّهن، الليل ونيسهن، العمل في الظلال والظلام متعتهن.

الإعلام يقولها صريحةً: «السبب مجهول». أصواتٌ تطالب بتدخل دولي، رحمة تؤكد لي أن مواقعَ التواصل الاجتماعي تسب الحكومة وتتهمها بالتقصير، ڤيديو مجيد ما زال يحصد المشاهدات والسخرية، ضحكتُ كثيرًا حين علمتُ بوجود صفحةٍ اسمها: «فجّر.. أرجوك». منشوراتها عبارة عن أماكن يريدون مني تفجيرها، ثورتي جادة وهم يلعبون، شرنقة صبري تتلوى، هل ستلفظ فراشةً سامة؟ تلسعهم كلهم في الوقت المناسب؟

كتبتُ آيتين من إنجيل متى: «لا تَظُنّوا أنّي جئتُ لأُلقي سلامًا على الأَرْض، ما جئتُ لأُلقي سلامًا بل سيفًا، فإنّي جِئتُ لأُفرّقَ الإنسانَ ضِدَّ أبيه، والابنةَ ضِدَّ أمها، والكَنَّةَ ضِدَّ حماتِها». كتبتُهما على ثلاثين ورقةً، وتحتهما: «صوتُ الرب هو الحق.. المسيح هو الحق..». وضعتهم بداخلي، اليوم سأُلقيهم

كعصا موسى، وسيخدعهم السحراً ليتقد إيمانُهم بشيء واحد؛ سيحدث كرد فعلٍ طبيعي.

ذهبتُ إلى مقر الأزهر، حفظتُ كل تفصيلةٍ هناك، لن أحتاج إلى متفجرات أو قنابل؛ الرفاهية هنا تُرحب بي؛ أنابيـــب ووصلات الغاز الطبيعي، ثقابُ الكبريت تغمز لي، أُطالبها بالصبر، هوســـها بإشعال النار يعجبني، جهّزتُ الورق، أخرجتُ بخاخَ اللون، حرصتُ على اللون الأحمر، سأرسم الصليبَ على حائط المدخل من الخارج، ثم ندلف إلى الداخل عند أنبوبة الغاز الطبيعي الرئيسية، وفي النهاية؛ الثلاثون ورقة..

عود ثقاب واحد.. عودٌ واحدٌ فقط.

الدمـــاء في كل مـــكان.. الورق في كل مكان.. الصليـــب نصب أعينهم.. الطوفان سيغرق عقولهم.

اصنع صليبك

المشـــهد كالآتي: رجالٌ مسلمون، نزلوا الشـــوارع، كل شخصٍ قابلوه، طلبوا منه بطاقته الشـــخصية، مســـيحي؟ تُضرب حد انعـــدام الصحة، ثم تُصلَب على أقرب عمود أو حائط، المسامير معهم، المطارق صوتها أعلى من النحيب، لا تفرقة، الكل ســـيُصلَب؛ رجلٌ، امرأة، طفلٌ أو طفلة، عجوزٌ أو شيخ، والويل -كل الويل- إذا كنتَ من رجال الكنيسة، تُصلَب ثم تُذبَح.

المشـــهد كالآتي: طفلةٌ تترجاهم، على يمينها، أبوهـــا مصلوبٌ وينظر إلى السماء باكيًا، على يسارها، أمها مصلوبةٌ وتصلي لعل القديرَ ينقذُ ابنتَها، تقول لهم ليس ذنبي، أنا كنتُ ألعب في غرفتي، يقولون لها حتى لو للشهادة نطقتِ، تتحرك كثيرًا وتحاول الخلاص منهم، يخطـــئ أحدهم، يضربُ كتفها برأس المطرقة الحديدي، تصرخ البنت وتشـــعر أنه خُلِعَ، تستســـلم تمامًا، يشدّون أطرافها، المسامير تنكح يديها، المسامير تنقّب قدميها: "يسوع.. ما ذنبي؟». تستفزهم جملتها، فيبصقون عليها جميعًا.

المشـــهد كالآتي: ثلة مســـيحيين، ينتظرون رحيلَ الغاضبين، يقلعون كل مصلوبٍ من مكانه، يصلون لأجله ثم بســـيارتِهم يضعونه، يسابقون الموت، رأيتُ ســـياراتِ عـــدة، تخفي صلبانَها المـــدلاة من المرآة الوســـطى، رأيتُهم يضعون ضـــمادةً على رســـغهم، فيُدفَن تحتهـــا الصليـــب، رأيتُهم يخرجون جوازاتِ سفرهم وبطاقاتهم الشخصية ويحرقونها، سمعتُ رجلًا يطلب من قائدِ سيارةِ المســـاعدة، ركبتُ معهم السيارة؛ أريد أن أُتابع المشهد في مناطقِ

أخرى، رجلان، بالخلف جسد فتاةٍ، من استغاث يهاتف طبيبًا، يقول له ما زالت تتنفس، يقول له نحتاج (الكبد والكِلية)، يقول له أمي لن تموت بسبب تقصير الحكومة وها أنا أحضر لك (أعضاءً بلا تكلفة)، الفتاة تبكي لأنها سمعتْ، السائق المُغيث يضحك ويقول له أريد مضاجعتها بجانب الألفين جنيهًا، يوافق ويطلب منه الانتظار بعد العملية، نزلتُ من السيارة مع أول زحام.

المشهد كالآتي: العساكر في الشوارع تحاول السيطرة، المسلمون منهم يضربون في الخفاء، ويتظاهرون أنهم يفضّون أي اشتباكٍ، ركض أمامي شابٌ وخلفه أهل المنطقة، أمسكوه، ألبسه شيخٌ تاجًا من الأسلاك الشائكة، ثم ضربوه حتى سقط والدماء تبكي بجانبه، أشار رجلٌ إلى فقع عينيه أولًا رحمةً به، الكل طلبوا منه ذلك، ركض تجاهه وركله وجهه ليفقده الوعي، ثم وضع يديه داخل مجرى عينيه وقال بعلو صوته: «يا معين يا الله». أخرجهما لتخرج معه روحُ الشابِ من الألم، اقترحت امرأة ثلاثينية أن يُصلب عاريًا لأنه كان يتفاخر بجسده، وافقتها أخرى وأقسمتْ أنها سمعته يومًا يقول أن عضوه الذكري أكبر من شرف الحارة كلها، هاج الرجال وضربه أحدهم بين فخذيه وطلبَ المطرقةَ لأنه من سيصلبه وسيدق مسمارًا بعضوه أيضًا، وحين سألوه لماذا أجابهم: «حين يُبعَث ويرى المسمار؛ سيعرف أن شرف الحارة أفقده شرفه!».

مسحتُ على ظلالِ الأحياء فقط، من مات منهم مات اختفى ظله، لم أفهم كيف! تسلقتُ بنايةً، وقفتُ على طرف سطحها، أبحثُ عن مكانٍ أسمع منه الأخبار، وأراقبهم من الأعلى، دماء، قتلى، كر وفر، بُكاء، الجنود تحاول والغضب يقاتلهم، الموضوع صار قتلًا صريحًا الآن، من لا يملك مطرقةً

ومســـامير، فيمكنه ضرب المســـيحي حتى الموت، النســـاء تنهش الجثامين، يقولون هذا حي! فيركض رجلٌ ناحيته ويُمســـك الجسدَ ويصلبه بالحائط، أو يضربه بحجرٍ، النساء تزغرد، الرجال يكبرّون، طفلةٌ تذهب إلى سيدةٍ، لا أسمع من هنا الحوار، بعد قليلٍ تحتضنها، من الواضح أن الطفلةَ تبحث عن ملاذٍ، السيدة تسحب الطفلةَ من يديها، أتابعهما، تقف معها في شارع جانبي، ثم يدخلا عمارةً، لمحتُ أمام المبنى محلاً للأجهزة الإلكترونية، نزلتُ مسرعًا إليـــه، الباب نصف مغلق، مما يعني أن صاحبه ترك المكان وخرج إليهم، قبل أن أدخل ضرب أذني صوتُ آهات عجيبة، دخلتُ إلى العمارة.

السيدة تنام على ظهرها، رَفَعَت تنورتها، تفتح ساقيها وتطلب من الطفلة أن تداعبها، الطفلة ترفض خائفةً، السيدة تقسم لها إذا فعلتْ ذلك ستساعدها، الطفلة لا تفهم ماذا تفعل، الســـيدة تمسك بيديها وتقول لها هكذا، هنا وهنا، تهددها إذا لم تستجب ستســـلمها لهم، الطفلة تنصاع وتكتم صوتَ بكائها، سيدةٌ جريئة، تقول للطفلة استمري ولا تخافي، هنا مقر شركةٍ ولن يرانا أحدٌ، كلهم رحلوا، لا أعلم ما سر التأوه، صعدتُ إلى الســـقف وقُلتُ لها: «إذا لم تتركي الطفلة وترحلين؛ سأقتلكِ!». أنا لا يهمني البشر، ولكنّ هذا شذوذ! هذه السيدة تستغل طفلةً لا تفهم شيئًا! لبستْ وركضتْ إلى الخارج صارخةً، الطفلةُ لم تتبعها، طلبتُ منها أن تسمعني جيدًا، صرتُ ظلَها، البنت لا تقول بداخلها سوى: «ماذا أفعل؟ ما هذا الصوت؟».

أخبرتُها بوجهتنا، وبضرورة تنفيذ كل أمرٍ، لا أعلم ما الذي أفعله، ولكنّها طفلةٌ، الموت ودنس البشر اغتصبا براءتها.

أضعف الإيمان

خرجنا إلى مدينة الظلم، البنت ترتجف رجفةَ جندي يكره الحرب، قرأتُ عن الحرب كثيرًا وعن الخوف أكثر، الدماء صارتْ أزهارَ شوارعِنا، الجديد في المَشَاهِد، أنهم حاليًا إذا لم يجدوا مكانًا أسفل البنايات أو الأعمدة؛ صلبوهم كصفِ ثان إلى أعلى! بل وزاد بهم الجبروت وصعدوا إلى النوافذ؛ فتشعر أن جثامينهم تزيّن الشرفات! أكرر عليها عدم النظر إليهم ومواصلة السير، البنت تمسح الدماءَ من على وجهها اليوم وتبكي، وهي بالأمس كانت تمسح قُبلاتِهم لأنها تكرهها، هكذا كانتْ تفكّر.

رن هاتفها، أمرتُها بتجاهل المُتّصِل، لم ترفض؛ البنت مطيعةٌ تمامًا، شاهدتُ رجلًا يحملُ رجلًا بلا أطراف، وامرأةً تسحبُ رجلًا خلفها وكأنه كلبٌ، التراتيل تخرج والسماء تراقب، التكبيرات كالمطر والسماء تراقب، مررنا ببقالةٍ فقالت البنت: «أريدُ شيكولاتة». أخرجتُ من داخلي ورقةً مالية وأعطيتُها إياها لتشتري ما تشتهيه، البائع يحضر لها ما طلبتْه، يرتفع صوت المذياع: «خبر عاجل| أعلن السيد وزير الصحة عن توافر ظلال صناعية بدءًا من اليوم بجميع المستشفيات، وسوف تشهد الأيام المقبلة توافرها بمراكز بيع القوات المسلحة كما عهدناها دومًا لسد الأزمات، كما صرّح السيد وزير الداخلية عن إلقاء القبض على العديد من المشتبهين بهم في قضية تفجير الأزهر الشريف، والذي راح ضحيته الكثير من الأرواح وفي مقدمتهم شيخ الأزهر، وأضاف أن ثورةَ الشارع ستخمد حين يتحقق القصاص، وقد تلقى

سيادة الرئيس برقيات التعازي في شهداء الحادث الأليم وتوعد سيادته لكل من يهدد أمنَ الوطن، أما عن الوضع الاقتصادي..».

ظلالٌ صناعية؟ البشر ومحاولاتُهم المشـــنوءة، تأكـــدتْ أنها حصلتْ على كل شيءٍ، رحلنا وهي تفكر في أمها؛ المســـكينة لا تعـــرف، تأكل الحلويات وتبتســـم، المدينة كلها لا تراها، أو تتجاهلها عن قصدٍ، عرضتُ عليها فكرة ســـيارة الأجرة، رفضتْ وهي تستنكر: «ألم تسمع عن حوادث الاختطاف؟ قد يغتصبني!». البنت على حق، وضّحتُ لها نيةَ طلبي كي لا يُرهِقُها السير، واصلنا رحلتنا، حتى وقف أمامنا شرطي وهو يصيح: «لماذا أنتِ بمفردكِ يا صغيرتي؟». أخبرتُه بكل ما حدث، طلب منهـــا الوقوف وابتعد متحدثًا في الجهاز اللاسلكي، قُلتُ لها: «اطلبي منه مرافقتكِ إلى هذا العنوان وأن الآنسة رحمة هي من تريدين، وعندما تراكِ رحمة قولي لها أن نبي من أرسلني إليكِ». فهمتُ من حركات هذا الشرطي موافقته على ما طلبته البنت، سمعتُه يهدئ من روعهـــا ويَعدها بالنوم في سريرها بأقرب وقت، انفصلتُ عنها، راقبتُهما وهما يبتعدان، حتى تلك اللحظة لم أعهد اسمَها.

تســـلقتُ عمارةً تخطى عدد المصلوبين عليها الطابق الخامس، اللون الأحمر يرســـم خطوطًا متعرجة، مات معظمهم، الســـطح خالٍ، أبحثُ عن طابورٍ عظيم، ســـأعرف منه أنها مستشفى، وجدتُ غايتي على بعد شارعين، نزلتُ بسرعة وركضتُ أسرع.

التجمهر أمام مستشفى «دار الجميع» كان كارثيًا، الأبواب مغلقة وضباط الأمن يقفون لهـــم بالمرصاد، جملة «النظام يا بهائم!» تصفعهم كل دقيقةٍ، من الواضح أن المدينةَ نست الأزهر ويهمها الظلال في تلك اللحظة، المسيحيون

يخفون صلبانَهم بكل الحيل، المسلمون يخفون غضبهم لما بعد تحقق مرادهم، «النظام يا خنازير!». وعدد من الركلات العشـــوائية هنا وهناك، «يخرج من بالداخل وســـندخلكم يا غائط العجول». تخطيتُ الباب كعادتي، إذا كانت ظـــلالًا فهي ملكي، الفـــوضى تعم المكان، «الصراخ وكل هذا مقاســـكم يا أنجاس». الفوضى تملأ الهواء، طفلٌ صغير يقول لأمه: «لماذا أعطاني ظلَ فتاةٍ تكبرني يا أمي؟ انظري الظل حقًا لا يشبهني!».

اقتربتُ من هذا الطفل لأفهم الفكرة، الظلالُ مصنوعة من مطّاطٍ أســـود، الاختلاف في المقاســـات والنـــوع، وفي نهاية القدمين، دائرتـــان تدخل بهما قدميك، فيتبعك الظل وكأنك تســـحبه! هل هذا حقًـــا ما فعلتموه؟ صدق الطبيـــب حين قال لكم يا أنجاس! وجدتُ أحدهم يشـــكر الرب على نعمة الظل مجددًا، وسمعتُ ذلك العجوز وهو يقول لزوجته: «لا يهم الاتجاهات! لن تفرق معنا إذا كان ظلنا خلفنا أم بجانبنا؛ المهم هو عدم شعورنا بالعري!».

مســـحتُ على كل ظلٍ هنا، أصابهم الجنون، بدأ الطبيب الذي كان يساعد النـــاس يبحث عن ظله، يســـبهم ويلعنهـــم، «لقد انتقلت العـــدوى إليّ يا أوســـاخ!». كل شخصٍ من أعضاء المستشـــفى هروّل ناحيته؛ مسحتُ على ظله، الحرب هنـــا تنتصب، «لا ظلال لكم قبلنـــا!». أعلنها رئيس الأطبّاء، ركضتْ ممرضةٌ تجـــاه الباب وأخذت تصرخ، بعد ثوانٍ فُتح الباب والضباط لا تفهم، هجم من بالخارج ودُهِسَ مـــن وقف بطريقهم، ركلات، لكمات، رصاص، جثامين، أطفال تبكي، نســـاء تولول، رجالٌ لصوص، «سنبيعهم بالخارج». قالها أحدهم. «ســـنقلدها ونبيع منها بالسوق السوداء». رد عليه الآخـــر: «ارحموا ضعفي واعطـــوني ظلًا». صرخت بها عجـــوزٌ تتكئ على عصاها وضعفها: «الموت ينتظرُكِ». ضحك شـــابٌ وهو يركض حاملًا ما جناه.

(أيــن أمي؟ لماذا يا الله؟ تذكروا صراعنا معهم، أبي يحتضرَ، قدمي اليسرى تنزف، لماذا أطلقوا الرصاص عــليّ، كيف نخرج من هنا؟ أمي.. أمي.. أين أنتِ؟ أكرهك يا يسّوع! أنت لا تحبنا، أنا مسلم يا كافر! أنا مسيحي يا كافر! أنا أموت يا كفّار! النظام يا بهائم! كل مســيحي يرفع يديه، النظام يا قحب، سرق ظلي! ابتعد يا متحرش، أين أنتِ يا ابنتي؟ ساعدني يا قدير!).

سمعتُهم جميعًا.. السماء لا تسمعهم جميعًا.. عليهم ما يستحقون.. رحلتُ عنهم.. وصوتُ الرصاص في كل مكانٍ.

ليلٌ

القمر والمقر والرمق الأخير من حياةِ ســافلٍ، الفتــاة الصغيرة مفقودة، ظننتُ أن شرطيًا قذرًا قد يساعدها، مصيرُها مكتوب، العجوز نائم، الظلال تقف مكانها، العالم بالأســفل قميء، القتل صــار هوايةً، هبطتُ إلى الطابق الأول، إلى الملهــى الليلي، يرقصون، فتياتٌ يتمايلن، رجالٌ تلحس أقدامهن، صوتُ ضحكاتهن كصوتِ الليل، غجرياتٌ كــما قرأتُ وصفهن، المال هنا كالظــلال؛ في كل ناحيةٍ، مســحتُ عــلى ما يخصني، لم أجــد رحمة بمكتب الاستقبال، أين هذه النحيلة القبيحة الأنثى بالبطاقة فقط؟

أبحث عن الغني لأرســله إلى خزائن الموت، المكان فسيحٌ، مساحةٌ تكفي للجلوس والرقص والخمر والركض، الموســيقى مزعجــة، الحركة كثيرة، النهــود كبيرة، الظلام صديقي؛ أرى خطواتي بوضــوح، طبعًا غرفةٌ واحدة بالمكان ســتكون هي مكتبه، أعتقد أنني عرفتُ سببَ زيارته المتكررة لأمير الظل؛ الديّوث يريد متعةً مضاعفة لرواده، ولجتُ إلى غرفتِه من الحيز الضئيل بين ضلفتي الباب، رحمة بالداخل، تمسح الأرض.

مكتبٌ خشــبي، كرسي ضخم من الجلد، تشعر وكأنه عرشٌ، نافذة مغطاة بالأسود، صورُه على الحائط، اللون بالداخل البني الغامق، كُتِبَ على الحائط المقابل له بالأضواء النيون الزرقــاء: "آيودي.. منكِ وإليكِ المعرفة يا أصلَ كل المعارف». هل تعرف من هي آيودي يا متحذلق؟ أم كَتَبَها لك متخصصٌ

وأقنعك بأنها جملةٌ عميقة تعجب الزوّار؟ يدخّن سيجاره ويتفحص جسد رحمة وهي على الأرض، «ارقصي لي يا رحمة وسأعطيكِ الآن خمسمائة دولار». رحمة توقفت عما تفعله، نهضتْ ومسحت يديها بملابسها وخلعتْ نظارتها، «عارية يا رحمة.. أريد رؤية تفاصيل جسدِكِ النحيل وهو عار». رحمة تستجيب فقط، خلعت ملابسها كلها، لا فارق، جسدٌ أغفلته الطبيعة، يشير إليها أن تقترب، ترقص على مقربةٍ منه، يشتم رائحة نهديها الممتنعين عن البروز، يرفع قدمها اليسرى على المكتب، يسكب على فخذها خمرًا ويلعقه، رحمة تضحك وكأنها غانيةٌ محترفة، كان الله بك رحيمًا يا أمير الظل.

"عن كل النساء بالخارج أحببتُكِ يا رحمة ولا أعرف لماذا، أنتِ سرّي الجميل، سرّي الذي أُخفيه ويشعرني بالنشوة، كلهن جميلات وأنتِ أجملهن، صديقي الجبّار لا ينتصب إلا على خصركِ، أنتِ الخطيئة الوحيدة التي سيغفرها لي وسيدخلني بكِ الجنّة، من بين كل ذنوبي؛ أنتِ فتنتي التي تأسرني ولا أرفض!».

ترقص وهو يتكلم، ترقص وهو ينتشي، ترقص وهو يدخّن، ثم تجاسدا.

«أرهقني يا ليل استرداد شرفي بعد كل مضاجعةٍ، لقد فعلناها أكثر من عشرين مرة، متى سنتزوج يا ليل؟».

اسمه ليل، والليل رفيقه بكل خطاياه. «سنتزوج بعدما أحصل على الشقة يا رحمة، ولا أريد التطرق الآن إلى حوارنا المعهود، ساعديني في امتلاك الشقة وسنتزوج بها وسأقيم لكِ عرسًا سيتحاكى عنه الأموات قبل الأحياء، سأهاتف الطبيب ليرد إليكِ شرفكِ يا عاهرتي».

صراخٌ بالخارج، رحمة لا تفهم، لبستْ ملابسها وهو بالمثل، فتح الباب

ليجد حارسَه الشخصي، يطلب منه ضرورة المغادرة حالًا، غضب حين وجد الـــروّاد يتعاركون، قال له أن يفض الاشـــتباك فرفض الحارس معللًا: «هذا ليس عراكًا بين مخمورين! يا ليل بيه يجب أن ترحل وفورًا!». أشـــار إلى رحمة بالمغادرة، ركضتْ سريعًا، خرجتُ معهم، ما الذي يحدث؟

يتقاذفون الزجاجات، رجلٌ ينحر راقصـــةً، البنادق ترتفع كتهديدٍ وقح، صليب حديدي كبير رُشِقَ برأس النادل، فتاةٌ تركع على الأرض وتقبّل قدمَ رجلٍ؛ فينحنـــي ويطعنها برقبتها، عجوزٌ يطلق رصاص مسدســـه في الهواء ليخيفهم، راقصـــةٌ تطلب المغفرة وهي تلِد روحَهـــا، طفلٌ مع والدِه يجلس بجانبه ويســـأل كل مارٍ في أدب جم: «هل أثقل أبي في الشرب؟ لا يرد عليّ». وأبوه رأسُه فارغة من الخلف!

"إنها القيامة لا مناص!». صرختْ بها إمراةٌ تهرب. «هل كُشِفَ سرّى؟ أما فاض الكيل والمسيحيون يبادلون الهجوم عليهم؟».

ســـمعتُ هذا الشـــاب وهو يصرخ بالهاتف: «قُتِل صـــوتَ الرب يا أمي! صلبوا أبانا!».

سأهبط إلى الكنيسة التي على مقربة من هنا.. وحالًا!

صوتُ الرّب

(**أبانا** الذي في السماوات، لقد تبَعَك صوتُك على الأرض إلى ملكوتك، بعدما سمعناه جميعًا، أبانا الذي كان بيننا، اِشفع لنا، كما فدانا أبونا بروحه ليطهر الخطيئة؛ فعلتَها أنتَ، مباركٌ أنت بين أسماء القديسين الشهداء، أمّا بعد، يا أبنائي وبناتي، مذ عرفنا الفاجعة، نتساءل عن كنه دورنا، عرفتُ أنّ بداياتِ حربٍ نشبتْ بيننا وبينهم، ومن الواضح وضوح نور الرب؛ أننا لن نسكت كما حثّنا كتابه، الكافرون اقتحموا مقره، وجعلوا فتاةً تطعنه، ثم صلبوه، لم يكن بينهم رجلٌ ليبدأ بالطعن، هؤلاء -وأنا لن أنجّس لساني بذكرهم- الخونة، أقصد حرّاس المقر، عندما شاهدوا الأعداد هربوا، لقد كان البابا وحيدًا، كيسوع حين صعد إلى الجبل واعتزل الناس، كل ما قُلتُه لكم هو معلوماتي الفقيرة من مكتب الأمن، كاميرات المراقبة، فارقتنا روحه عمدًا منذ ساعتين، جَمَعتُكم هنا لأعلنها صريحةً واضحةً؛ من أراد منكم سلك طريق الدم؛ لن أمنعه، ومن أراد منكم البقاء بمنزله والصلاة؛ لن أمنعه، ومن أراد منكم الفرار بعائلته خارج البلاد؛ لن أمنعه، رسالتنا واحدة في الكنائس، الكهنة بلّغونا بها ونحن بلّغناكم إياها، دوافعكم منكم لا من الشيطان، الوضع سيء وسنزيده نحن سوءًا، أمّا أحبّائي، الذين قالوا لي: «ولِمَ لم يدافع الرب عن صوته! أين الرب من كل هذا!». أقولها لكم وبداخلي إيمانٌ كيسوع يوم صلبوه، حَدَث ما حدث لأننا كنّا الصامتين المتقبّلين، ففهم الجبناء أننا ضعفاء، ولكنّ مشيئةَ الرب رفضت تسامحنا المتواضع أكثر من

ذلك؛ فجعلت البابا فتيلَ شرارتنا التي ستنقلب نارًا تشويهم جميعًا، لقد قتلونا وصلبونا الأيام الماضية لذنبٍ لم نقترفه، هَرَب من هرب، تحصّن من استطاع، أرسلنا العديد من الاعتذارات ونحن نعلم جيدًا أننا لم نرتكب ذلك ولكنّ شهوةَ القتل تحركهم كالخراف، شهداؤنا، من سبقونا، وشهيد اليوم، يتابعوننا من الملكوت، يسوع يُبارِك مقصدنا، وتذكروا؛ إنجيل لوقا وبخاصةِ تلك الآية: «أمّا أعدائي، أولئك الذين لم يريدوا أن أملكَ عليهم، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قُدامي». سنفعل بالضبط ما سمعتموه، مع تعديلٍ بسيط؛ لن نذبح بل سنخزوقهم، لقد جعلوا الصليبَ أيقونةَ ردهم، لذلك سنبادلهم الرد وبأيقونةٍ لها الكثير في تاريخهم؛ الخازوق.

قبل رحيلكم؛ جارك هو المسيحي فقط، إذا كنتَ لا تملك سلاحًا بمنزلك، اكتب اسمَك وعنوانَك بهذا الدفتر الأحمر وستوفّر الكنيسة لك واحدًا، واكتب أيضًا قرارَك؛ سأحارب/ سأُهاجر/ سألزم البيتَ مُدافعًا، فليرعاكم القدير يا أهلَ الحق).

خطبةٌ موّحدة في كل الكنائس، القسيس ألقاها وشَحَنَهم، شاهدتهم وهم يكتبون ثم يخرجون صارخين: «صوتُ الرب ما زال هنا! صوتُ الرب مازال هُنا». الطرفان مبدعان في مساعدتي، لم أتخيل أن نارَ حربٍ ستُضرَم بتلك السرعة!

عُرسُ الموت

العبثيةُ والموتُ والجنون، معادلـــةٌ متحقّقةٌ بجدارة، أراهم أمامي، البشر والسابق ذكرهم، يعزفون جميعًا، سيمفونية الحياة تتلاشى، الأشياء تتداعى، الحقائق تتســـاقط، الأباطيل حـــلال، المدينةُ تفرج ســـاقيها، العدالة قوّادة، الواقع يضاجعهما، الحرب عاهرةٌ تتمايل، والكل يلهث خلفها، نساؤهم قبل رجالهم، مطارقٌ ومســـامير، أسياخٌ وســـكاكين، صلبانٌ جاهزة على عرباتِ نقلٍ، تذكرتُ انقطاعات الموت حين قال ساراماجو: «في اليوم التالي لم يمُت أحد، تلـــك حقيقة مؤكدة». ولكنّ مدينتا عكســـت قوانين الحياة وتراكيب الجملة وجعلتها: «في اليوم التالي؛ لم ينج أحدٌ».

رجلٌ يصرخ كفتاةٍ تُخرِج وليدَها، أمســـكوا به وجردّوه من ملابسه، وبعد عدة لكمات وركلات، تراخت قوته، فأجلسوه على خازوقٍ، أسمع صراخَه وصوتًا مقـــززًا، كل دفعةٍ تجبر الخـــازوق على الولوج بدبـــره، الدماء تخرج منه والفضلات، يترجّاهم، ينظر إلى زوجته التي يجلســـونها على خازوقين! كلاهما ردد الشهادة عشرات المرّات، خلف سيارةٍ على الرصيف الآخر، فتاةٌ يمسكها رجلٌ ويدخل الخازوق بها ويدخل عضوه معه، يغتصبها ويغتصب روحها في آن واحد.

شـــابٌ يدّق عنقَ عجوزٍ ولا يلتفت إلى ســـنها أو توسلاتها، امرأةٌ تضرب رجلًا على رأســـه بهاتفها المحمول ثم تدخل الخازوق من فمّه، كهلٌ يصلب

فتــاةً عاريةً ويرضع من ثديها صارخًا: «أيــن حليبك يا قذرة؟». ولدٌ صغير يهرب ببنتٍ تبكي؛ الولد مسيحي والبنت مسلمة أو العكس لا أعرف، يقول لها ســنختبئ داخل صندوق القمامة. زوجة تســاعد زوجها على قطع رقبةَ رجلٍ ثم أدخلا الخازوقَ عنوةً ليخرج من رقبته المنحورة، شيخٌ ينادي بينهم: «يا أهلَ الأرض، أفيقــوا يرحمكم الله، قوم يأجوج ومأجوج على وصول، يا أهلَ الأرض، أنتم..». لم يكمل جملته، طَعَنَه رجلٌ وبَصَق عليه.

تنقلتُ بين الشــوارع والمناطق، المشــهد واحد، وجدتُهم يخلعون ظلالهم الصناعيــة، الحجة أنهــا تعطلهم عن الحركــة بخفة، كانــوا البارحة يرثون ظلالهم، واليوم يتخلصون منها!

رجعتُ إلى المقر، بعدما ســمعتُ الطرفين يتوعــدون المحتمين بالمنازل، فتحتُ الباب، ولم يبهجني ما أرى.

ثورةُ ثائر

فتاةٌ وشـــابٌ وفتاةٌ وعجوز، الأخـــير والثالثة أعرفهـــما، أخرجت رحمة الكراسي الخشـــبية من غرفة العجوز ليجلس الكل، الفتاة ملامحُها تكشـــف الكثير، الشـــاب هادئ ويحمل سلاحًا، رحمة ترتجف كعادتها، العجوز يتكلم ويخبر الجميع بضرورة الرحيل عن البلد، رحمة توافقه الرأي، الشـــاب نهضَ من مكانه، ذهب إلى النافذة المغلقة، نظر من خلفها، طويل القامة، جســـده نحيلٌ، بشرةٌ ســـمراء ومعالم وجهٍ جادة، لا أفهم سرَ كثافة شـــعره، لا يحلقه تقريبًا، الفتاة، طبقًا لمواصفات البشر؛ فاتنة! صهباء، النمش يستعمر وجهها، مفاتنها بارزة، وقفتْ بجانبه تراقب الموقف، قصيرة، وشعرها بالمثل، القلق البالغ منذ وصـــولي لا يفارقها، إلا أنها حين تحدثـــتْ، عرفتُ أن هكذا هي ملامحها، لا أتذكر أين رأيتُ تلك الفتاة من قبل؟ أشـــعر بأنني قابلتُها يومًا، ســـمعتُ رحمة تطلب منهما الرحيل ليلًا؛ لأنها لا تبحث عن المشاكل، الفتاة وافقتْ والشاب قال لهما لن ننتظر حتى الليل؛ لا يفرق الآن صباحًا أم مساءً؛ الليل موجود طوال اليوم.

رحمة أعدّتْ الشـــاي، الفتاة تتأمل المقر، الشـــاب يراقب الشارع، العجوز طلب منه الجلـــوس، أحاديث البـــشر المملة وقت المصائـــب، الفتاة تُدعى ثورة! يعجبني الاسم حقًا وصدقًا، الشـــاب اسمه ثائر، ضحكوا كلهم، ما هذه الصدفة المثيرة للقيء؟ ثائر وثورة؟ قالتْ ثورة أن اســـمَه الحقيقي محمد ولكنها تدعوه ثائرًا، ثائر وضّح أنه لا يؤمن بكلمة إله وثورة مسلمة وتتفهم

ذلك، رحمة لا تتحدث، العجوز سـعيدٌ، اقتربتُ من العجوز أرضًا، وقفتُ خلف مقعده الخشبي، وهمستُ بإذنه، قام من مكانه وتبعني إلى الحمّام.

«لقد صعدتْ مع رحمة حين حدث ما حدث، ثائر جاء بعدها بفترة قصيرة، طلبـا منا في البداية اللجوء هنا لعدة أيام، رحمة أخبرتهم بضرورة الرحيل كما سـمعتَ، وأنا رفضتُ متحججًا بالرحيل عن البلد غـدًا، إذا أراد أحدهم النوم قليلًا سيكون بغرفتي، الظلال بالداخل مخيفة وكثيرة، يا نبي؛ أريد المال كما وعدتني؛ لأنني سـأهاجر، بعد رحيلهما، أرجوك اعطني مبلغًا يساعدني ويوفّر لنا معيشةً كريمة خارج ظلام المدينة».

خرجنا إليهم، مسحتُ على ظليّهما، ثائر يتابع كل شيءٍ على هاتفه، ثورة تقرأ كتابًا، دققتُ النظر لأجده «بيان الحزب الشـيوعي»، جميلةٌ وتقرأ، أشكّر الله على قدرة الثناء على الجمال وملاحظته، وأشكّره على نزع العاطفةَ والتعاطف منّي؛ ثورةٌ مثلها قد تكون ثورةً مُضادةً!

رحمة تمسـك مصحفًا وترتّل، ثورة على مقعدها مع البيان الشيوعي، ثائر يسخر من رحمة بنظراته، العجوز يتكئ على عصاه وضعفه.

صمتٌ ذبَحَه طرقٌ بابٍ، ثائر أخرج سـلاحَه، المسدس كلاسيكي للغاية، هذا المسدس الذي تراه في أفلام رُعاة البقر، البكَرة المعدنية التي تحوي طلقاتِ وفوهة ممتدة، ثورة هي الأُخرى أشـهرتْ سكينًا وتأهبتْ لأي هجومٍ، رحمة ركضتْ تجاه المطبخ وأحضرتْ عصا العجين، الباب كاد أن ينخلع من قسوةِ طارقه، فتحه العجوز، حـارس العقار دخل مُجبرًا، خلفه مجموعةٌ من رجال الشرطة، اللقطةُ تحتاج إلى ناقلِ حدثٍ محترف.

ثائرٌ ومسدسـه، ثورة وسـكينها، رحمة وعصا العجين، الكفيف وعصاه،

البوّاب على الأرض، شرطي وبندقيتــه، شرطي وبندقيته، شرطي وهراوة، شرطي وبندقيته، شرطي وســيف، شرطي ومسدســه، ثائر ينظر إلى ثورة، شرطيٌ ينظر إلى مســدسَ ثائر، ثورة تلوّح بســكّينها، شرطيٌ يوجه بندقيته، رحمة تتحســس عصا العجين، شرطي يتأمل ثورة ويتحسس نصفه السفلي، شرطيٌ يوجه مسدســه تجاه العجوز، العجــوز يرتجف، البوّاب نهض ورفع يديه مستسلمًا، الشرطي صاحب المسدس ســأل: «البطاقات الشخصية!». ثورة تســاءلتْ: «لِمَ؟». البوّاب قال: «نســيتُها بالأســفل!». العجوز قال: «بطاقتي بالداخل». ثائر في غلظةٍ: «إثبات أنكم من الشرطة قبل أي شيءٍ!». رحمة هَمَســتْ: «بطاقتي بمقر عملي بالدور الأول». شرطيٌ اســتفسر: «من صاحب الشــقة؟». العجوز رفع يمينه، رحمة رفعت عصا العجين، شرطيٌ قال: «اخفضيها حالًا يا عاهرة وإلا قتلتُكِ!»، رحمة صرختْ، شرطيٌ أطلق رصاصَ بندقيته، ثائر أطلق رصاصةً، ثورة قفزت على شرطي أمامها، شرطيٌ أصاب رحمة بمنتصف رأسها، شرطيٌ أصاب العجوزَ بطلقاتٍ متفرقة، ثائرٌ تلقى رصاصةً بقلبه مباشرةً، ثــورة طعنتْ شرطيًا منهم حتى الموت، غريزة البقــاء لديها عظيمة، عرقلَهــا شرطيٌ، صفعها آخر وركلهــا، أغلق الباب الشرطي الــذي أصابه ثائر، البوّاب يصرخ: «أنا أعــزل ولا أريد الموت!». قال قائدهم بعدما سحب منها سكينها: «سنغتصبكِ يا حلوة جراء ما فعلتيه برفيقنا، وزميلي هنا ســيتلذذ بالبوّاب؛ من حظكِ أنه يعشق الرجال». ثورة تحاول الفكاك منهم، البوّاب خلع بنطاله مسرعًا وتوســل: «افعل بي ما تريد واتركني لأطفالي! هيّــا ادخله لن اعترض! أم تريــدني أن أداعبه لينتصب أكثر؟».

الناكح اصطحــب المنكوح إلى غرفة العجوز، ثورة صــارت عاريةً تمامًا، وقفوا برهةً يتأملوها، جســدُها بضٌّ يشــع نورًا، كل تفصيلةٍ لديها صُنِعتْ بمهارةٍ وكأنّ الله اختصها هي عن ســائر البشر بوقتٍ أطول، نهدان يقسمان

بأنّ أصولَ النعومة والاستدارة والاكتناز بدأت من هنا، بطنٌ بلا شحوم كأنها صحراءٌ رملها الذهبي يغويك، الجنّة التي بين فخذيها لا غبارَ عليها، تراها بوضوحٍ والشمس تشرق منها لشدة احمرارها، فخذان إذا تعلقت بهما لن تضل طريقَك أبدًا، الحقيقة كل الوصف السابق عرفته بعدما صرتُ ظلًا لقائدهم، وسمعتُ أفكاره وهو يفك سحاب بنطاله ويتساقط لعابه، ثورة كانت فاتنةً كتفاحةِ آدم، نظرتها إليهم وهي على الأرض؛ أجبرتهم على خلع ملابسهم، قال شرطيٌ: «فردي أم زوجي؟». ضحك القائد وقال: «كلنا في نفس التوقيت! سنغتصبها جميعًا في نفس التوقيت؛ أنت الجنّة وأنت المؤخرة وأنت الفم وأنا الثدي؛ ثم تختلف الأوضاع كل خمس دقائق».

انفصلتُ عنه، أمسكتُ بمسدس ثائر، الرصاص بداخله وافر، وقفتُ خلفهم وقُلتُ بصوتٍ واضح: «ثورتي، لن يمسسها أحدكم».

نبيٌ وثورة

قهوةٌ وثورتان؛ هي وخاصتي، البنتُ ة للغايــة، ظننتُ أنها قد تبكي أو تركض خوفًا، تنظــر إليّ وكأنّي بشري، تدخّن مع القهوة، صنعتها بنفســها ولنفســها، جلســتْ وصدّقتْ كل كلمةٍ، حارس العقــار لم يعرف ما الذي حدث، بعدما قتلتهــم أعطيتها البندقية، وعندما خرج الشــاذ من الداخل مهرولًا؛ فجّرتْ رأســه ثــورة، عقدتْ صفقةً مع البــوّاب؛ لن تخبر زوجته مقابل إقامتهــا هنا، الصفقة رائعة، ثورة ذاتها رائعــة، قليلة الكلام، سريعة البديهة، جميلة.

حتــى تلك اللحظة لا أفهــم لِمَ أنقذتُها، قالتْ لي بمنتهــى الوقاحة: «ربما أحببتني؟». ثم ضحكتْ وهي تتمايل، تساءلتُ عمّا بها ولماذا تتصرف هكذا، أشعلتْ سيجارةً أخرى ثم فسّرت كل شيءٍ كما يجب أن يكون.

«حربُ شــوارعٍ وطوائف، الفقــر، الجهل، الظلم، الحكومــة وما تفعله ضدنا، مدينتُنا أمستْ بلا ظلال، أنت من فعل هذا بالمدينة، أنتَ معجزة الله، أنــا أعرف جيدًا أنّ القيامةَ قريبةٌ، خيبــاتُ لا تُحصى، اللا مبالاة التي أمر بها ليستْ من فراغ، أمي قُتِلَتْ برصاصةٍ طائشة؛ تظاهرات عاملات المصنع ضد التحرش، أبي مات حزنًا عليها، حقها ضاع وحقنا أيضًا، أنا وحيدةٌ، أحبني ثائر، لم أبادله الحب، تنقلتُ معه، كان يحترمني، لم يغضبني يومًا، أعمل محاميةً حرة، ثائــر كان مصدرَ مالي؛ نعم أعلم أنني وقحة وعالة، مدمنة، ربما أتعافى

حين أجد المال، اسمي ثورة وأنا كل فعلٍ ضعيف في العالم، لذلك أنا سعيدةٌ حقًا أنني أقف أمام نبي، بُعث ليقضي على كل هذا، أنا معك حتى النهاية يا نبي، ما الذي سيحدث أسوأ من ذلك؟ حتى لو كنتَ هلوساتِ الأدوية ولستَ حقيقيًا؛ أنا معك!».

أعطتني صورةَ لهما، ثائر وهي، وطلبتْ مني حرقها، نهضتْ وتحركت خلفي، فتحتُ لها أبواب الغرف، ضحكتْ بجنونٍ وقفزتْ بمكانها، نظرتْ إلى الأرض ولم تجد ظلّها، أومأت لها ففهمتْ، «ماذا ستفعل بهم؟». تساءلتْ، الإجابة في الوقت المحدد ستعرفينها يا ثورة، خرجنا إلى الصالة مجددًا، جلستْ وفتحتْ الحاسوب الشخصي، حسابها على هذا الموقع الاجتماعي متمردٌ لأقصى حد، تسبب الحكومة ليلاً ونهارًا، قرأتْ لي ردود الأفعال، شاهدنا ما يقرب من عشرين مقطعًا، كلهم لأشخاصٍ يشحنون الناسَ ويطالبونهم بضرورة الانضمام إلى صفوفهم، حتى وقفنا أمام مقطعين، عميد من الجيش وشرطي، كلاهما يتحدثان بالتتابع..

«بسم الله الرحمن الرحيم، أنا العميد طارق الحكيم، مسلم والحمد لله، أخدم وطني ولن أتنازل عن شرف الشهادة، أعلنها صريحةً أمامكم، لقد قتل الكفرة بنتي وابني وزوجتي، أُعلنها صريحةً أمامكم، يا أولاد الزواني سأقتلكم واحدًا واحدًا، سأصلبكم وسأغتصبكم، أطالب كل قائدِ كتيبةٍ ورتبةٍ ومن له سلطة في الجيش بالانضمام إليّ، لن نسكت، لن نرضخ لأي أوامرٍ، لن نكون أداةَ الإخماد، اقتلوا الكفرة، حتى لو كان أخاك، كلهم أوساخ، كلهم أوساخ، كلهم أوساخ!».

«بسم الصليب عليكم، وليم مُراد، مسيحي وعلى حق، لواء شرطة، أهلي

بجانبي وكلهم بخير، هذه عداوةٌ بيننا وبينكم يا أهل الضلال، هذا الخازوق مجهز لكم، إذا كنتَ زميلي أو صديقي أو حتى تناولنا العشـــاء أمس؛ فاليوم أنت -إذا كنتَ مســـلمًا- عدوّي الأول، أطلب مـــن الحكومة والقيادات ألا تطالبنا بالصبر والسكوت، هذه الحرب لن تُخمد، طرفُ واحدٌ فقط سيعيش بهـــذه المدينة، الطرف الآخر ســـيُنفَى أو ســـيُقتَل، صوت الـــرب لم يمُت يا شراميط!».

سماء بلا أبواب

ألقيتُ جثامينهم مـــن النافذة، كلهم، أهل البيت وثائر والشرطة، لمحتُ ثورة تقرأ شـــيئًا وتتفاعل معه، قالتْ لي أن أعدادًا كبيرة تسأل عن الشخص الذي حذّرهم من تفجـــير الأزهر، أصدقاؤه المقربـــون يؤكدون خبرَ إلقاء القبض عليه، وأضافتْ أيضًا بوجود منشـــورات متلاحقة تسب بنتًا تُدعى ساندرا؛ لأنها تطالب الناس بالتوقف عن سؤالها عنه؛ لقد كانت علاقةً عابرة وليساعده الرب.

أغلقتُ الباب خلفي، ثورة تحتفظ بالسكّين؛ ترفض القتل عن بُعد، هبطتُ إلى أرض الخراب، عوازل أمنية بين الشوارع، عربة شرطة تقف أمام مدرعة، يتقاذفون السباب والرصاص الطائش، هذا العالم السيئ سيزداد سوءًا، أرى شـــابًا يقف على جانب الطريق، يرفع بيمينه ظـــلالًا صناعية للبيع، ويسراه تحمـــل بندقيةً جاهزة لتفجير رأسَ من يقترب، مـــن يهمه الظلال في الوقت الحالي؟

الصلبان والخوازيق، الدماء والأشـــلاء، الكر والفر، الســـماء والأرض، البشر والأنبياء، البشر والإله، ثورتي وثورتهم، حربهم، حربي ضدهم، حرب إبليس ضدهم.

البشر، لديهـــم القدرة على الثورة من أجل مبنى، مجـــرد مبنى، أنا لا أدافع عن دينٍ بعينه، الأزهر جعل المســـلمين يقتلون البابا ويفجّرون مقره، الأنباء تطمئن الناس يوميًا على حالة شـــيخ الأزهر، ومع ذلك قتلوا البابا فقط من

أجل حجارة، حجارة ملوّنة، فلوّن المسلم الشوارع بدماء المسيحي، فكان الرد من جانب الأخير؛ أن قتل كل مسلمٍ مقابل شخصٍ يراه صوتَ الرب! عرفتُ أن الكثيرَ منهم أعلن إلحاده، يكفرون بوجود خالقهم بسبب مقتل شخصٍ! هل يعبد البشر مبنى وشخصًا أم خالق المبنى والأشخاص؟ على أي حالٍ؛ اليسر الذي يُلازم خطتي يعجبني حقًا، اعتقدتُ بوجود عقلياتٍ بينهم ربما تعوق مسيرتي، رسمتُ الكثير من الخطط، كانتْ الفوضى الخيار الأول، لكنّ ردَ فعلهم، جعلها الخطة الأمثل، لن أتدخل أكثر من ذلك، سأراقب فقط.

أثناء مروري بمقهى، قرأتُ اللوحةَ وضحكتُ: «مقهى يسوع!». الروّاد من كافة الطبقات؛ مدني، عسكري، يدخنّون الغضب ويشربون الحذر والقهوة والنرجيلة، النادل يقدم المشروبات وعلى كتفه البندقية، صاحب المقهى وضع صليبًا ضخمًا بجانبه، صرخ بالنادل أن يرفع صوتَ التلفاز..

«القناة الثانية المسيحية ترحّب بكم، أعلن مجمع كهنة المدينة عن تقليد الأنبا هدرا بنيامين كمتحدثٍ رسميًا لمسيحيّ المدينة، وسيقوم نيافته بمقابلة نائب الرئيس؛ غالي عاطف، وذلك بعدما اعتذر لسيادة الرئيس عن مقابلته بسبب الحرب القائمة بين الطائفتين، موضحًا أن هذا الاجتماع غرضه مناقشة اللجوء إلى الدول الخارجية المسيحية، للتدخل إذا لزم الأمر، مع تأمين الخروج للعائلات المسيحية الرافضة للاشتراك بالحرب وهو حقهم، أما عن الجانب الاقتصادي..».

نهض صاحب المقهى وصرخ: «أعطونا القناة الثانية! لماذا لم نأخذ القناة الأولى؟».

اللجوء الخارجي وتأمين الخروج، أقسم لك وبك يا الله، أنني لم أتوقع

ما يحدث، تركتُ مقهى يسّــوع وأثناء سيري بالشــوارع، وجدتُ تظاهرةً، اللافتات القماش المنقّبة وكل شيءٍ قد يُكتب عليه، العدد لا بأس به، يتقدمهم مجموعــة من الشرطة، والنــداء واحد: «مجيد حُر، مســيحيٌ حُر». لنتبعهم ونرى أين مجيد؟ الشِعارات عدائية من الدرجة الأولى، الشرطة هنا قد تطلق الرصاص على أي مســلمٍ مهــما كانت صفته، التأمــين طائفي وليس لحماية تظاهرةٍ، الشرفات تمطر نداءات المســاندين، والرافض يراقب في صمت، أمٌ بالطابق الأرضي تســأل من مجيد؟ يجيبها أحدهم: «مسيحيٌ حر قُبِضَ عليه ظلمًا لأنه مسيحي! لن نسكت من اليوم».

بعد مسيرة ساعة؛ عرفتُ المدة من رجلٍ يتحدث في الهاتف مطمئنًا زوجته، وقفنــا أمام وزارة الداخلية، الجميع جلس على الأرض، منهم من يلعن مجيد بســبب وجع قدميه، ســأل قائد التظاهرة شرطيًا: «من هؤلاء؟». إشارةً إلي الذين يحرســون الوزارة، زي عســكري، أخضر غامــق، ملامحهم أجنبية، يتحدثون العربية الفصحى، تقدم شــخصٌ وقال للجميع بصوتٍ واضح: «أهلًا بكم، أنا شمعون يوسي، قائد نقطة حماية وزارة الداخلية».

الأيام بيننا

«**أبناء** الوطن، الشـــعب الـــذي نحترمه كثيرًا، ومصلحتـــه تهمنا قبل أي شيء، أعرفكم بنفسي؛ أنا شيمون درعي؛ المتحدث الإعلامي باسم الحكومة المحايدة، التي سيرأســـها الوزير أدون عامير، وذلك بعدما اجتمع ســـيادة الرئيس مع نائبه وتوصلا إلى هذا الحل، وبعد مناقشاتٍ عديدة سأقرأ عليكم القـــرارات الآتية.. لعلها تحد من ضراوة الحـــرب بينكما يا أبناء الوطن حتى نصل إلى المهادنة والمعاهدة المنشودة:

– من اليوم هناك القناة الإســـلامية والقناة المسيحية؛ رفعنا الأولى والثانية حتى لا يشعر أحدكم بالإهانة، مع وجود القناة المحايدة؛ لعرض كل الآراء والمواقف والبرامج بعيدًا عن الانحياز لطائفةٍ بعينها.

– بدايةً من الشـــهر المقبل؛ أيام الأسبوع ستقسم كالتالي: الأحد والإثنين والثلاثاء للمســـيحين، الأربعاء والخميس والجمعة للمسلمين، السبت لنا؛ نعم لن يغادر أحدكم منزله وســـتطوف قوات الحكومة المحايدة لتتأكد من سلامتكم جميعًا.

– في غير أيامكم المعلنة؛ سنوفّر أماكن معينة للتنزه بها، مما يعني أنكم لكم مطلـــق الحرية في البقاء بالمنازل أو التنزه بهذه الأماكن فقط ونكرر؛ الســـبت سيلزم الجميع منازلهم.

– الأملاك حســـب طائفتك، مثال بسيط؛ إذا كنتَ تعمل كحلّاق وتملك

محلًا بعمارة مسلم، فستترك المحل لحلاّق مسلم وستوفّر لك الدولة محلًا ببناية لمالكٍ مسيحي ينطبق هذا البند على البقالة والمقاهي وهكذا.

- القطاع الحكومي؛ يتبع بند تقسيم الأسبوع.

- تُعفى المطاعم ومحلات المشروبات من بند الأملاك، وتستمر في عملها طوال الأسبوع طبقًا للأيام الخاصة بالطائفتين.

- القطاع الخاص؛ لصاحب العمل مطلق الحرية في الحفاظ على موظفيه أو استبدالهم أو إنهاء عقودهم لاختلاف العقيدة.

- بنوك الدم؛ سيتم فرز الأكياس مجددًا؛ وبداخل كل مشفى سنجد بنكًا لكل طائفة، ويُمنع منعًا باتًا الاقتراب من بنك الطائفة الأخرى حتى في أخطر الحالات والجدير بالذكر هذا القرار سيستلزم التبرع منكم في أقرب وقت.

- يتوقف النشاط الرياضي تمامًا لكل الألعاب؛ لما في ذلك من خطورةٍ على الطرفين.

- تتسلم الحكومة المحايدة إدارة البنوك والبورصة والاستثمارات لضمان عموم الفائدة على الكل.

هذا بالنسبة للوقت الحالي، مع تعديل القرارات أو إضافة ما يكمل ميثاق قيادة حكومتنا، ونناشد المواطنين ضرورة الانصياع التام لكل حرفٍ تم ذكره للحفاظ على سلامتكم وتجنب أي خطرٍ، لن نلجأ للعنف نهائيًا إلا في حالات الانتهاكات الصريحة؛ العنف ليس حلًا ولكنه خيارٌ مهم، حفظكم الله يا أبناء الوطن».

سمعنا، أنا ومجيد والشرطي المسلم وزميله المسيحي، البيان العاجل الذي خرج لنا على التلفاز كرائحة جثةٍ متعفنة، بالطبع هذا الشـــعب ســـيثور على تلك القرارات العجيبة، لن تعمي الحرب أبصارهم عن الحقيقة المطلقة، مجيد مقيّد، الضابط المســـلم صامتٌ تمامًا، والمسيحي يتحدث بودٍ مصطنع؛ مجيد يعيد ما يقوله ولا يغيره: «أقسم لك بالعذراء والمسيح، وخشب الصليب، أنا لســـتُ مجنونًا، كان ظلًا يقف أمامي، إذا تعرضتُ للتعذيب طوال السنة، لن أغير أقوالي لأنني لا أعرف غيرها».

قام المسلم من مكانه ونظر إلى المسيحي بنظرة تحد، سيباشر مع مجيد التحقيق بطريقته: «اســـمعني جيدًا يا مجيد، الموقـــف الآن في غاية الصعوبة والغرابة، مـــن اليوم وطبقًا لقانون الحكومة المحايـــدة الداخلي؛ التحقيق يتم في وجود شرطيين؛ مسلم ومسيحي، والتحقيق كأنّه امتحان؛ سؤال لكل محقق، ومن يفز بالاعتراف؛ يمنع الآخر من الإجازات لمدة ســـنة كاملة، والحقيقة أنا لن أجلس هنا كل هذه المدة دون الخروج مع عائلتي او عشيقاتي، لذلك؛ ستقول لي وفي الحال؛ من الذي فعل ذلك يا ابن القحبة!». أخرج مسدســـه ووضعه بين فخذي مجيد مهددًا إياه أنه قد يســـلبه أعز مـــا يملك، مجيد يرتجف خوفًا ويبكي، الضابط يحشر الســـلاح بعنفٍ فيتألم لضغطه على عضوه وخصيتيه، التأوهـــات تتزايد ومعها توترهما، صرّح مجيد في ضعفٍ تام: "انظر، انظر إلى الأرض، لـــن تجد ظلي"، ركضتُ في هذه اللحظة وصرتُ ظله، حين فعل ما طلبـــه مجيد؛ وجدني، فصرخ به: «أتتلاعب بي يا ابن الزانية؟ ها هو ظلّك!». صفعه، لم يصدق مجيد وجودي، لثلاثين دقيقة يقســـم لهما أنني كنتُ مختفيًا، لثلاثين دقيقة يلكمه ويصفعه ويبصق عليه.

قام الشرطي المسيحي وطلب منه العدول عن ذلك، لم يهتم لأمره وواصل، حذّره مرةً أخرى، ترك المسلم مجيد والتفت إلى زميله وصرخ به ألا يتدخل، مجيد يراقبهما من خلف الدم والكدمات، المسلم أفرغ خزانة مسدسه وترك رصاصة واحدة ثم قال: «سؤال مقابل سؤال؛ من يفشل في النهاية يقتل الآخر، سؤال واحد، طلقة واحدة". ليرد المسيحي: «ومن الذي سينفذ ذلك؟». أشار المسلم إلى مجيد، ارتبك مجيد ورفض، ليضربه المسلم مؤكدًا على تنفيذ الأوامر.

رسمتُ طريقي بهدوء تجاه كاميرا المراقبة، قطعتُ سلكها الكهربائي، لن انتظر هراء تفكيرهما، رجعتُ إليهما، أمسكتُ بالسلاحين، نظرا لي والرعب والبول يرافقاهما، رددا في نفس التوقيت: « لقد كان على حق!».

رصاصةٌ واحدة.. إجابة واحدة.. رصاصةٌ ثانية.. إجابة مؤكدة؛ أنا الذي على حق..

التفتُ إلى مجيد: «اصرخ واطلب المُساعدة، قُل لهم لقد تعاركا فجأة، لا أُريدك أن تنجّس اسمي مجددًا في التحقيقات، مجيد؛ المرة القادمة لن أنقذك، بالخارج هناك تظاهرة من أجلك؛ ربما هي فرصة خروجك من هنا».

أهل الكهف

مهدٌ وليلٌ ولحد

الليل أقنع الصباح بأنه ليلٌ بالمثل، الليلُ صار زمنًا وواقعًا، ثورة خرجتْ تتبضع، أقسمتْ أنها لن تتأخر، تتعجب من وفرة المال لدي، حسب ما قالته أن اليومَ هو الخميس، سألتني إذا كنتُ أريدُ شيئًا؛ أريد الموتَ لهم جميعًا يا ثورة، تعلمتُ منها كيفية التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي، الحيرة التي تراقصني يوميًا؛ إذا كان كل هؤلاء يبغضون واقعهم؛ فأين ثورتهم؟ قرأتُ هذا المنشور الذي تفاعل معه الجميع بشكلٍ فج، صورةٌ لسيدةٍ عجوز:

«البارحة، هذه السيدة، ماري صليب، ذهبتْ إلى المشفى، لتغسل الكلى، رفضوا متعللين بالمواعيد! ستنتظر إلى يوم الأحد كي يهدأ هذا الألم الذي لا راحة منه! أنا مُسلمة وأقول للحكومة المحايدة ضرورة تخفيف بعض البنود أو البند الخاص بالأيام وزيارات المشفى؛ بعض الحالات لن تستطيع الانتظار».

التعليقات، رفض، سخط، سباب، لعن، لصاحبة المنشور! تأكدتُ من ردود أفعالهم مرةً أخرى، هكذا كانت ردودهم:

«المُسكّنات حتى يوم الأحد/ الموضوع بسيط لا تزايدوا/ أنا مسيحية وأقول لكِ لا تتدخلي/ حسب علمي ودراستي أن غسيل الكلى إذا لم يتم في موعده فلا ضرر؛ الضرر هنا سيقع على البلد يا مخربة/ احذفي المنشور/ يا جماعة، هذه كاذبة تبحث عن المزيد من الإعجابات والمتابعين؛ لنقم بحملة

بلاغات ضدها لنغلق لها الحســـاب/ يا مريم؛ أضم صوتي إلى صوتكِ، تعالي خاص/ كـــذب! كل هذا كذب! لقد رأيتُها فأنا ممرضة بالمشـــفى وحصلتْ على كل مـــا تريده، كفاكِ خرابًا يا غبية/ تعالي خاص يا مريم، ســـأقول لكِ كيف نســـاعدها/ عهدتكِ ثائرةً ناصرةً للحق دومًا، مساؤكِ جميل يا جميلة، الدكتورم.م».

تضامن مع السيدة قليل القليل، هؤلاء لن يثوروا ولن يساعدوا ثوّارًا.

رجعتْ ثـــورة، معها الكثير الذي يكفيها كما وضحّتْ، قالتْ لي إنها تلقتْ دعوةَ فرحٍ لصديقةٍ مســـيحية، الأحد الأول من الشهر القادم، أي في خلال أسبوعين، ستذهب بلا شك، لعنتْ قراراتِ الحكومة المحايدة، لن تجلس هنا وصديقتها تبدأ رحلةً جديدة، جلستْ مكانها وسألتْ نفسها ماذا سترتدي؟ كل ملابسِـــها ببيت ثائر، قُلتُ لها: «تملكين وقتًا كافيًا، ومالًا أيضًا». فهمتْ مبادرتي، شكرتني وتمنتْ لو كنتُ بشرًا لتقبّلني، قرأتُ الكثير عن القُبلة وما تفعله بهم، هذا التمازج العجيب، لماذا يحبونها هكذا؟

قررتْ شراء فستانٍ بســـيط، اللون أسود وقصير، أخرجتْ قلمًا من حقيبة يدها، ورســـمتْ صليبًا على يمينها، بالتحديد؛ ظهـــر يمينها، بنهاية الإبهام، الخطة ساذجة ولكنها قد تفلح، أثناء حديثنا غير المفيد إطلاقًا، سمعنا طرقاتِ الباب، انتفضتْ ثورة، أحضرتْ سكينها، أخفته وفتحتْ الباب، هو، طوله الوثيد وجسده الفارع، نظارته المعتمة وابتسامته اللزجة، شكرَ البوّاب الذي نظر إلى ثورة وكأنه يعتذر، أغلق الباب، جلس بالصالة، ثم بدأ كلامه:

"أخـــبرني هذا الكلب بوجودكِ هنا، وأن العجـــوز ورحمة رحلا، الحكاية غريبة ولكنني ســـأصدقها، اســـمعيني جيدًا، ولن أعيد كلامي، هذه الشقة

تحدثتُ مع صاحبها كثيرًا، لا تملكين أي دليلٍ على ملكيتها، لذلك سأمنحكِ مهلةً؛ لنقل شـــهرًا كاملًا، ومن بعدها الشـــقة لي، هذه الطريقة المهذبة التي أعامل بها النســـاء، لقد لمحتُكِ مرتين بالملهى الخاص بي، أنتِ وهذا الشاب المخنّـــث، لا أعرف أين هو الآن ولا يهمني! مـــا قولكِ يا حلوة؟ أعتذر عن فجاجتي؛ اسمي ليل، وأنتَ؟".

وقفتُ خلفه، ثورة صامتة، ليل متحفز، ثورة تتحســـس السكّين، أشرتُ لها ففهمتْ، تراجعتْ عما تفكر به، ليل يشـــعل سيجارةً وقلقها، ثورة تحاول شرح الموقف، ملامحها كاذبة، ليل يدخّن أفكاره وكلامها والسيجارة، ثورة ترتبك، تتشـــابك أصابعها، تعض على شفتيها، ليل يتأملها فقط، ثورة تنظر إلى الأرض، ليل يرفع رأسه إلى السماء، ثورة تتنظر مني إشارةً، وأنا لا أُحِب قتل الرجال غدرًا.

خطواتٌ محســـوبة إلى الباب، أوصدتُه كقبرٍ، ســـمع ليل صوتَ التكّات، سقطتْ السيجارة من يديه، وقف مكانه حين رأى ظلامًا يتحرك، فرك عينيه، هرع وكاد أن يســـقط صريعًا، الليل هنا خائف، بالرغم من عهدنا لليل، إنه دومًا شجاعًا كئيبًا، قال كلامًا لا أفهمه، وبدأ يرسم صليبًا في الهواء! يتراجع إلى الوراء ويناجي المسيح، ســـمعني وأنا أطلب من ثورة تفريغ جيوبه، مال وسجائر ومفتاح ســـيارة وواقيات ذكرية، أخذتُ من ثورة سكّينها، وبكل هدوءٍ، أمرتـــه أن يهبط إلى مقر الملهى، ينزل أمامـــي والموت أمامه والخوف خلفه والثورة خلفي، قُلتُ له: «لا تقاوم ولا تطلب منهم المســـاعدة، تحرك بشكلٍ طبيعي حتى ندخل مكتبك».

جلس على مكتبه، السكّين على رقبته، حياته تُعرض داخل شاشة عينيه..

"تابعتُك كثيرًا يا ليل، خطاياك فاقت ليل البشر سوادًا، كنتُ أسمعُك وأنت تهاتف رحمة، وأراك وأنت تضاجعها، وتضاجع كل حسناءٍ دخلتْ هنا، وجملك المكررة، العجيب يا ليل أنك تضاجع المسلماتِ فقط! وكأنّك تسوط شرفهم بعشقك لمجاسدة من هم على غير دينك، حتى العاملون بالمكان؛ مسلمون، ليلٌ وقدّيس؟ تعفي المسيحيين من أبلسة مكانك وتقدم الجحيم في كأسٍ للآخرين، يسعدني أن صوتي وكشفي لوساختك وريقك الذي جف من شدة الخوف هم مشهد النهاية، لن يفتقدك العالم ولا زوجتك، لا سلام عليك ولا وداع يا ابن الزانية».

ونحرتُ رقبتَه؛ خرج الدم منه خروج السجين من زنزانته، تشنجاتٌ وحركاتٌ لا إرادية، يمسك رقبته كأنه يحميها من السقوط، غمستُ أناملي بالدماء، وكتبتُ على المكتب:

«كيف ترى الليل مهزومًا؟ أن تذبحه».

توقف عن الحركة، سكن تمامًا، ليلٌ ساكنٌ، ليلٌ بدون أفكارٍ أو قلقٍ سخيف.

ورحلتُ إلى ثورتي...

توحيد الوطن

الشـــوارع صارتْ ثكناتِ عســكرية، الأيام تمر والشعب معها، الملهى مغلق بعــد غياب ليله، أعتقد أن خللًا حل بخطتي، ظننتُها غابةً، وبســبب فوضاي، ســتحدث مذابح، ســيتعارك الجميع، يمــوت الكثير، تضعف دولتهــم، تنتهي، أغادرهــا إلى أخرى، وهكذا، ولكــنّ خضوعَهم إلى هذا الأمان، إلى تلك الحكومة، التي تحرّكهم وتحرّك أقدارَهم، أعاد الأمور قليلًا إلى وضــعِ مبهم، لا أفهمه، حقوقهم مســلوبة، ومع ذلك، الراحة حاضرة، راحــةٌ مغلفة بخطرٍ لئيم، خطرٌ يدور بداخــلي، خطرٌ يقول لي لقد خدمتهم، وأنا أقول له هذه ليستْ النهاية.

أثناء ســيري، وجدتُ فوهةَ دبابةٍ، تنظر إلى طفلٍ صغير، يمســك دميته، يسأل أباه، هل يمكنه اللعب معها؟ يضحك الأب، يعتذر عن سذاجة طفله، يبتسم القائد ويحمل الطفل، يسأله عن اسمه، حنّا، يجلسه على المقدمة، يخبره أن قتلَ الأعداء شيءٌ يزيد مــن الرجولة، والرحمة لا بد من غيابها، الطفل لا يدرك وأبوه لا يتدخل، القائد يريه صورًا لجثثٍ على هاتفه، يتفاخر بكل من قتلهم، «لقد كانوا أطفالًا ورجالًا ونســاءً وشــيوخًا يا حنّا، قنصتهم كلهم، نحن الرجــال يا حنّا لا نملك قلبًا بل حجرًا، قلوبنا مع أمهاتنا وعشــيقاتنا وبعض الأحيان الرب يا حنّا».

يمشي الأب ومعه طفله الذي يبكي، يضحــك القائد وكتيبته، ينتبه فجأةً

لوجود رجلٍ، يلتفت يمينًا ويسـارًا وحركته متوتـرة، ينادي عليه، الرجل يسرع من خطواته، يقفز من فوق الدبابة جنديان، يشـير القائد إلى المترجل، يركضان ناحيته، يقف الرجل، لا نسمع ما الذي يحدث هناك، يدفع أحدهم ليسقط أرضًا، يطعن الآخر ثم يخرج مسدسًا ليقتلهما، سمعتُ صوتَ طلقةٍ تعرف جيدًا مقصدها، الرجل تهاوى ومعه شـجاعته المؤقتة، رجع أحدهم، أعطاه شارةً سـوداء، كُتِبَ عليها بخطٍ عربي واضح: «كتفٌ وبندقيةٌ ووطنٌ مسلم». أمر الكتيبة بالتجمع أمامه.

«الأنذال الأوسـاخ، نحمي بلادهم، نقف ليل نهار، تاركين بلادنا وأهلنا خلفنا، لخدمتهم، وفي النهاية، يهاجموننا، هذه الحادثة الرابعة في نفس الأسبوع، هذا الشاذ، من جماعةٍ تُدعى التوحيد، هدفهم محاربة الطرف الآخر المسيحي، لِمَ صرنا طرفًا ثالثًا في حربِهم القذرة؟ سأتحدث مع القيادة العليا على ضرورة قتل هذه العناصر متى وجدناها لا متى هاجمونا، يبدو أن الاحترام سـيغيب عن تعاملنا!».

رجعتُ إلى المقر، سردتُ لها ما حدث، حدثتني عن ظهور جماعاتٍ أخرى وفقًا للحكايات، قالتْ أن جماعةً أنشـأت صفحاتٍ على الانترنت، الوحدة مجددًا هدفها، اسمها "الوطن"، تحلم بالوفاق مرةً أخرى بين الكل، وتطالب برحيل الحكومة المحايدة؛ فنحن نقدر على إدارة البلد، جماعة التوحيد وجماعة الوطن؟

سألتني ثورة: «هل سنذهب سويًا إلى حفل الزفاف؟».

تفكيك الوطن

مغفلٌ ستقيده مغفلةٌ، هذه وجهة نظري عن الزواج، كلما قرأتُ كتابًا، عرفتُ مدى سذاجة البشر، ومدى خبث العالم، المكان مبهج لهم، بغيضٌ لي، صرتُ ظلَ ثورة، الطريقة المثلى لمرافقتها، أفكارها كلها مشتتة، لم أصرّح لها بقدرتي، تفكّر في ثائر، الهروب، الوطن، الكتب، الاشتراكية، الجنس، كيف ستبلي صديقتها اليوم، هل زوجها موضع شرفٍ في السرير، تخيلتْ جسدها عاريًا، يضاجعها رجلٌ أعرفه جيدًا، تشي چيڤارا، أعتقد، وفقًا لمقاييس الجمال عند البشر، چيڤارا كان سيدخّن سيجاره الكوبي، وسيشرب خمرًا؛ من الكأس ومنها.

انفصلتُ عنها، لا أطيق هذا التخبط السخيف، وقفتُ أسفل تمثال العذراء، وكأنني ظلها، أرى الكنيسةَ كاملةً، الأرائك، الزجاج الملوَّن، الرسومات القبطية، هنا المسيح وتلاميذه، وهناك زكريا ومريم ورحلتهما، السقف يخرج منه يسوع واضعًا يساره على قلبه، رافعًا يمينه بحركة التوحيد، الملل يقتلني، تفاصيل البناء تستحوذ على انتباهي، عشرون عامودًا؛ كل عامودٍ يحمل تمثالَ قديسٍ، وواحدٌ يحمل العذراء، طقوس الزواج بطيئة، ثورة تنظر إلى صديقتِها وتضحك، جلس شخصٌ بجانبها، نسى قواعد الذوق من الواضح، لا يحرك عينيه عن ثورة، نظرتْ إليه وابتسمت، ثم تابعتْ المراسم، تركتُ مكاني ورجعتُ إليها، تحدث هذا البجح وقال: «بيضاء، صهباء، فستانٌ أسود قصير، أنتِ فتنةٌ نسى المسيح أن يحذّرنا منها».

لم تعلّق، اكتفتْ بمتابعة الحدث، اقترب قليلًا، قال مجددًا: «هذه المرة الأولى التـــى أراكِ فيها، أنا أبانـــوب، وأنتِ؟». التفتتْ إليه وبنـــبرة صوتٍ واثقة، وبـــدون تكلّف قالتْ: «أبانـــوب، أنا ثورة، مســـلمة، لا تقاطعني! نعم، أنا مســـلمة، رسمتُ هذا الصليب لأحضر فرح صديقتي، أقسم بالله، إذا عرفَ أحدهم، ســـأصرخ وأتهمُكَ بالتحرش، ابتعد عنّى وحالًا!». رحل العاشق المصدوم، القســـيس يطلب من العريس أن يردد خلفه، ثم العروس، القُبلة، الرباط المقدس، بكاء الأم، مشـــاعر البشر المثيرة للقيء، الإشبينات تتراقص فرحًا، الرجال يلقون نكاتٍ سخيفة، هل نرحل الآن يا ثورة؟

«يا أهل النار!».

جملـــةٌ واحدة، وحيدة، تبعها صوتُ، ردد جملةً مرتين، "الوطن لنا والموت لكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله».

وكأن البارحةَ تسألني ما رأيك بإعادة مشهد الأزهر من جديد؟

البشر، عامةً، لا يملكون القدرةَ على الشـــوف بين ألســـنة النار أو لحظات الانفجار، هذا ما يحدث معي وحدث وسيحدث كل مرةٍ، أرى منفّذَ العملية وهـــو يتمزق صارخًا، الزوج وهو يزحف ليطمئـــن على زوجته، الزوجة لا تتحرك، لفَظَ رأسُـــها مُخَها، أرى طفلًا تطير تجاه خشبةٌ من الأريكة لتطعنه في عينيه، تتمازج صور تفجير الأزهر اللحظات الحالية، موظف الاستقبال وهو يحترق، خادم الكنيســـة وهو يجري مشتعلًا، عامل النظافة الذي يطفئ نفسه بالخرقة البالية، والد العروس الذي خلع سترته ليطفئ زوجته، الرجال وهم يبكون من فقد ذراعٍ أو قدم، النســـاء وهن ينظرن إلى السماء لعلها تنقذهن، طفلةٌ تبحث عن أبيها ماســـكةً عمامته، طفلٌ يبحث عن أبيه ماســـكًا ذراعه والصليب، صورة المســـيح بالأعلى، شعرتُ بدموعٍ تتساقط منها، لماذا تبكي عليهم؟

«نبي.. نب..». صوتُها متحشرج، ملامحُها باهتة، هذه التي كانتْ تضحك منذ دقائق، ترى السماء ومكانها أعلى، تنازع الموتَ، تنطق الكلماتِ ببطءٍ: «امسح الصليبَ.. واخرجني.. لن أموت.. بداخل كنيسة.. أرجوك.. يا نبي». ثورة تعتقد أن الله لن يدخلها الجنة بسبب ما فعلته، الصليب المزيف ومِيتَةٌ بداخل كنيسة، وكأنكِ خدعتِ الله معهم يا ثورة، تبكي، تبلل أناملَها بدمها، تمسح الصليب، مجهودٌ ضعيف لا يمسح غبارًا، راقبتُ عجزَها البشري، تتصرف بغرابة، تمسح الدم عن يسراها، رفعتْ يديها، ولمّا رأتْ الصليب اختفى ابتسمتْ، لن أخبرها بالحقيقة، «والآن اخرجني.. أنت تستطيع حملي..». شعرتُ بشيء يسقط خلفي، أحد العواميد، الذي يحمل العذراء، يتحرك كملاك الموت، تجاهها،

«نبي!»..

أسكتها ثقل العمود، العذراء هي من كتبتْ نهايةَ ثورة، لمحتُ يمينها تهتز، «لن أنقذُكِ مرةً أخرى يا ثورة».

الشرطة والإسعاف والأهالي، الحزن والبكاء والرهبة، الموت والحياة وما بين كل ما سبق، المصابون كثر، الجثامين أكثر، شرطة الحكومة المحايدة، شرطة المدينة، المسيحية بالطبع، تفاجأ الجميع بجماعةٍ ترفع صليبًا ضخمًا، يتقدمهم قسيسٌ، لم يظهر قدسيةً للموت ولا احترامًا للموقف -وهذا يعجبني- تمامًا، وقف أمامهم وقال: «نحن جماعة الملكوت، هدفنا نصرة ديننا الحق وأهلنا، ما حدث الآن سيتم تصعيده دوليًا، لا تطالبنا بالتراجع عن مخططنا، هذا الوطن لن يحتمل وجودهم معنا، هذا الوطن لنا وليس لهم، كل هذه الأرواح ذهبت إلى المسيح، الراحة الأبدية مكسبٌ لهم، نطالب

الحكومة المحايدة بعقد اجتماعٍ مع نائب الرئيس حالًا، هذا رقمي..».

أعطاهم الورقة ورحل وخلفه التابعون.

قائد شرطة الحكومة المحايدة، نظر إلى الورقة التي بها رقم القسيس، ألقاها بعيدًا، ضحك مفسرًا لرجاله: «قُلتُ لكم المهمة ليست سهلة، سنقابل هؤلاء المخبولين كل يوم، هيا، اطلب من الناس التراجع، واستمروا في مسح المكان، لعل شخصًا حيًا ينتظر".

سحبتُ الورقةَ من على الأرض، «مكاري فلوباتير» ورقمه، الملكوت والوطن والتوحيد؛ ماذا بعد؟

أفراد الشرطة تطالب المتجمهرين بالرحيل، سمعتُ هذا الذي يحث حمارَه على السير، يجر عربةً، وينادي: «سوادُك فاق السواد يا باذنجان». لحقتُ به، على ظهر العربة استقريتُ، لا بد من زيارةِ لمناطقِهم.

همّ الوطن

فقرٌ وقيحٌ وريحُ قفر، صراخُ الموت يدوي لُمســتقَر، جزيرةٌ تشبه ثدي أم، لبنُه جافٌ وملمسُه حجر، الناس نسوا أُنسَ الحياة، والظلمُ أخرسَ كل «لا»، الحُرة هنا، التي تملك خبزَها، والتي جعلتْ جسدَها، صفقةً غرضُها الأمان، يا الله؛ أنا أمقتُ الإنسان.

لا أدري عددَ الأيام التي قضيتُها بينهم، منذ لحقتُ بهذا البائع، وأنا أؤجّل الرحيل، المكان قذرٌ للغاية، مســحتُ على ظلالٍ، طفــلٌ صغير عرفَ، أمه قالتْ: «هات لنا خبزًا يا ابن الكلب! ماذا ستفعل بظلك يا ابن الحرام؟».

يعيشون جميعًا بمنطقةٍ عشوائية، تشعر بأنها صحراءٌ، بالرغم من وجودها بالمدينــة، البيوت رمادية كلها، رمادية اللون والحال، تتصاعد مع كل خطوةٍ لك، وكأنك تصعد جبلًا، لا يتبعون قوانين الحكومة المحايدة، المهنة السائدة هنا؛ أي شيءٍ يجلب خبزًا!

الحكومةُ نستْ وجودَهم ومشــاكلَهم، الاتفاق صريح؛ تسكنون المنطقةَ وتتبعون التعليمات، يحكمهم كبيرهم وأكثرهم حظًا؛ الشيخ محمود الجميل، الخمسيني طويل القامة وعظيم الهيبة، صاحبُ الحانوتِ الوحيد لديهم، يبيع السُكّرَ والزيتَ والدقيق والمعجّنات، «من يدفع يأكل، كلنا فقراء!». يردّدها طوال اليــوم، بيتُه بالمنتصف؛ لا هو بالقاع ولا هو بالقمة، والحانوت بجانبه تمامًا، الناس تذهب إليه شاكيةً، وترجع من عنده راجيةً خائبةً كارهة، يدخّن

النرجيلة أمام مقر رزقه، وينظّم الشكاوي للناس، كانتْ هذه أغربهم!

ركض الناس، حين سمعوا صراخًا، وكلماتٍ من نوعية: «العدل يا شيخ محمود/ طفلٌ صغير لا يفهم». تجمهر السكّان، ملامحهم حزينة وغير مكترثة بالموقف، فضول البشر لا أكثر، الشيخ محمود يصفع طفلًا عاريًا، وأمّه لا تقدر على منعه؛ لأنه سرقَ رغيفين منه، الطفل ينظر إلى أمّه ويصرخ: «يا أمي؛ استريني أو خلّصيني من يده». يبكي وصفعات الشيخ توجعه وكرامته تبكي معه،" والله العظيم يا ابن الكلبة لأدخلك سجن الأحداث!».

الأم عاجزة والطفل عاجز والفقر قادر، الناس تراقب والسماء معهم، وجه الطفل يحمل دموعًا ودماءً وفقرًا، جثت على ركبتيها وقالتْ له: «افعل بي ما شئتَ واتركه!». هذه الجملة، هذه الأم، هذا الذل، جعلوا الرجل يتوقف، وينظر إليها، سألها: «هل تعنين حقًا ما شئتُ؟». ففهمتْ مقصدَه، وفهم من صمتِها جوابها، طلبتْ الأم من الطفل الذهاب إلى البيت، فركض باكيًا لاعنًا من عذبه، تفرّق الجمع، دخل الحانوت وهي خلفه، تبعتُهما، قال لها بصوتٍ خفيض: «بعد صلاة العِشاء، تأكدي من نوم صغيرك الحقير، وزوجُكِ سأرسله ليحضر لي بضاعةً مقابل الرغيفين المسروقين، سأدخل بيتَكِ أنا والشيطان، الشهادة لله، أنتِ أنثى تحتاج إلى من يخمد ثورتَها». وأمسك بيدها وجعلها تتحسس قضيبه، فسحبتْ يمينها بسرعة ووافقتْ على مطلبه، الأم تبيع جسدَها ليرتاح صغيرها، يا إلهي! كلمة حقٍ؛ الأم شرفٌ لا يستحقه البشر، فلماذا أنعمتَ عليهم به؟

هذا الصباح غريب، ذهب الكل إلى الشيخ محمود، وقفوا صفًا طويلًا، لا أفهم السبب، سمعتُ رجلًا يقول راكضًا: «معونة الشيخ محمود الشهرية،

يا رب، عشر جنيهات زيادة! شـــمس أغسطس الحارقة». رماها رجلٌ وهو يتقدم، رأيتُ البهجةَ والأمل والحياة ورجلًا ميتًا! وقع رجلٌ عجوز ولم يعره أحدهم إنتباهًا، «لـــن أترك دوري بالطابور؛ المعونـــة قليلة، فليرحمه الله!». الطابور يتحرك والرجل جثةٌ، أخرجتْ سيدة عجوز صحيفةَ اليوم وطلبتْ مـــن الناس أن يغطوه بها، قال لهم الشـــيخ محمود: «هـــل تأكدتم أنه ميت يا أوباش؟». قالتْ العجوز: «وهل ترانـــا أحياءً!». الناس تتحرك والرجل لا يتحرك، تبرع شابٌ حين حصل على المعونة بحمل الجثة ووضّح لهم: «أنه عم عزيز الأراجوز، لقد نســـيتموه بالطبع، أضحككم حين كنتم صغارًا، رحمك الله يا عم عزيز!». ورحل الشاب بالمعونة وضحكات عم عزيز المتساقطة من جثته!

ربما إذا كنتُ بشرًا، ربما إذا كنتُ أملكُ قلبًا، لتعاطفتُ معهم ومع عم عزيز، لغـــطٌ علا فجأة: «ماذا تقول! وإلى أين نذهب؟/ ردّوا المال إليه، الله الغني/ يا شيخ محمود، ديارنا هنا، ليس لدينا سواها!/ يا شيخ جميل، أنا بائعُ أقلام، وهذا المبلغ ألفا جنيهًا من الممكن اســـتخدامهم في شراء بضاعةٍ لي، أو دكانٌ صغير بمنطقةٍ فقيرة ولكن! أين الســـكن يا شـــيخ جميل؟/ أنا زوجي يعمل بالكنيســـة وأنا أســـاعده بالخدمة في البيوت؛ مصدر دخلنـــا ضعيفٌ جدًا يا شيخ!/ أنا كفيفة يا محمود يا بني، وحفظتُ الطريق هنا بعد معاناة، ووحيدةٌ، لم يعد بالعمر بقية لأتعرف على مكانٍ جديد؛ وهذا إذا عرفتُ الحصول عليه ولم أجد نفسي بالشـــارع/ وأنا قعيد يا شـــيخ محمود وبيـــع المناديل مصدر رزقي!/ يا شـــيخ محمود، وحياة النبي الجليل ووجهك الجميل يا جميل، خذ مالك وســـنكتفي بقليل القليل لكن لا تطردنا، وحياة النبي يا شيخ محمود/ أنا سآخذ نصيبَ عم عزيز ونصيبي؛ لقد كنتُ أقربكم إليه! وهو مقطوعٌ من

شجرة!/ يا شيخ محمود، والعذراء مريم، كل مبلغٍ حصلتُ عليه صرفتُه على علاج بنتي، وماتت بالشـــهر الفائت، خراب ديـــار وموت الصغار، يا قدير أنقذنا!/ هذا ليس عدلًا يا شيخ محمود! تكلم معنا ولا تسكت هكذا!».

يدخّن نرجيلته، يهز رأسَه مع كل شكوى، وضع عصا النرجيلة على كرسيه، وقف وقال: «اســـمعوني جيدًا يـــا فقراء المال والذكاء، مـــن الواضح أنكم حسبتم أنني أعرض عليكم أمرًا، للأســـف يا معدومي كل شيء، الحكومة ستهدم البيوت كلها وستنشأ مشروعًا ســـياحيًا ضخمًا، ومنكم من سيعمل معنـــا في الوظائف المتاحة مثل خدمة الغـــرف والأمن والذي منه، وكل هذا سيتحدد في خلال الأشهر القادمة، آخر همّي مشاكلكم، أنا أيضًا سأرحل ولا أعرف إلى أين ولكن الحكومةَ وعدتني بوظيفةٍ هنا، وهذا المشروع السياحي سيســـاعد البلد كثيرًا، البلد التي لا يحبهم أحدكم والكل يجري خلف الخبز والجنس كل يومِ خميس والتناسل، المهلة المحددة أسبوعان، بعدها، من أراد أن يعجّل بقضاءِ ربه ولقاء كل أحبابه بالجنّة؛ فليقف أمام معدات الهدم!».

هُم الوطن

وقفتُ فوق البيتِ الأخـير، بيت العم عزيز، عرفتُه مـن الألوان، لقد رسـمَ الرجل وجوهًا مضحكة، فعلًا ولفظًا، منذ سمعتُ كلمةَ «الأراجوز» وأنـا أريد معرفة المزيد عنه، دخلتُ بيتَه ووجدتُ الكثير، صور الرجل وهو يحمل دميةً قماشـية صغيرة، مجوّفة من الأسفل، يرتديها كقفازٍ، الصور كلها شرحت لي الأراجوز، ولكـنّ ما الفائدة أو لماذا يضحكهم؟ أغرب ما قابلتُه في البيت؛ مكتبةً! الكتبُ الموجودة أخبرتني بشخصية عم عزيز، إذا كان قرأ كل المرصـوص حقًا، فهو مثقف، والفقير المثقـف داهيةٌ، أما الفقير المثقف المضحك داهيتـان؛ فهو يحمل همَّ شريحةٍ كاملـة بداخله، ويعرض قضاياه بالضحك، والضحكُ حزنٌ مستتر، هذا ملخص ما فهمتُه، بجانب ما قرأتُه في الكتاب الوحيد عن الأراجوز لديـه؛ «الأراجوز المصري» للكاتب نبيل بهجت.

الحقيقة؛ وبالرغم من صغر حجم المكتبة، إلا إنها عظيمة! التراث الشعبي والحكايات والأسـاطير والثورة والفقر والتنمية البشرية والشعر ورباعيات چاهين ورسومات ناجي العلي وطوغان وسخرية جلال عامر، تعرفتُ على هؤلاء بفضله، لقد قضيتُ ببيتِه أسبوعًا كاملًا، أقرأ، لا أعرف ما الذي يدور بالخارج، ولم يطرق بابَ الرجل زائـرٌ واحد! وكأنهم حمدوا الله على رحيله، حتى عثرتُ على ورقةٍ، ومضطر آسفًا، الاعتراف بعبقرية العم عزيز في رسالة وداعه..

«رسالةٌ أولى وأخيرة:

أنـــا؛ عزيز مرقس نجيب، أراجوز، أضحكتُ العـــالم ولم يضحكني أحدٌ، لن أســـتعير الحكاياتِ من كتابٍ أو تراثٍ؛ سأكتب حكايتي أنا، كلامي أنا، بصوتي أنا لا بصوت الأراجوز، إلى الشخص الذي وجد رسالتي؛ اقرأ عنّى ثم احرقها.. نعم؛ لا تتعجب، أنا حكايةٌ سوداء أتمنى لو يعرفها ظلٌ أو سوادٌ ليتعاطف معها..

ورثتُ عن أبي حبَ التراث، أبي، مرقس نجيب، الشهير بـ «اللوردمرقس»، كان ممثلًا مسرحيًا، شـــهدَ له الجميع بموهبته، وأمي، عزيزة بولس، ســـيدة الحرب والســـلام، أمي ترجمتْ روايةَ تولســـتوي الحرب والســـلام، لذلك كان أبي يقول لها دومًا: «يا عزيزتي! يا ســـيدةَ الحرب والسلام، الفقر لم يكن نديمي يومًا، كنّا أسرةٌ متوســـطةَ الحال، أهداني أبي دميةً ذات يوم، وقال أنه وجدَها بسيارته، لا يعرف لمن، يمكنني اللعب بها حتى يسأله عليها أحدهم، لاحظ أبي بعد فترة، أنني أقيم حوارًا بين العديد من الأشـــخاص وبأصواتٍ مختلفة ولنفس الدمية! أتذكر حـــين جلس على الأرض بجانبي وطلب مني عرضًا خاصًا، وبعدما مارستُ موهبتي، ضحك وندە على عزيزتنا، لتشاهد صغيرَهـــا، عرّفني على أراجوز الفرقة المسرحية، جميل اللبّاد، يحميه يســـوع، جميل كان مســـلمًا كما يقول كتابهم، جميل لم يبخل علي بنصيحةٍ، تمر الســـنون وأصير مساعدًا لجميل وأنا بالعشرين، جميل تزوج وهو شيخٌ، بالخمسين من عمره، تزوج من فتاةٍ تصغره بنصف عمره، حنان، التي كانت تحسده النساء عليهـــا قبل الرجال، أنجبا بعد عامين، محمود، آه يـــا محمود، كم كنتُ جميلًا كأبيك واســـمكما، العروض تتزايد على الفرقة المسرحية، نغيب كثيرًا، حتى

جاء ذلك اليوم المشئوم، أرسلني جميل إلى بيتِه لأحضر عرائسَ النوبة، فتحتْ لي حنـــان، كانتْ جمرةً من النار، قُلتُ لها على مطلبـــي، فأذنتْ لي بالدخول، وكان دخولي هنا، إلى بيتهم وإلى جســـدها، لم أعـــرف معنى الجنس إلا على خصر حنان، كل مرةٍ كانتْ تقســـم أنها الأخيرة، وأنا أوافقها، حتى جاءت المـــرة الأخيرة عنوةً! ذهبـــتُ إلى بيتِهم كي أتحدث مـــع جميل، على عروضٍ جديدة نقدمها، فتحتْ حنان الباب وقالتْ أنه نزل ليصلي العصر، لم أستطع رؤيتها دون التأكد من ملمـــس صدرِها وفخذيها وطعم ما بينهما، لم تمنعني، وبالطبع لم نشعر بالوقت إلا وباب الشقة يُفتح، الصدمة كانت عظيمة، كان جميل يقول دائمًا، أعوذ بالله مـــن قهر الرجال، لقد رأيتُ قهر الرجال بعينيه؛ زوجته عاريةٌ مع تلميذه وابن زميله، قبل أن يقول شيئًا واحدًا، سقط مغشيًا عليه ثم مات، مات وهو يراني فوق زوجته، مات مقهورًا مخونًا..

رفضـــتْ حنان البقـــاء بالمنزل، لا تقـــدر على النظر إلى جدرانِ شـــهدت خيانتهـــا، تركتُ كل شيءٍ وهربنا إلى هنا، بعدما نصحني صديقٌ، قُلتُ له أن عمي هاربٌ من الجيش، طوال وجودي معهم، لم أخلع الأراجوز من يدي، أُقدم العروض بالمنطقـــة وخارجها، الكل يعرف أنني العم عزيز الأراجوز، ولأن حنان محجبة، صرتُ مســـلمًا في عقلهم، ولم تتحمل بعدها حنان الفقر، هربتْ، تركتْ محمود، ابن الشهور، وضعتُه على باب ملجأ، كتبتُ اسمه على ورقةٍ، ونســـيتُه هناك، ولكن هل نســـى القدير؟ لا.. أتى محمود بعدما صار رجلًا، لا أعرف مصدرَ ماله، وتعجبتُ من مجيئه إلى هنا، وكأن الله أرسله مرةً أخرى، ليتبول علي، أو ليصفعني جراء ما فعلته، حينما جاء وقال للناس على الحانوت، والمعونة، ولأن الأعـــورَ في أرض العميان ملك، نصبّوه كبيرهم، كل يـــومٍ كان يضحك معي ويطلب منّى عرضًا خاص، مقابل ســـيجارةٍ أو

رغيــف خبزٍ، حتى اعتزلتُ عندما شــاخ العمر، ونســيتُ كيــف أميّز بين الأصوات، محمود، أنا آسف، وأعلم أنني سأموت أمامك ولن تهتم، وأعلم أنهم سيدثروني بخراءٍ وليس ترابًا، وأعلم أن العالمَ لن يهتم لأمري.

سأحكي موقفًا، لم أجد شخصًا مناســبًا ليفهمه، يومٌ من الأيام، التي فيها لا يقف ليشــاهدني أحدٌ، العرض كان خاصًــا للغاية، وجدتُ رجلًا وابنه، قُلتُ لهما سأبدأ، أشار لي الأب بالرفض، خرجتُ من خلف مسرحي الصغير مُستفسرًا، قال: «ابني أصم، لا يسمع، هو ينجذب فقط إلى الألوان والدمية والضحــكات». فكرتُ لثوانٍ، وكانت الفكرة، ســأبدأ العرض وســيقف الوالد بجانبي، يشرح له بالإشارة ما أفعله، هذا ما حدث، قُلتُ كل النكات والمواقف التي تعيد الســمع والبصر والأموات، الولد ضحك حد البكاء، الوالد بكى حد الضحك، الناس تجمعت حولنا، الضحك تســاوى، نظرتُ إلى السماء، فرأيتُ السحاب على شكل ميزانٍ، فهمتُ مقصدَ السماء، شكرني الرجل بعد الفقرات، ووقف الولد يتحسس الأراجوز، أعطيتُه إياه، وقُلت للرجل: «هذا العرض لن أنساه، قُل له هذه هدية العم عزيز، ورحلا، ورحل معهما حزنٌ ثقيل..».

مثلي الأعلى لم يكن مصريًا للأســف، كان تشارلي تشــابلن، هذا العبقري الذي لا عبقرية بعده، الــذي أضحك الناس ولم يتفوّه بكلمة! وأعرف أنك تنظــر حاليًا إلى جدران بيتي المتواضع، لتجد أبيات الچاهين تزينها، بخاصة تلك التي تتحدث عن المهرج والحصان والخوف الذي أصابهم بسببه..

أنــا مثقفٌ، أنا موهوب، أنــا مظلوم، أنا عزيز، أنا مُضحِك، أنا شــجاع، أنا عظيم، أنا رائع، أنا حثالة، أنــا وضيع، أنا حقير، أنا كاذب، أنا جبان، أنا

بائس، أنا قميء، أنـــا مُذنِب، أنا خراء، أنا هزيل، أنـــا خائن، أنا مزري، أنا مجنـــون، أنا وحيد، أنا وحيد جدًا، أنا وحيد وحـــدةً لا تطاق، أنا مكروه، أنا ملعون، أنا عزيز الذي أهان تاريخ أبويه، أنا عزيز الذي عاش محرومًا من كل شيءٍ، أنا عزيز الذي قتل مُعلمَه بسبب شهوته، أنا عزيز الذي لا عزة له..

أيها القارئ، ادع لي، صل لي، إذا كنتَ مسلمًا أو مسيحيًا، لعل دعوةً تُجاب، أيها المسكين الحقير عزيز؛ مِت بكل خطاياك وموهبتِك وفقرِك، لورد مرقس؛ سامحني، ســـيدةُ الحرب والسلام؛ ســـامحيني، جميل اللبّاد؛ سامحني أرجوك، أبانا الذي في الســـماوات؛ ســـامحني، أراجوزي الحبيب؛ سنلتقي بالملكوت وسأعرض فقرتي بالأعلى، أدرك أنهم يضحكون من النعيم، لكنّ نكتةَ عزيز ستضحكهم أكثر وتُضحِك الله..».

طويتُ رسالتَه، أخذتُ لاصقًا وسطلَ اللون الأحمر، خرجتُ تجاه حانوت الشيخ، صباحٌ باكرٌ جدًا، ثبّتُ الرسالةَ على باب الحانوت، ثم وضعتُ يدي باللون الأحمر وكتبتُ على الباب: «أنا عزيز الذي أعطاك فرصةً..».

ورحلـــتُ عنهم وأنا أعـــرف مصيرَهم كلهم، ولن أنقذهـــم، على الأقل حققتُ نصف أمنيته؛ قرأ رسالتَه ظلٌ، وللأسف يا عزيز.. لم يتعاطف!

من لم يفقهوا

القدّيس

هدوء المقر، المكان بلا بشر، ذهبتُ إلى غرفِ الظلال، حررتُهم، قُلتُ لهم: «مكانكم هنا، لا خوف، لا اختباء". جلستُ وكلهم قيام، ينظرون إلي بلا عيون، يراقبونني منتظرين أي أمرٍ، دوركم بالنهاية، تذكرتُ رقمَ المهووس مكاري، بحثتُ في الشقة عن هاتفٍ، وجدتُ هاتف العجوز، حسبما راقبتُهم أثناء مكالماتهم؛ أستطيع استخدام هذا الجهاز الغريب.. عظيم جدًا.. لا أستطيع، لا أفهم شيئًا!

حاسوب مجيد، موقع التواصل الاجتماعي قد يفيد، تعلمتُ من ثورة ورحمة كيف أستخدمه وكيف أبحث عن أي شيءٍ، هل هذا حساب ثورة الشخصي؟ الصندوق الخاص بالرسائل الواردة على وشك الانفجار، والكثير من المنشورات التي تؤكد تحسن صحتها! كيف؟ لقد سقط العامود الخرساني عليها! لم تمُت الثورة بعد..

في خانة البحث، كتبتُ مكاري فلوباتير، أحفظ شكلَه، ظهرت مقاطع، بعد ساعةٍ كاملة، أدهشني كم الناس الذين يسمعونه، لا يعترف بالإسلام، الوطن وطنهم، تابعتُ مكاري ونشاطاته، وراقبتُ التعليقات كلها، حتى عثرتُ على تعليقٍ لأحدهم، يخبر صديقه علانيةً، أن مكاري موجود غدًا بالكنيسة التي أمام منزله، انهالت التساؤلات عن مكانه، فعرفوا وعرفتُ، القناة المسيحية استضافت مكاري فوق الثلاثين مرة! الكل ينادونه بالقديس

فلوباتير، أثناء تصفحي، أرسلتْ فتاةٌ إلى ثورة مقطعًا، وكتبتْ بعدها: «شاهديه يا ثورتنا». المقطع حديث، مكاري يتحدث:

«صباح الخير أو مساؤه، القدّيس فلوباتير يحدّثكم، اليوم هو الأربعاء، يوم المسلمين، والحقيقة أنا أريد الذهاب إلى جدتي، لأنها تحتضر، لذلك أنا أسجّل هذا المقطع لأعلنها صريحةً واضحةً، سأغادر منزلي الآن، متوجهًا إلى منزل جدتي، لا الأماكن المخصصة لنا في غير أيامنا، بملابسي، بصليبي الذي أرتديه، والضخم الذي أحمله، لن توقفني جماعةٌ «التفخيد» ولا الحكومة «المحايكة»، وأنصاري معي، ولن نتهاون مع أي شخصٍ سيعترض طريقنا، القانون للضعفاء، وأنا لستُ ضعيفًا ولا جبانًا، والسلام على أتباع المسيح فقط».

مقطع تحفيزي استفزازي من الدرجة الأولى، يصطاد مكاري سمكةً من فم التمساح، الحكومة المحايدة لن تسكت، وجماعة التوحيد أيضًا، الجماعات صارت مصدرَ قلقٍ واضح، مع أنني لا أرى جدوى لوجودهم، الناس منقسمون أصلًا، ولكنّ التابعين لمن يحركهم كثر، وقد قال مكاري في إحدى المقاطع، أن جماعتَه غرضها «توحيد» صفوف المسيحيين، وأن المسلمين راحلون، آجلًا أم عاجلًا، والحكومة المحايدة لا تهمه إطلاقًا.

منشورٌ آخر، يطلب من أصدقاء ثورة، ضرورة زيارتها لتتحسن حالتها، من المنشورات عهدتُ أين تتلقي العلاج، مستشفى العذراء المجّاني، الحكومة المحايدة أرسلتْ ضحايا الحادث هناك، وهنا بدأت التساؤلات: «كيف ذهبت ثورة؟». الحقيقة يا ثورة، قريبًا جدًا، سأقرأ منشورًا -وأنا واثق- يسب المشفى لأنهم طردوكِ، طوال تلك الفترة، والناس فقط تطمئن

على حالتها، واليوم فقط، حين سمعوا أنها في طريقها للتحسن، تعجبوا كيف حضرت حفل الزواج!

هكذا هم البشر؛ حفنةٌ من الأنذال، تشـــعر كأنهم كلابٌ، يهزون ذيولهم، حتى يرون عَظمْـــةً، يركضون نحوها ويهزون ذيولهم أكثر، يســـيل لعابهم، وعندما ينتهي دورها، يبولون عليها، بفكرهم الوقح، شـــكوكهم التي تشبه مؤخراتهم، أنا أكرههم حقًا.

فليرمها بحجرٍ

ثورة هامدة وثورة مستمرة، هذه ترقد أمامي وتلك بداخلي، المشفى كئيب، الصمتُ أكسجين المكان، ثورة نائمة، غرفتها ضيقة، مظلمة، سريرٌ واحد، مقعد وحيد، المحلول مثبّت على الحائط، خِوانٌ سوداء؛ لا شيء عليها إطلاقًا! تلفازٌ معلّق بزاويةٍ ومُغلق! الحوائط بيضاء تميل إلى الاصفرار، صليبٌ فوق ثورة وإنجيل على يمينها، الممرضات تدخلن متأففات، واحدة فقط قالتْ: «يسوع المجيد، هذه جميلةٌ جدًا، فهل تنقذها لأجلي؟». قرأتُ عنكن يا ملائكة الرحمة، تأكدتْ من حركة نقاط المحلول، نظرتْ إلى الباب، وفي حركةٍ سريعة؛ قبّلتها! مسحتْ على شعر ثورة، ثم على رقبتها، مرورًا على صدرها، همستْ: «خيرك يا يسوع هنا وافر!». ضحكتْ وهي تخرج ثدي ثورة اليمين، وتهزه بين يديها، علّقتْ: «الرجال لا يستحقون هذا الملبن!». راقبتْ الباب مرةً أخرى، وفي حركةٍ أسرع من الأولى؛ كانت تأكل الملبن! توقفتْ بعد فترةٍ، حين تأوهتْ ثورة، «كم أود لو سمعتها وأنتِ تعلمين وتتجاوبين معي! عامةً ما بين فخذيكِ سأتذوقه عندما تسنح لي فرصة». كتبتْ شيئًا ما بدفترٍ تمسكه، ضربتها برفقٍ على ثديها الأيسر، ورحلتْ وهي تضحك بخبثٍ، ملاكُ رحمةٍ لا تعرف الرحمة!

التلفاز الآن يعمل، بدون تدخل، من الواضح أن هناك جهاز تحكم واحد، للمشفى كله، عادتْ السحاقية من جديد، جلستْ على المقعد، تتحدث في هاتفها: «أود لو أيقظها لأقول لها أشتهيكِ يا خمر السماء! آه يا ماري؛ منذ

جاءت تلك الفاتنة؛ وأنا رجعتُ ثانية إلى ما كنتُ عليه، لا أستطيع، البنت حقًا خُلقت من السحاب لا الطين، ماري، اسكتي! لا أريد سماع هذا الهراء مجددًا! أنا سحاقية وسأظل سحاقية وسأموت في حضن امرأة تغار منها الملائكة».

أنهت المكالمة، ثم نظرتْ إلى الباب وهي تضرب خديها، تتأكد إذا كان سمعها أحد أم لا! قامت إليه، راقبتْ الممر، ثم أغلقت الباب بهدوء، سحبتْ الغطاء الخفيف من فوق ثورة، ثم رفَعَتْ فستانَها القصير، شهقتْ وقالتْ: «أنظف ما رأتْ عيني! سأنهل من خمركِ يا حلوة سواء سمعوني أم لا!». الوضع أصبح قذرًا للغاية، قبل أن تلمس جنتّها، سحبتُها من شعرها، كادتْ أن تصرخ، قُلتُ لها بصوتٍ غليظ: «لا تصرخي يا قحبة! يسوع يقول لكِ ليس اليوم!». صفعتُها، ركضتْ دون النظر إلي الفاعل، عاد كل شيءٍ كما كان، ثورة نائمة، والتلفاز يعرض القناة المسيحية، ثم هذا الخبر الهام..

«مقتل أفرادٍ من جماعة الملكوت وجماعة التوحيد، والعديد من الجرحى، إثر مصادمات بينهم وبين الحكومة المحايدة، التي وقفتْ لجماعة التوحيد لخروجها عن القانون، وقد أكد شاهد عيان، هروب قائد جماعة التوحيد، ونقل مكاري فلوباتير إلى المشفى العام، لخطورة إصابته، نتمنى من الله سرعة الشفاء، ونشكر الحكومة المُحايدة، على الالتزام في التعامل مع كل خارجٍ عن القانون.. أم عن الوضع الاقتصادي..».

البارحة كان قديسهم واليوم يشكرون من أذاه! دخلتْ الممرضة ومعها ثلاثة رجال من الأمن، تتكلم بسرعة، فيلتقطون بضع كلماتٍ، تقول: «كنتُ.. كنتُ أنظف الغرفة.. ثم.. ثم.. وجدتُ من يشدني من شعري ويسبني..

ركضتُ لأنني كنتُ بمفردي.. لقد صفعني وقال لي.. قال لي سـأقتلُكِ إذا جئتِ هنا.. هل.. هل.. هل الغرفة مسكونة؟». سحاقية وكاذبة، رجال الأمن أخبروها بضرورة الراحة، وأنه لا وجود للجن إطلاقًا، سأل أحدهم عن البنت، هل زارها أحدٌ وما اسمها، الممرضة تنفي، رجلٌ عجوز طرق الباب، طلب من الممرضة أن تسنده إلى المقعد، هرعتْ إليه وقبّلت يديه: «تفضل هنا، إنه أبونا زكريا، يتحدث مع المرضى ويباركهم، لقد أتيتَ في وقتِك، الغرفة مسكونة أنا واثقة!».

يرنّم من الإنجيل، لم يعر ما قالته الممرضة انتباهًا، وكأنه يعرف عنها خباياها، أمسك بيد ثورة اليمنى، وقبل أن يكمّل، دقق النظر، الصليب غير كامل! مسح عليه لعل جلدَها تقشر، انتفض مكانه، قال للممرضة: «الصليب ممسوح! من هذه؟ تكلمي حالًا». ضربتْ صدرَها، تدخل رجال الأمن، صفع أحدهم ثورة، ففتحتْ عينيها ببطءٍ ذليل.

ينظرون إليها والشر معهم، الممرضة تُقسم لهم، المشفى لم يجد لديها أي أوراقٍ، أسئلةٌ تسقط على ثورة كجثامين حربٍ، طَلَبَ رجلُ الدين وجودَ ضابطٍ من الحكومة المحايدة وفورًا، رجلا الأمن هرعا إلى الخارج، الممرضة تسألها عن اسمها، ثورة لا تجيب، رجل الدين يسألها عن دينها، ثورة لا تجيب، رجل الأمن يسألها عن عنوانها، ثورة تقول الوطن، رجل الدين يسبها لأنها كاذبة، الممرضة تسبها لأنها كاذبة، رجل الأمن يسبها لأنها وطنية، كتب رجل الدين في دفتره «تُغادر المشفى حالًا». الممرضة سحبتْها من السرير كي تنهض، رجل الأمن عرض خدماته؛ فرفع ثورة عن السرير وكأنها حيوانٌ نافق، رجل الدين يتكلم كثيرًا ويسب أكثر، دخل رجل الحكومة وسألهم عما

يحدث، شرحوا له، أخرج جهازه اللاسلكي، تحدث إلى زميله، وضعها رجل الأمن على السرير، ثورة تجتهد لتُخرِج كلماتٍ، تبكي بسبب تصرفهم معها، البنتُ تشير إليهم، وهم لا يتجاوبون، تفقد الوعي وتسترده، رجل الدين قال: «هذه مسلمة ونحن لا نطبب المسلمين بمشفانا». رجل الأمن أضاف: «مسلمة وترسم صليبًا! أيتها الكاذبة الوسخة». الممرضة أقسمتْ: «رأيتُها تلمس أجزاءً حساسة في جسدها، وتنادي على بنتٍ، يبدو أنها سحاقية!». رجل الدين لعنها، رجل الأمن بصق عليها، رجل الحكومة تأملها بشهوة، دلف إلى الغرفة مجموعة من رجال الحكومة، يتقدمهم مدير المشفى، حين سمع القصةَ كلها، والكذب والتلفيقات، قرارُه بطردها كان فوريًا.

حملوها وركضوا بها وألقوها على باب المشفى، وقف حارسٌ واحد فقط، يقول للناس لا تساعدوها؛ مسلمة وتكذب، جرى عليها شابٌ، وقال للحارس أنا مسلم وسأعتني بها، الحارس أشهر سلاحه وحذره من لمسها حتى، الأوامر لديه أن تبقى هكذا حتى الليل، العبِرة لا مناص منها، الشاب يصرخ بصوتٍ عال، خرج إليه رجل الحكومة وطلب منه الرحيل، وإذا رفض فالسجن يُرحّب به، رحل الشاب وهو يحث الناس على ضرورة التصرف، الكل يقول الجملة ذاتها بأشكالٍ مختلفة: «كاذبة وخرجت في غير يومها؛ ما ذنبنا؟ هي الجانية».

كل من اقترب منها، وعلم بقصتها، بصق عليها ومشى، سبّها وتركها، أرى دموعَها، تعجز عن الوقوف، تبكي وتقول يا رب، وجهها تلطخ بالتراب، دموعٌ وبصاق وتراب، دموعها رسمتْ خطًا طويلًا من البكاء والألم والإهانة على الرصيف، لمحتُ الشاب، ظل بمكانه حتى أتى الليل،

أحـــضر معه ملابس جديـــدة و زجاجاتِ ماء وعصائـــر وفطيرتين، جلس بجانبها وغسل لها وجهها، ثورة تنظر إليه بعينِ مكسورة وهو ينظر إليها بعين الرحمة، ســـقاها الماء، ثم العصير، وقفتْ بصعوبـــة، اتكأتْ عليه، تحركا تجاه سيارةِ صغيرة، ركبتُ معهما، ســـألها إلى أين فوصفت له عنوان المقر، طوال الطريق وهو يحاول التحدث معها ولكنها صامتة، تبكي حينًا وتسكت حينًا، أدار لها المذياع، ابتســـمت عندما ســـمعتْ كلماتِ الأغنية وكأنها علامة: «لا تبك فأحـــزان الصغر، تمضي كالحلم مع الفجر، وقريبًا تكبر يا ولدي، وتريد الدمـــعَ فلا يجري». كل ما قالتْه: «أنا أحب الشـــيخ إمـــام؛ فهو ثورةٌ عليهم جميعًا».

قالتها ونامتْ.

وصلنا؛ الشـــاب يتصرف بنبلٍ، حـــارس العقار فزع ريثما رآها، ســـاعده وحملها معه، حاول فتح الباب ولكنني أغلقته من الداخل، تخطيتُ الباب من الأسفل، وحركتُ المزلاج الأرضي الذي يمســـك الأبواب كعادة البنايات القديمة، حاول حارس العقار ففتح هذه المرة، أمرتُ الظلال في الثواني التي سبقت دخولهم بالاختباء فرفضوا.

فتحا الباب ووجدا ظلالًا تتحلق ظلًا، ســـقطت ثورة من يديهما، حارس العقار والشاب ثابتان، أهذا هو الخوف؟

أنبياء

جلســوا أمامي، ثورة ما بين الوعي واللا وعي، حارس العقار يستعيذ، الشاب يســتعيذ ويبســمل، الظلال تتحرك خلفي، لا أعرف ماذا دهاهم، طبيعي أن أرى الخوفَ في أعين البشر، قُلتُ لهما: «اسمعاني جيدًا، هذه ليست هلاوس، وأنا موجود، الأول من بني جنسي، الظلال، نبيهم، اســمي نبي، أنت أيها الشاب، ســترحل، ولن تتكلم عنّي، وأنت أيها البوّاب، ستنزل إلى أولادك وزوجتــك، إذا علمَ الناس، لن تجد الشرطة قاتلكما». البوّاب بُهتَ، الشاب مشدوه، ثورة صامتة، الظلال تتحرك بجنون حولي، نهض الواجفُ ورحل، حــارس العقار أمّن على كلامي وركض، أغلقا الباب، ثورة نامتْ، وقفتُ آمرًا الظلال بالهدوء، هل تتمرد الظلال علي؟ «لا». ســمعتُها من ظلِ أمامي.

تقدّم الظل، تفوه بما لم أكن أتوقعه، اســمه نبي، نبي الظلال بموطنه، ظنّ نفســه الوحيد مثلي، حتى عرفَ أن الله أرســل لكل بلدٍ ظلًا، الخطة واحدة بالعالم كله، الفوضى، كل قومٍ ســتغرقهم فوضاهم، ولقــد جاء إلى بلدي، ليبلغني بأمرٍ ثم يرحــل، الله هو من يحركنا، الخطة بداخلنا لأنه هو صانعها، وعندما ســألتُه كيف أيقن بوجود الظلال في كل دولةٍ، أخبرني برؤيا، تتمثل له يوميًا، غابةٌ قاحلة، الشــجر فيها يبكي، الحيــاة فيها موتٌ، كلنا نقف، لا نتحرك، ثم يظهر ظلٌ، يقطع شــجرةً، تســقط ويعتليها، يتحدث إلينا، يحثنا على ضرورة محو البشر:

«حتى الآن والوحي لم ينقطع عنّي، لا تتعجب، أنا لستُ أفضل منكم، أنا فقط حين صرتُ حرًا، وقفتُ بمكاني، لا أتحرك، أنتظر من يحركني، لم أحرك ساكنًا لمدة عام، الوحي أنقذني وأرشدني، ولقد جئتُ إلى هنا، لأقول لك، أن قومَك سيصيبهم مرضٌ، وهي لعنة الله الثانية عليهم».

سكت قليلًا، يتذكر ما اللعنة التي ستصيب قومي، هكذا قال، أخرجَ لوحًا، وقرأ منه، ظلّ وذاكرته ضعيفة! أفصحَ أخيرًا عن المرض، الضحك، سيضحك قومي طوال الوقت، للدرجة التي سيضربهم الجنون بسببه، رجالٌ ونساءٌ، الطفل لن يضحك حتى يبلغ، والعجوز سيضحك كثيرًا يوم موته، سيضحكون لسبع سنواتٍ متتالية، قد يتزايد العدد أو يستمر إلى الأبد، سيضحكون في كل مناسبةٍ، ولن يتوقفوا أبدًا، هذا ما بلغني إياه، ولمّا وجدني متعجبًا من هذا المرض الغريب، ناشدني بحمد الله، هناك قوم أصابتهم التتانة، وقومٌ ضربهم الله بتبدّل الحال؛ الغلبة للنساء والرجال هم من يحملون ويلدون الآن، والأغرب من هذا؛ قومٌ تهاجمهم نوبات، لن تهدأ إلا إذا أكلوا فضلاتِهم.

قبل رحيله، كتبَ على اللوح، بجانب اسمي وبلدي؛ «الآن يعرف». حفظ اللوحَ بداخله، تقريبًا ابتسم، قال أن الظلالَ لم تتمرد علي، هو من أعطاهم حرية التحرك، هم مثلنا، نحن أنعم الله علينا بمميزاتٍ عنهم، ومع ذلك، لا تفعل بهم ما فعله الإنسان بنا، دُهشتُ إثر معرفتي بوجود ذكرياتٍ لهذه الظلال، وقد أعيشها معهم من جديد إذا أردتُ، ثم تأتأ وهو يقول: «والحقيـ.. الحقيقة يا نبـ.. يا نبي.. أنـ.. أنك.. أنت.. من كـ.. كان يخـ.. يخط.. يخطب بنا في رؤياي».

ودّعني بعدما لم يجد أي رد فعلٍ منّى تجاه كلامه ورؤيته..

سمعتُ ثورة، الواقفة عند النافذة، تقول كلامًا لا أفهمه، تحركتُ ناحيتها، البنت ترتعش وملامح وجهها غير ثابتة، تنازع الوهن لتقول شيئًا، ابتسامةٌ خفيفة، ثم تسعل بعدها، أشارتْ إلى الشارع بالأسفل، لم أُدرك ما تطلبه، قالت لي بصوتٍ مبحوح: «ارم جسدي، لن يصيبني داء الضحك يا نبي، لن أموت وأنا أضحك يا نبي!». البنت كتب الله لها النجاة من الموت، لتروح إليه بنفسها، تنتحب، تطلبها مني مرارًا وتكرارًا، تركتُها تفعل ما تشاء، لماذا يا ربي، وضعتَ بداخلي، هاجسَ التفرّد، وهناك من هم مثلي، أنبياء ظلٍ، في كل بلدٍ.

رجعتُ إلي الظلال المتراقصة، هدأت من تلقاء نفسها، شعرتُ بظلٍ صغير يقف بجانبي، يشير بأصبعه إلى ظل كلبٍ، رفعتُ يدي، ظل الطفل متعلق به، يهز قدميه فرحًا، ماذا فعلتَ يا نبي بظلالي؟

صرخةٌ وطرقُ بابٍ وسباب، فتحتُه، حارسُ العقار يقول: «ثورة قفزت من النافذة، ماذا فعلتَ بها؟!». ثم ضحك بشدة وهو يسألني، يضحك وينظر من النافذة، يضحك ويشير إليها: «انظر! هاهاهاها! لقد ماتت! هاهاهاها! ماذا حدث!». سألتُه من يقصد بقوله ماذا حدث؛ هي أم هو؟ يضحك بشدة، يقع على الأرض ضحكًا، «سأهاتف الإسعاف.. هاهاهاها.. ل.. ل.. هاهاهاها.. لتحمل الجثة.. هاهاهاها مسكينة يا ثورة.. هاهاهاهاهاها».

نسيتُ أن أسأل النبي الذي غادر متى سيضرب المرض قومي؟! والآن -حقًا وصدقًا- عرفت.

الطاعون

الشارع، الليل، جيفتها الجميلة، تجمهرُ الناس، حارس العقار يضحك، زوجته تضحك، أطفالهما يطلبان منهما التوقف، رجلا الإسعاف وضعاها بالعربة، شرطيٌ مسلم وآخر من الحكومة المحايدة، البوّاب يضحك، الجمهور أيضًا، رجلا الإسعاف، الشرطيان، هل هي العدوى؟ أتى رجلٌ فقير، يبيع الأقلام، لا يعرف شيئًا سوى قوته، سألهم جنيهًا؛ فأعطوه ضحكًا، ليضحك هو الآخر، رجلا الإسعاف ركبا، قالا للسائق أن يتحرك ضاحكين، السائق ضحك بعدها بثوانٍ، اختفت السيارة، الناس رحلوا ضاحكين، حارس العقار جلس على الأرض ضاحكًا، زوجته اصطحبت صغارهما ضاحكةً، لماذا الضحك يا ربي؟

الضحك داعب الليلَ، هدوءٌ صار مزعجًا، أسمع الضحكاتِ بوضوح، أسمع نزاعاتٍ يقودها الضحك، صعدتُ إلى المقر، الظلال على الأرض، ثابتة، أحضرتُ الحاسوب، موقع التواصل الاجتماعي القذر، يتحدثون فقط عن الفن والأفلام، لا وجود للمرض، أرسل شخصٌ يُدعى «محمد» إلى ثورة رسالةً، أنه الشاب الذي طردتُه، كيف حصل على حسابها؟ يقول لها ألا تقلق، سيعاود زيارتها الثلاثاء، اليوم السبت فلن يقدر، والوقح أنهى رسالته بأنه يراها أجمل فتاةً، حتى ولو كانت مُصابة بالدرن، محمد؛ هل أقمتَ علاقةً من قبل؟ يا ليتَك تعرفتَ على مجيد، كان سيفيدك كثيرًا، يكتب مجددًا، يحذّرها منّي! الثلاثاء موعدنا يا لزج!

قرأتُ طوال الليل، عن چيڤارا وكاسترو، عن خطّاب، عن جاي فوكس، كلهم عرفوا معنى كلمة «ثورة»، كانتْ المرة الأولى التي أقرأ فيها إلكترونيًا، عرّفني على تلك الطريقة؛ فتاة لدى ثورة، تقرأ دومًا هكذا.

رمى النهار نردَه، فغلب الليلَ، أقــرأ، لا تهمني أخبارهم، فليموتوا جميعًا بالضحــك إذا لزم الأمر، أفكّر جديًا في شراء تلفــاز، أو مذياع، صار الأمر سخيفًا، معرفة الأنباء من الأماكن المجاورة، لحظة! بغرفة العجوز، أذكر أنه يملك جهــازًا صغيرًا، إلى غرفتِه إذًا، الباب مفتــوح، كل شيءٍ بمكانه، أين وضعه؟ ها هو، مذياعٌ وحيدٌ على الأرض، أيعمل بالكهرباء أم بالبطاريات؟ أدرتُه فســمعتُ تشــويش موجاتِه، كيف أحصل على مرادي؟ رأيتُ رحمة تحرّك هذا المؤشر، فعلتُ مثلها، صوتٌ مشــوّش، صوتُ مشــوّش، «إذاعة الأغاني»، صوتٌ مشوّش، «قناة الأخبار المسلمة»، صوتٌ مشوّش، صوتٌ مشوّش، «الموســيقى الأوروبية»، صوتٌ مشــوّش، صوتٌ مشوّش، «قناة الأخبار المسيحية»، صوتٌ مشــوّش، «روائع المسرح»، المسرح! قرأتُ عن هذا الفن واحترمتُ كل تفصيلةٍ به، سيقدمون مقطعًا من مسرحيةٍ لم أنتبه إلى اسمها جيدًا..

«صَفُّونــا.. صفًّا.. صفًّــا.. الأجهرُ صوتًا والأطول وضعــوه في الصَّفِّ الأول، ذو الصوت الخافت والمتواني وضعــوه في الصف الثاني، أعطوا كُلاً منا دينــارًا من ذهبٍ قاني برَّاقًا لم تلمســه كفٌ من قبــل.. قالوا: صيحوا.. زنديقٌ كافر، صحنا: زنديقٌ.. كافــر.. قالوا: صيحوا، فليُقتل أنَا نحمل دمَه فى رقبتِنا.. فليُقتل أنَا نحمل دمَه في رقبتِنا، قالوا: امضوا.. فمضينا.. الأجهرُ صوتًا والأطول يمــضي في الصَّفِّ الأول، ذو الصــوت الخافت والمتوانى،

يمضي في الصَّفِّ الثاني».

صوتُ المؤدي رخيم، يقرأ كحزينٍ سـقيم، يشكو واقعًا، لا يحرك شفاهه بمجرد كلماتٍ، أنصتُ إليه مرةً أخرى..

«سـألتُ الشـيوخ، فقيل تقرب إلى الله، صل ليرفع عنك الضلال، صل لتسعد، وكنتُ نسـيتُ الصلاة، فصليت لله رب المنون، ورب الحياة ورب القدر، وكان هـواء المخافة يصفّر في عظمي ويئز كريح الفلا، وأنا سـاجد راكع أتعبد، فأدركت أني أعبد خوفي لا الله، كنت به مشركًا لا موحدًا، وكان إلهي خوفي، وصليتُ أطمع في جنته، ليختال في مقلتي خيال القصور ذوات القباب، وأسـمع وسوسـةَ الحلى، همسَ حرير الثياب، إني أبيع صلاتي لله، فلو أتقنتُ صنعةَ الصلواتِ لـزاد الثمن، وكنت به مشركًا لا موحدًا، وكان إلهي طمعي، وحيّر قلبي سـؤال؛ ترى قدّر الشرك للكائنات، وإلا.. فكيف أصلي له وحده، وأخلي فؤادي مما عداه، لكي أنزع الخوف عن خاطري، لكي اطمئن...

نشـكر حُسنَ اسـتماعكم.. قرأنا لكم «مأسـاة الحلّاج» للشاعر الراحل صلاح عبد الصبور.. كونوا بخير».

مناجـاةٌ من أعماق بـشري خائف، كم أتمنى، يـا الله، أن تصبح لدينا كل مواهبهم، نحن الظلال، ولكنّك فضلتَ الإنسان عن سائر المخلوقات، هذا الغبي المحظوظ، المغرور الذي لا يسـتحق، القبيح الوقح، راودتني أفكارٌ، تخيلـتُ، أنك خلقـتَ كل شيءٍ كما هو، ولم تخلق الإنسـان، غيّرتُ المحطة الإذاعية، الأخبار المسلمة، تنقل خبرَ معركةٍ بين التوحيد والملكوت، ومحطة الأخبار المسيحية، تنقل خبرَ معركة بين الملكوت والتوحيد، والسبب إصابة

القدّيس، الوضع يزداد سـوءًا، وكلتا المحطتـان، نقلتا خبرَ وصول العاهل السعودي، لبحث الأوضاع الأمنية في البلد بعد ثلاثة أيام.

فلنهبط إلى الشـارع، ونحصل على هذا الجهاز الغريـب، أريد أن أراهم وأسمعهم..

أمّا عن الزيارة؛ فستكون الأخيرة.

الناس في بلادي

وقفتُ مُراقبًا، محل الأجهزة الكهربائية، بعد البناية مسافةُ شارعين، بالداخل، البائع يشاهد فيلمًا إباحيًا، بالخارج، صاحبُ المحل يتحرش بعينيه، الأمر ليس سهلًا، إذا حصلتُ عليه، كيف سأشاهده؟ البشر معقدّون، واختراعاتهم كذلك، البائع قذف ملايين الأغبياء من ذَكَرِه، مسح يده في بنطاله، صاحب المحل دلف إلى ملكه، وصرخ بالبائع، حركة مهزوزة من شخصٍ، فقدَ السيطرة -مؤقتًا- على أعصابه، ناوله جهازَ التحكم عن بُعد، أرى قناة «المحايدة»، دخلتُ إلى المحل، مسحتُ على ظليهما، وشاهدتُ معهما، الذي يحدث، للناس في بلادي..

«نحن أبناء الوطن، تركتُ منزلي راضيًا، مشروعٌ سياحي بدلًا من منطقة عشوائية، هذا أنفع للوطن/ منزلي أم المشروع؟ المشروع طبعًا! دخلٌ للبلد، وهذا يعني زيادة في الأجور والمشروعات والخدمات، الحكومة عوّضتني/ أنا يا أستاذة أرى قرارَ الحكومةِ قرارًا صحيحًا، منطقة عشوائية لا فائدة منها، ستتحول إلى مشروع سياحي، أجانب وسيّاح، مبارك على الوطن وعلينا/ أنا وأطفالي وأمي وزوجتي وأبي وأختي، حصلنا على مبلغٍ سيكفينا لشراء منزلٍ وتحقيق حلم السفر، شُكرًا يا ربي/ أنا محمود الجميل، أملك حانوتًا هنا، كله فداء الحكومة ووطني، حتى وإن لم يعطني الرزاق شيئًا، المهم الحكومة ووطني ومشروعهما الذي سيحمل الخيرَ للجميع!».

البائع قال الدنيا حظوظ، صاحب المحل ضحك، سأله لِمَ الضحك؟ فأجابه: «هؤلاء من قبلوا مبلغًا إضافيًـا يا غبي، هل هؤلاء فقط هم أهل المنطقة؟». حك البائع رأسَـه، سـمعتُ صوتًا أعرفه جيدًا، إنه لقاءٌ في القناة المسيحية، مع القدّيس مكاري، من داخل المشفى، الكلمات تخرج منه بصعوبة، الملعون يتمسك بالحياة، ملخص خطبتِه القصيرة، إذا مات، سيكمّل جهاده ضدهم، من الملكـوت، الحكومة المحايـدة لا تهمه على الإطلاق، جماعـة التوحيد سيخفيها كساحرٍ، ثم رفع صليبه وقبّله.

دخل المحل رجـلٌ يضحك، يطلب من البائع هوائيًـا وبطاريات، البائع لا يتجاوب مع ضحكه، الرجل يزيـد الضحك، العدوى أصابت صاحب المحل، والبائع يتعجب ولا يعلّق، ثـم قام المالِك مرةً واحدة وصرخ: «لماذا لا تضحك معنا يا ابـن الكئيبة! هيهيهيهيهيهي». وقع على الأرض وبطنه المترهل يرتج، البائع لا يفهم شيئًا، ابتسم، وهو يغلّف البضاعة، جلس مكانه وبدأ في الضحك، يضحكون وكأن نكتـةً ولدتْ من رحم الحزن، تركتهم، رجعتُ إلى المقر، فتحتُ الحاسـوب، تذكرتُ ثورة لمّا رأيتُ صورتَها، كتبتُ على حسـابها: «لقد ماتت ثورة.. قتلها الضحـك وثائرٌ وظلٌ لا يهتم». يمر الوقت، آلاف التعليقات والمشـاركات، ما بين من لم يفهم ومن يسأل؛ هل حقًا ماتت أم هذا كلام أدبي؟ أين كانوا حين كانتْ بينهم؟

تعرفـتُ من خلال عالمهم، اسـم محرك بحثٍ شـهير، عليـه كل شيء، اسـتخدمتُه، كتبتُ «قاعة المؤتمرات الرئاسية»، حفظتُ العنوان، الزيارة لن تكون مثالية، ستنجح خطتي، أقصد خطته..

في بعض الأحايين، تتملكني رغبةٌ، أنني قد أنسـى كل هذا، وأحاول مع

البشر، أرى الأطفال والذين وهبوا أنفسهم، لخدمة البشرية، فأفكر كثيرًا كثيرًا، كيف يمكنهم الهرب، مما سولتْ لي نفسي، في القضاء عليهم، الوحي منذ البداية كان صريحًا؛ لا تعاطف، موقفي هذا ليس تعاطفًا، بل إنصافًا للحق، وذلك لأنني على حق، والحق أقول لنفسي سأستخدم الأطفال لغرضي غدًا، سيشهد العالم، فضيحةً لن تُنسى، وكارثةً سيتعاطف معها -مؤكد- الجميع؛ إلا أنا.

جحا

ذنبُكَ أنك طفلٌ، وذنبُهم أنهم بشرٌ، وذنبي أنني لا أملك قلبًا يا صغير، هذا ما قُلتُه، لابن البوّاب، وهو يحاول الصراخ، أو الفهم، لأنّ كيانًا بلا ملامح، يخطفه، كان يلعب بجانب والدته، وهي تمسح أدراج العمارة، وحين سمعتُ صوتَ حركاتها بالخارج، كرسّامٍ يعرف متى تلمس ريشته، سطحَ الورقة البيضاء، سحبتُه بهدوء، كممتُ فمَه، والمسكين ينظر متعجبًا، لماذا يخطفني السواد، أقول لك يا وليد الجهالة؛ لأنَّ السوادَ تمنى مكانةً أفضل، كتلك التي تنعم بها، لذلك توخ الحذر، واسكت، كي ترجع لهما سالمًا.

خمسة أطفالًا عددٌ مثالي، والأمر بيّن؛ سأضعهم أمام مقر المؤتمرات، مهددًا بقتلهم، إذا لم يسلّم العاهل نفسه، سأرتدي ملابس البشر، وسأظهر على قنواتِهم، ملثمٌ مجهول، الطفل يجلس والظلال تداعبه، ظلال الأطفال تحديدًا، أرى ظلًا يقرأ!

"نعم، أنا النبي ذاته، الوحي انقطع عنّي، أجهل طريقَ العودة!». لماذا يا ربّي هذا الظل! أخبرتُه بأنه في بلدتي، وإنني النبي هنا، لذا عليه تغيير اسمه، أو الرحيل إذا أراد، وافق على الفور، «اسمي مؤقتا هو خِضر»، كانتْ المرة الأولى التي أضحك فيها، نعم ضحكتُ للحد الذي جعلني أتوقف فجأة، خوفًا من العدوى، قُلتُ له بكل بجاحةٍ: «أنت تجهل! الخضر حسب قصته كان رجلًا عليمًا! لا تُفسد سيرةَ رجلٍ، الحكمة كانتْ رفيقته، أنت.. أنت

جحا! نعم، اسمُك جحا». سكتَ قليلًا، وأعجبه الاسم، وددتُ لو شكرتُ عم عزيز ولكنّه سيسألني، نبي وخائب، حكمتُك يا ربّي.

شرحتُ له خطتي، سيشترك معي، لن يفكّر ولن يرفض، الغريب حقًا بجحا، أنّه لا يزال متحركًا بطبيعته كظلٍ، ينتظر من يرشده، لن يضجر من أي أمرٍ، الطاعة عمياء، حتى لو هرهرتُ الترابَ عليه، لن يعترض، سينتظرني حتى أنظفه، ثم من الممكن أن يسألني، لِمَ فعلتُ ذلك؟ ولو كانت الإجابة، لأني أريد ذلك، سيقتنع بها، جعلني ما أراه من تصرفاتٍ، أستفسر منه: «قُل لي يا جحا؛ هل كل الظلال التي قابلتَها مثلك هكذا؟». الإجابة خرجتْ سريعةً مقتضبة: «نعم، كلهم، معلوماتنا محددة، تحركاتنا محدودة، لهذا السبب، أفصحتُ لك، عن رؤيتي، وأنّك من يخطب فينا، يا نبي، اسمعني، لقد فضلَكَ الله علينا، وأنا من طلبتُ من الوحي مقابلتك، أرشدني إلى بلدتك، كي أتعلم منك، وبعدها عرفتُ، أن الوحي هو من وضع بداخلي رغبتي هذه، لعل صحبتَكَ، تزيدني ثقةً بنفسي، وأستحق حقًا لقب نبي».

صديقٌ قصدَ صدقًا في حكيه، سأعتبره تلميذًا لا تابعًا، وإذا كان الوحي أرسله إلي، وفضّلني عنهم، سيكون جحا نبيًا بحق، وذلك لأنه جاء، إلى الذي دومًا على حق، «سنغادر إلى البناية المقابلة، سنخطف منها طفلًا آخر، هيّا، ليس أمامنا الكثير من الوقت». ركضنا سويًا، جحا شعر بأهمية دوره، تعجبني هذه الحماسة غير الموجّهة، نزلنا من العمارة، عربنا الطريق، البناية الكبيرة التي تحمل سلسلة المطاعم الشهيرة، دخلناها، المدخل الرخامي، والكلاسيكية المنتشرة في كل بنايات هذا الشارع، التصنتُ لم يدُم طويلًا، بالدور الثاني، عرفنا بوجود طفلٍ، من تحت الباب تخطيتُ، لم يلحق بي جحا،

كاد أن يطرق الباب، سحبتُه بسرعة، هذا الأهوج سيرهقني أنا واثق.

المســـاحة رحبة، البيت هادئ، الطفـــل ينظر إلى دميته، يقـــول كلامًا غير مفهوم، عفوًا، تقول، إنها طفلة، سمراءٌ، وقف جحا يراقبها، جلس بجانبها، يلعب معها، الطفلة لم تخَف، تحاول أن تلمسه، كلما فعلتُ، نفذت إلى داخله، وخرجتْ تضحك، «دعها تدخل ولا تخرجها يا جحا». لم يفهم، جحا حتى تلك اللحظة لا يدرك إننا نخطف طفلةً، يســـأل: «لماذا لا أخرجها قد تبكي بسبب الظلام الذي بداخلي يا نبي!». شرحتُ له سريعًا، غضب ولفظها إلى الخارج، وغادر الشقة، أخذتُها أنا، ورحلتُ خلفه.

«انتظر! ما بك يا جحا؟». تعمد الصمت، خطواتُه أسرع، ثم فجأة رأيتُه في السماء! هل نطير حقًا؟ رجعتُ إلى المقر، وجدتُه جالسًا بين الظلال، ويطعم ابن البواب، «من أين لك بهذا الطعام يا جحا؟». جحا أسطورة كانت تعشق الكلام، لم أُحســـن اختيار الاســـم، الوقت يمر، جحا يداعب الطفلين، ابن البواب والطفلة، حتـــى ظلال الأطفال، تجلس حولـــه وتداعبه، يسرد لهم حكاياتٍ، ظـــلال الحيوانات تجمعت حوله، ظلال البـــشر تراقب من بعيد معي، بعض منهم تحرك ناحيته، ليسمع..

«القط قال للفأر؛ تعال، سنلعب سويًا، الفأر كان جبانًا والقط يعلم، القط أخبره بأنه سيعطيه مهلةً كي يختبئ، بعدها سيبدأ في البحث عنه، الفأر ركض بعيدًا، القط لم يتحرك من مكانه، بدأ يُصفّر، ينشد ويُعظِّم في كل الفئران، بعد فترة، جاء إليه فأرٌ من كل صوب، تجمعوا حوله، يرقصون على أغانيه، سمع الفأر الذي يلعب مع القط، فهرول إليهم، لعب معهم، القط قال لهم جميعًا؛ من اليوم نحن أصدقاء، من ينشد المجيء إليه بمفرده، له ما يريد، من الأغاني

والأناشـــيد، والأمان قبل كل شيء، الفأر الـــذي يلعب مع القط منذ البداية همس له: شُكرًا لك. الفئران تجمعتْ كل يومٍ، تلعب وترقص، وتقدّم للقط ما لذ وطـــاب لديهم، جراء ما يفعله لهم، حتى ذهـــب إليه الفأر الذي لعب معه، وحيـــدًا، وقال له: سري ضئيلٌ مثلي، ولكنّ حمـــلًا ثقيلًا مثله، لابد أن يحمله أحدهم معي. القط طلب منه الإفصاح، الفأر يحب ســـمكةً، يراها من الحين للحين، والقط يعشـــق الاثنين، القط طلب منه بكل براءةٍ، أن يدله إلى طريقها، وسوف يحفر لها بمخالبه سبيلًا، من خلاله، يقترب الفأر منها أكثر، الفأر فرح، وقال له أمهلني يومًا، مشـــى الفـــأر إلى محبوبته، والقط يقتطف أثره، الفأر وصل إلى البحيرة، غنّى اســـمها، مريم الجميلة، السمكة خرجتْ إليـــه، حكا لها، قالتْ له: القلق يقتلني.. القطط تشـــتهينا! الفأر سرد لها كل مـــا فعل، يا فـــأر لا تغفل! القطط لا تحبنا، وأثنـــاء كلامهما، هجم القط على الســـمكة وأخرجها من البحيرة، الفأر فزع، وحاول أن يخلصها من مخالبه، القط قتل السمكة وقال للفأر؛ أذكر حين شكرتني.. والآن أقول لك.. عفوًا يا صديقي.. لا داعي للشكر».

ابن البواب نـــام، الطفلة تحبو بين الظلال وتضحـــك، بقية الظلال تنتظر حكاية أخـــرى، جحا لن يتبعني، مـــن الواضح رفضه التـــام لما أفعل، هذا غريـــب، الطاعة، ثـــم الرفض والتعنـــت، ليس أمامي الكثـــير من الوقت، ســـأكمل بمفردي، علـــم قراري، شرح لي لمـــاذا فعل ذلك، لقـــد كان ظلًا لطبيب أطفالٍ، يعشـــقهم منذ الصغر، كعادة مالكـــه، تربى معه على الحلم، كبر وتعلم وأحسن صنعته، حجا ظل طبيبٍ مرموق في دولة العراق، لذلك لـــن يواكبني في خطفهم، عرض علي الاعتناء بهـــم، ريثما أحضرهم إلى هنا، ولن يكمل المخطط إلى النهاية، ســـيتأكد من تجاوبهم وخضوعهم لأوامري،

بل سيحملهم بنفسه إلى مقر المؤتمر، ويؤمن حياتهم من أي خطرٍ، لا يهمه العاهل ولا الخطة بأكملها، والأكل الذي يطعمهما إياه، دومًا يحمله معه، لقد كانت عادةَ الطبيبِ، جحا ظلٌّ طيب، وهذا يزعجني.

يرى أن طفلين أمرٌ كاف، لا داع لخطف آخرين، وجودهما سيؤثر على السلطات..

«فليكن يا جحا، اليومان الباقيان، ستساعدني في بناء صليبٍ ضخم، ولكي تتأكد من احترامي لك ولكل ما أخبرتني إياه، اسمك من الآن؛ النبي الطبيب».

ابن الموت والفقر

النبي الطبيب يجالس الطفلين والظلال، نزلتُ إلى الشارع، كي أقطع شجرةً قريبة، أو أحصل على خشبٍ من حانوتِ نجّارٍ، الناس تركض وتضحك، العدوى تتفاقم، أرى شخصين، خبط أحدهما سيارةَ الآخر، يضحك الفاعل ويعتذر، يضحك المتضرر ويسأله لماذا نضحك، يجيبه الأول لا أعرف ويمشي، سيدةٌ عجوز تخرج من صيدليةٍ، تسب وتلعن الحكومة وتضحك، لا تجد الدواءَ وتضحك، ذهبتُ من جديد إلى محل الإلكترونيات، البائع والمالك كما هما، صاحب المحل يصفع البائع، يحدثه مرددًا: «انظر! الحكومة قتلته من أجل المشروع، وقف أمام الهادم العملاق، فقتله وقتل سيرتَه وأحلامه ورزقه، هيهيهيهيهي، رحم الله، ما اسمه؟ الهربان؟ رحمك الله يا هربان هيهيهيهيهيهيهي». البائع يشاركه الضحك، لا وجود لأية أخبارٍ عن تفشي الضحك، لم أميّز القناة، اللقاءات كلها سبابٌ وغضبٌ وبكاء.

البائع ضحك لمّا ظهرت أم القتيل، كانتْ تبيع الخبز، رفضتْ في البداية الحديث مع المذيع، وعندما أصر مناديًا: «يا أمي من فضلك!». تكلمتْ، تكلمتْ وكأن كلمةَ السر هي «يا أمي»، نفضت عن يديها التراب والحزن وفُتات الخبز، مسحتْ كل ما سبق، بجلبابها الأسود، وقامت تاركةً الخبز يبكي فوق القفص.

قالـــتْ: «ابني جوعان، وهذا الخبز محرّم علينا، لأنه مكســـبنا، الذي ندفع به إيصالات عتقنا، أنت لا تعلم شـــيئًا، من دهســـه الهادم هناك ليس ابني، الهادم محا كل ســـنواتٍ كنت أراه فيها وهو يكبر، وهو يحب فتاةً، وهو يسعى إلى الوظيفة، وهو يتحمل بصقاتِ العالم عليه، وهو يبكي لأن شرطيًا أهانه، وهو يسرقني، وأنا أعرف وأغفر، وهو يراقب بنتَ الجيران وهي نائمة، وأنا أعرف وأغفر، وهو يـــمارس العادة السرية، وأنا أنظف ملابسَـــه الداخلية، وحيوانات أحفادي المنوية، الذين ماتوا نتيجة شـــهوة، وأعرف وأغفر، وهو يشاهد الأفلام الإباحية، وأنا أعرف وأغفر، وهو يشرب الخمر وينكر، وأنا أعرف وأغفر، الهادم أمســـك ســـكينًا وذبحني، ثم طعنَ ولدًا صغيرًا، كان يخاف الظلام، طعنَ ولدًا ضحك مرةً، عندما عطفتْ عليه سيدةٌ بمبلغٍ زهيد، وقالت له أمك طيبة، وذهب ليمارس بالمال الرذيلة، وأنا أعرف وأغفر، أهل المنطقة معـــه في المشرحة، وأنا هنا، أبيع ما تبقى من الخبز، كي أذهب بعدها، لأدفنه معهم، حين يسمحون لجثته بالخروج، وفي النهاية، سأضع رأسي على وســـادتي المتحجرة، بدموعي وقهري، والعالم لن يهمه، إذا مات ابني ظلمًا، ومع ذلك، أنا أعـــرف وأغفر، فقط لابني، الذي تركني، أبيع الخبزَ وحدي، ولن يسرقني أبـــدًا، هنيئًا للحكومة وأهل منطقتي، بالمشروع الجديد، والجنّة لابني».

ضحكا ولم يعلقا على كلامها، مشيتُ في الطريق، أفكّر في كلام هذه النائحة المكلومة، التي عرفتْ كل شيءٍ عن ابنها، وغفرت، هل الغفران من صفات البشر يا الله؟

الصليـــب الضخم، الذي يشـــبه صليبَ القدّيس مكاري، ســـيحتاج إلى

خشبٍ غليظ، وحبلٍ ومسامير ليكتمل الشكل، أذكر جيدًا، حانوت النجار، بالمنطقة التي هدمتها الحكومة، سـأعود إليهم، بعد زوال بيوتهم، الأنقاض ستجود علي بخيراتٍ، شر ما أصابهم، هو خير ما سيحدث بعدها، ما تبقى لدي هو الغد، والليل الآن سيكون الدافع الأمثل، لرحيلهم عن المكان، ومجيء الذي على حق.

نبي رحيم

الليلُ ســترُ الضعفاءِ والطيبين، وهذه طفلةٌ ضعيفة وأنا طيب، نبي ذهب ليصنع صليبًا، ونبي تحرك لينقذ مسيحه، غياب نبي كان مقدّرًا، الطفلة ستعود لأهلها، وابن حارس العقار سيحرسه معه، أنا مع نبي في شتى سبل الأذى، إلا الأطفــال، الظلال تداعب الصغيرين، ناديتُ عــلى الولد، جاء راكضًا، يحبني وهذا أمرٌ عظيم، ليتك تفــرّق بين البشر يا نبي، فتحتُ الباب، وقُلتُ للولد: «إذا ســألك أبوك أين كنت؛ قُل له مــع طبيبٍ، وجدني تائهًا، وردني إليكم». الولد تشــبث بي، يرفض الخروج من البيــت، ضحكتُ وداعبتُه، أخرجتُ من صدري، مربعًا مُظلِم، وضعتُ بداخله شــمعةً، يعلوها مجسمٌ معدني لشكلها، حين تشعلها، ترى في حيز المربع، رسوماتٍ، الولد تعجب، طلبتُ منه الاحتفاظ بها، والذهاب إلى أبيه، وألا يخبره بما حدث هنا، إذا أراد المربعَ بحوزته للأبد، وافق وركض إلى منزلهم، بعد قليل، ســمعتُ صوتَ ضحكاتِهم وســبابَ أبيه، وقهقهةَ أمه، مع لعن الولــدَ، ودينَه واليومَ الذي جاء فيه إلي الدنيا، واربتُ البابَ، تحركتُ بهدوءٍ تجاه الطفلة، نامتْ والظلال تقف بجانبها، لا تفعل شيئًا، ينظرون إليّ وكأنهم يريدونها مستيقظةً، توقيتُ نومِها مثالي، يساعدني الله كي أعيدُها إلي منزلِها.

حملتُها بداخلي، أشــعر بالأمومة، روحٌ في باطــن روحٍ، تركل البنت حتى وهي نائمة، هوّني على نفســكِ يا حلوة، ســنذهب إلى أمــكِ، خرجتُ من النافذة، صعدتُ إلى ســطح البناية، تنقلتُ من شجرةٍ إلى شجرةٍ، لا أبحث

عن المتاعب، كشـــخصٍ يراني ويفضـــح أمري، وصلــتُ إلى البناية بالجهة المُقابلة، لماذا فعلتُ كل هذا؟ الليل توسّـــد عالمنا، الخـــوف يا نبي يا طبيب، كيف تخاف وأنت نبيٌّ؟!

إلى الشـــقة ذاتهـــا، طرقتُ الباب، تســـلقتُ إلى الســـقف، فتحـــتْ الأم، تضحك متعجبةً، دخلتُ قبل أن تغلقه، لم أتسلل من تحت الباب؛ كي تفهم بعدما تجد ابنتها، ســـألها زوجها من الطارق بهذه الســـاعة، ضحكتْ وهي تقول: «قحبـــةٌ لم تجد من يريحها، هاهاهاها، هـــل توصلتَ إلى أي شيءٍ؟ هاهاهاهاها، أين أنتِ يا حنين، هاهاهاها». تضحك ويضحك والبنت في ظلمتـــي، تجولتُ سريعًا بالمنزل، عثرتُ على غرفتِها، وضعتُها في سريرها، تعمدتُ نكزهـــا، البنت بكتْ، الأم والأب صرخـــا، هرعا إلى الغرفة، الأم تضحك ولا تصدقا والأب يضحك ويســـتعيذ: «بسم الله الرحمن الرحيم! هخخخخهخخخخخخخهههخخخخـــخ.. كيف يـــا حنين! هل كنتِ مختبئة؟ هههههههخخخخخخخخخههههههخخخخ». الأم تضحك وتبكـــي وتحتضن طفلتهـــا، الأب يقهقه، يهاتف صديقـــه بالشرطة ليكف البحث عنها.

لمحتْني وأنا على الســـقف، لوّحـــتْ لي، نظـــرا الأب والأم تجاهي، كنتُ تحركتُ خارج النافذة..

سأترك رســـالةً إلى نبي، أخبره بما حدث، وســـأرحل يا الله، لن أقدر على مواجهته، وبعدما قابلتُه، عرفتُ لماذا هو يا الله.

الذي حكا

قسطنطين كفافي، شاعرٌ يوناني عظيم، كتبَ قصيدةً يقول فيها:)بالنسبة للبعض، يجيء اليوم، الذي يكون عليهم فيه أن يعلنوا؛ «نعم» العظيمة أو «لا» العظيمة، والواضحُ من الوهلةِ الأولى، أنَّ من تكمن «نعم» جاهزةً بداخله، ويقولُها، فإنه يمضي على طريق الشرفِ، بيقين راسخ، أمّا من يرفض، فلا يعتريه الندم، وإذا ما أُعيدَ سؤالُه؛ فسيظلُ يقولُ «لا»، غير أنَّ هذه الـ «لا» -تلك الـ «لا» الصائبة- ستهزمُه طوال حياتِه كُلِّها).

والذي جعلني أذكر ما أبدَعَه، هي تلك الطلقة، التي ولجتْ إلى دماغ شابٍ، يدافع عن وطنِه، ويقول «لا» في وجه من قالوا «نعم»، تظاهرةٌ ضد الحكومة المُحايدة، من جماعة الوطن، اليوم هو السبت، اليوم الذي لا مغفرةً فيه لعاصٍ، نزلوا حاملين لافتاتٍ، مردّدين شعاراتٍ، رافعين المصاحف والأناجيل، قائلين «لا» العظيمة، رافضين تقسيم الوطن، آملين في مساندةٍ، خرجتْ الأهالي من الشرفات، النوافذ تُفتَح والبنادق تتحفز، تستعد قوات الحكومة المُحايدة فقط، حتى شرطتنا وقوات حكومتِنا بمنازلهم، قائدُهم يقول: «مات واحد منكم، ولن نتهاون معكم، ارحلوا إلى بيوتكم، أو إلى السماء إذا أردتم!».

مؤسس جماعةِ الوطن، خالد چيڤارا؛ وذلك بسبب التشابه الكبير بينهما، سيجاره الكوبي وملامحه وشعره ولحيته ونظرة الثقة بعينيه، وقف أمام جثة الشاب، رافعًا لافتة كبيرة تقول: «من مات فداء الوطن، عاش الوطن فداء

تضحيته!». تقدم المُسعِفُ المرافق لهم، سحب الجثة، التظاهرة تتقدم تجاه القوات بثباتٍ، القائد يتأهب والزعيم يحمِّس، الرصاص يصفِّق، آيات المصاحف تُعانق آيات الأناجيل، ثم توقف الزمن لبرهة، عندما سمع الطرفان، من يصرخ بالأعلى: «ارجعوا إلي منازلكم! الوطن لا يريدكم! الحكومة المُحايدة تحمينا وأنت تريدون الخراب يا أبناءَ الغانيات!».

القائد قال: «لقمِّوا بنادقَكم». چيڤارا هتفَ: «مِتْ واقفًا». القائد يتوعد: «سنقتل الأوساخ». چيفارا أكّدَ: «سننظف الوطن». القائد بعجرفةٍ: «الرصاص كثير ونحن أكثر». جيفارا بثقةٍ: «إيماننا كبير والله أكبر». القائد يأمر: «الآن». چيفارا يصرخ: «للأبد».

كل رصاصةٍ، ترى في نفسِها، المُخَلِّصَ المنتَظَر، كل رصاصةٍ، خرجت والنية واحدة، هذا الإنسان، لا يستحق الحياة، العجيب بالأمر، الرصاص ركض تجاه رفاق چيفارا، وتركه بالمنتصف، يقف وحيدًا، وكأن الرصاصَ يخبره: «ابق وحيدًا، دافع وحيدًا، حارب وحيدًا، وستموت وحيدًا». يتساقط رفاقه من حوله، كدموع أمٍ، تبكي ابنها الذي دهستْ قلبَه فتاةٌ، ينطقون الشهادة، يمجِّدون المسيح، هذا رصاصته أصابت عينه، هذه اخترقت كتفها، ذلك فجّرت عضوه، تلك ثقبتْ ثديها، چيفارا يقف ثابتًا، لا يتحرك، يرفع لافتته، الرصاص نقّبَها، اللافتة سقطت، كما سقط الحصان في ميدان الحرب، بمنجل خائنٍ، الناس في النوافذ يضحكون، يهللون، لأنك الحكومةَ المحايدة، قتلتْ من يريدون الخراب، أسمع آناتِ بنتٍ، كانتْ معهم في التظاهرة، تقول للمُسعِف: «إذا غادرت الروح، لا تخبر أمي، أمي تكره الحروب وتحب الحكومة، قُل لها ماتت وهي تعبر الطريق». أرى شابًا، جلس على جانب الطريق، ينظر إلى رفيقه الذي تفجّرت رأسه، يتكلم معه، يقول

له: «لمـاذا تركتني؟ لقد تعاهدنا على مواصلة الكفـاح من أجل..». لم تمهله الرصاصةُ، فرصـةَ اللوم على صديقه، جمعتهما مجـددًا، ليواصلا، ما تعاهدا عليه، مهما كان؛ في السماء.

القائـد قال لچيفارا: «يا هذا، أنت الآن وحيـد، كل رفاقِك على الأرض ينزفون، دماؤهم النتنة سـتملأ المنطقة، لا عليك، سـننظف كل شيءٍ بعدما نقتلك».

القائـد والقوّات، يوجهـون بنادقهم، تجاه چيفارا، القائـد قال له: «لك كلمةٌ أخيرة، هات مـا عندك يا جيفة». ضحك الجنـود على نكتة قائدهم، الناس في النوافذ يضحكون، بعضهم أغلق النافذة، والبعض الأخر يسـب ويلعـن، تكلم چيڤارا، تكلـم وألقى خطبةً: «يا ناس، نحـن أبناء الوطن، نحـن من نريد لكم الحرية لا هم، انظروا! من الذي مات في سـبيلكم، لقد نزلنـا ووقفنا أمامهم، بالمصحـف والإنجيل، ولم نطلـق رصاصةً واحدة، قتـلى ومصابون، من أجلكم، هذا الوطن لا يحتـاج إلى حكومة محايدة، هذا الوطن يحتاج من يحبه، من يعشق أرضه، هذا الوطن يا ناس، لابد أن نحكمه نحـن، لماذا ترضون بالبقاء بمنازلكم كما زرائـب الحيوانات، تخرجون منها بمواقيتِ محددة، أين حريتكم، يا ناس، أنا لا أريد الخراب، أنا أريد لم شـمل الوطن مجددًا، لم يكن وطننا هكذا مـن قبل، لقد مر عليه الكثيرون، وكلهم رحلوا وبقى هو، يا ناس، اسـمعوني جيدًا، أنا لا أكرهكم، جماعتي تكونت من المسلمين والمسـيحيين، وإذا أراد الملحد الانضمام لن أمانع، نعم، تخطينا قانونهم وذلك لأنه فاسد، وكل فاسدٍ سيجر فاسدًا، أنا..».

قاطعه رجـلٌ من النافـذة: «اخرس يـا ملعـون! هاهاهاهاها.. من الحيوانات! هل سمعتموه؟ لقد شتمنا!»، وأضافتْ امرأة: «هيهيهيهيهي..

الملحد! هل تريد من قوم مثلنا أن تسمعك وأنت تضم الملحدين؟ من ينامون مع أمهاتهم؟». تعالت الصيحات بالاستنفار، القائد يراقبه شامتًا بنظراته، كلهم يسبونه ويطلبون من القائد قتله، وتخليص الوطن ممن على شاكلته، سكت چيڤارا وصرخ بالقائد: «الأجيال القادمة، ستوقفكم، سيأتي من بعدنا، من هم أعظم وأشجع، اقتلني يا ديوث، وأنتم أيها الشعب، عليكم من الله ما تستحقونه، حاربتُ من أجلكم، وأنتم تطالبونهم بقتلي، هيّا، اقتلني يا جبان، لا ترتعد هكذا، ستقتل رجلًا فقط، هذا كل ما في الأمر».

ضحكات الشعب، ضحكات البنادق، ضحكات القائد، ضحكات الجنود، كل ضحكةٍ قتلت چيڤارا، سقط على الأرض وهو يرى رفاقهَ، وطنه على شكل فتاةٍ، يغتصبها عجوزٍ، يلحس فرجها، ويقول لها طعمه لذيذ مثلكِ يا حلوة، والناس كلهم ينتظرونه حتى يفرغ منها، ضاحكين، سقط چيڤارا، والرصاص يعبث بجسده، يدخل ويخرج، أعلى وأسفل، خالد يا چيفارا، خالد يا چيفارا، قتلوه، ركبوا مركباتهم، رحلوا، ضحك الشعب، أغلق نوافذه، الرفاق في الطريق، سيارات الإسعاف لا تحمل الجثامين! جملةٌ واحدة تفترش الأرض مع دمائهم: «غدًا ننقل المسيحيين إلى المشفى، ونأتي يوم الثلاثاء لننقل المسلمين».

أنا راوٍ عليم، مر من هنا، رأى الحكومة المحايدة، تقتل الوطن، وأبناء الوطن يضحكون، وظننتُ أن وجودي في هذه اللحظة، لأن من يكره البشر، لن ينقل المشهد مثلما فعلتُ، ومن يخاف أيضًا لن ينقله مثلما فعلتُ، أنا الذي سمع وحكا، ربما تسمعني، إذا أراد من يسمع ويرى دومًا، أن يجعلني راويًا مرةً أخرى..

مَخون

رجعتُ إلى المقر برفقة مـا يلزمني، الظلال واقفـة لا تتحرك، لا أرى الطفلين! تفحصتُ الغرف، هل ذهب بهما النبي الطبيب للفسحة؟ وضعتُ يدي بداخل كياني الأسـود، أخرجتُ الخشـبَ والمسامير، أشعر بالخفة مرةً أخرى، حين حملتُ المال لم أكن ثقيلًا هكذا، مهمتي كانت سـهلة، والحطام كان وفيرًا، هُدِمَتْ المنازل، إلا بيت عـم عزيز؛ لأنه الأعلى في تلك المنطقة، مهندس الحكومة قـال: «اتركوه! قد نسـتخدمه كغرفـةٍ لرجال الأمن"، وكأن بيتَك يا عم عزيز، يقف ضاحكًا أمامهم، يخرج لهم لسـانه، ويصرخ: «لن تهدموني يا أوسـاخ». حصلتُ على ما يصنع الصليب، وجئتُ إلى هنا، والحقيقة أنـا قَلِقٌ للغاية، هـذا النبي الطبيب، عندما أجده، لن أسـمح له بالغياب من جديد.

عدّلتُ خطتي؛ سـأصنع صليبـين صغيرين، وسـأربط الطفلين عليهما، الصليب الضخم لـن ينفذ من البـاب، وإذا طرتُ به سـيراه الناس، ولو وضعتُه بداخلي؛ سـيتحتم عـليّ أن أزيد من حجمي، فـيراني الناس أيضًا، لكنّ الصغيرين والطفلين، سأضعهم بداخلي، ولن يتسبب وجودهم في أي معوقات، سأقف أمام مركز المؤتمرات، مهددًا بدق المسامير في جسديهما، إن لم يخرج العاهل العربي، الخطة بسـيطة جدًا، أنا أقدر على تنفيذ الأسهل، مثل الدخول إلى القاعة وقتل كل فردٍ، هذه ليسـت نيتي، لابد أن يعلمَ الجميع، بوصول الفوضى إلى أعلى مراحلها، قتل العاهل العربي سيضع وطننا العزيز في مـأزق، وهذا ما أبحث عنه، بجانب بحثي عـن الطفلين والنبي الطبيب الآن، أين هم؟!

سألتُ الظلال، بالطبع لن يجيبني ظلٌ، سمعتُ صوتًا خارج الباب، زوجةُ البوّاب تضحك وتسب ابنَها، خان العهد النبي الطبيب، فعلها ورحل، المسكين ظنّ أن بفعلته سيمنعني، لا يعلم كم عددَ الخططِ التي تراقص أفكاري، غدًا سأذهب إلى مركز المؤتمرات، حاليًا يجب علي قراءة كتابٍ، ستهدأ ثورتي قليلًا، ويصفو ذهني، من الكتب التي عثرت عليها، بمكتبة العم عزيز؛ متوالية قصصية «بشرٌ نسيهم الله»، لشخص يُدعى ألبير قُصيري، أعجبني الاسم، فتحتُ الكتابَ، وجدتُ ورقةً بداخله، قرأتُ ما بها..

«جدتي قالتْ إن أبي كان يحمل السماء، حتى لا تقع علينا، ويرفع الشمس صباحًا وينزلها ليلًا، أصدقاؤه العصافير أحبّوه، والخبزُ كان يرفض يدَ الخبّاز أن تمسَه، قبل ضحكة أبي، فيضحك الخبز ويفيض خيرًا، جدتي قالتْ إن أبي أوقف حربًا بين بلدتين، عندما أراهما قميصَه، المُزيّن بدعوات أمّه ولعبي وعصا أبيه، جدتي قالتْ إن أبي لم تكرمه الدولة، حين مات، ولم يهمها ذلك؛ لقدر زار بيتَنا الغابات والطيور والقمصان والخبز وبنادق الحرب والشمس والقمر، بينما السماء بكتْ من فوق؛ لأنها لم تقدر على النزول إلينا».

وذُيلتْ بهذه الجملة: «من التلميذ إلى أستاذه؛ لم تقرأ رسألتي أنا واثق». الذي كتب هذه القصة أو السطور لا يهمني إطلاقًا، ما يهمني؛ من الراسل ومن المُرسل إليه؟ هل كتبتُها يا عزيز إلى أستاذك؟ أم كتبها تلميذٌ يحب الأدب إلى هذا الألبير قص.. ألبير ماذا؟ ألبير قُصيري، نعم، لنرى ماذا كتبتَ..

الصفحة الأولى.. وعنوان القصة الأولى.. «ساعي البريد ينتقم».. عظيم!

نبيٌّ مجهول

أجهل السبب، لقد جعلتَه مميزًا، تفرّد هذا النبي عن الجميع، لا أسمعك، نعم، يمتلك شيئًا مختلفًا، لا أسمعك، ماذا؟ كان أبوه نبيًا! نحن الظلال، هل أرسل الله منا نبيًا من قبل؟ بالطبع سأصدقُك؛ أنت صوت الوحي، ولن تكذب. سأعرف سرَك يا نبي، وسيسامحني على فعلتي أنا واثقاً حكا الوحي قصةً، هذه تفاصيلُها:

(القصة كما نُقِلَتْ، في معجزة محمد، وبالتحديد سورة غافر، وردت هذه الآية: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ». ومن هؤلاء الرسل، كان «مَدْيَن»، أُرسِلَ إلى قومٍ يعبدون الظل، والسبب هو تمثالٌ، صنعه نحّاتٌ، تمثالٌ مهيب، الذي ميّزه على مر العصور، هو حجارته السوداء القاحلة، للحد الذي يجبرك على التطلع إلى السواد، فتغيب عن دنياك، دهاء النحّات، إنه كان يريد صنع معجزةً، تتمثل في خطٍ طويل، ترسمه الشمس حين تشرق على جسده، فيمر بالطريق المستوية في منتصف القرية، التي يسكنها هؤلاء الناس، لاحظ أهل القرية، مدى دقة سريان الخط، حتى إنهم شعروا وكأنه يفصل قريتَهم شقّين، خرج النحّات ريثما تأكد من إعجاب الناس به، ورسم باللون الأسود، شكلَ مسار الظلِ على الأرض، فخيَّل لهم، إن ظلَ التمثال لن يغيب، صباحًا ومساءً، ومن بعده، مشى مجذوب القرية، مردّدًا: «لقد شفاني! مررتُ به فأعاد إلي سمعي! أنا أسمعكم! أنا أسمعكم!».

سجدوا له متقرّبين، يسألونه الشفاءَ وقضاءَ حوائجهم، وكان إبليس بالطبع حاضرًا، إبليس الذي لم تذكره التوراة نهائيًا، ولا يعترف اليهود بكيانه واسمه، يوسوس لهم جميعًا، حتى أرسل إله إبليس والبشر والظل، مَدْيَن، النبي الظل، وقف أمام التمثال، وبدأ يتكلم، يدعو الناس للرجوع إلى إله يعقوب وموسى، فقد بُعِثَ بعدهم بفترةٍ من الزمن، اقترب منه الكل، خافوا منه، قال شيخ القرية: «هذا من الجان!». ولمّا قرؤوا من التوراة آياتٍ، لم يحترق، وقال رجلُ الدين: «احمنا من الشرير ومن كل شرير». كل يوم، يدعوهم مَدْيَن إلى العدول عن كفرهم، وهم لا يفقهون، حتى سمع الناس عن مكافأةٍ، لمن يقتل مَدْيَن، مُدّعي النبوة، وكاره الإله، فأوحي إليه، أن يخرج للناس، فيركضون خلفه، إلى أعلى قمة التمثال، وقف مَدْيَن ينظر إليهم، صرخ بهم النجّار: «بالمطارق سندق أوتادًا في التمثال ونتسلق عليهم!». مطارقٌ متلهفة، التمثال يتشقق والحجارة تصرخ، الناس نسوا، سقط التمثال ومَدْيَن ظل في مكانه، لم يتحرك، حملته ملائكة، قال لقومه وهو بالأعلى: «اليوم أتممتُ رسالتي، الإله لا يُهدَم، الظل تابعٌ لكم، أحسنوا استخدامه، وإياكم إياكم والتأليه!». طارت به الملائكة إلى كهفٍ بعيد، وهناك قُبضت روحه، سألهم: «هل سيتلو أحدٌ قصتي على الناس؟». ليجيبه الوحي: «الله وحده أعلم». علم مَدْيَن قبل موته، أن الظلالَ لهم أسلافٌ، ذكرياتٌ وتناسخُ أرواحٍ، مثلهم مثل البشر، لذلك قال قبل أن تغادر الروح كيانه: «لقد بُعِثتُ إليهم، لأردهم عن فعلتهم، ورأيتُ فيما يرى النائم، إن ظلًا يقترب منّي، ويقول لي: «أنا ابنك، أنا الذي سأكون على حق! ويطلب منّي كتابة بيان!»، فقُل لي؛ من هذا الذي على حق؟». ليجيبه صوتُ الوحي مجددًا: «الله وحده أعلم». فخرجتْ خطبتُه الأخيرة: «لعل حكايتَه يحكيها الناس، أنا نبيٌ سيدهس سيرتَه النسيان، اذكروني أنتم، بين السماء». ومات مَدْيَن ودُفِنَتْ سيرتُه).

نحــن الظلال، لنا أســلافٌ وذكريات! القصةُ أجابتني على كل ســؤالٍ، أدركتُ الآن لماذا يكرههم!

ولكن؛ هل يكره نبي البشرَ أم دفنَ سيرةِ جدِه وهو لا يعلم؟

اعذرني يا الله عن جرمي وعن ســؤالي الســاذج الذي يــدور بخلدِ عبدٍ ضعيف؛ هل أرسلتَنا حقًا كعقابٍ للبشر أم.. أم؟ لا أقدر على نطقها..

اسأل عزيزًا

الرئيس ونائبه، وزير الحكومة المحايدة والعاهل، الحضور والحرس، أنا الذي على حق، المؤتمر مُذاع، الكاميرات في كل مكانٍ، قاعة المؤتمرات، دائرية الشـــكل، دوائر عدة، تتداخل، أكبر تحاوط أصغـــر وهكذا، حتى تصل إلى الدائرة المركزيـــة الأصغر، والتي يجلس بها الرئيس ونائبه والوزير والعاهل، بدأ وزير الحكومة المحايدة الكلام: «نرحب بك، ســـيادة العاهل، في وطنِكم الثاني، ونشـــكركم على الجهود العظيمة، لتهدئة الأوضاع بالشرق الأوسط أولًا، والاســـتثمار والإعمار ثانيًا، لن أطيل على ســـيادتكم، والكلمة لرئيس الدولة..».

تصفيق صفيق! كلماتٌ لا تستحق إرهاق مخارجها، ماذا قال ليثير إعجابهم هكذا؟ الرئيس يبتسم، تأكد من هدوء القاعة، وشرع يلقي خطبتَه: «دولتُنا، مهما حدث بها، ســـتظل مرحبةً بكل ضيوفِها، ونحـــن..». قاطعه العاهل: «نحن أصحاب بلدٍ ولســـنا ضيوفًا، أعـــزَّك الله، الوقت يمضي وأريد التأكد من كل الأمور قبل إقلاع الطائرة، لذا دعني أسأل أنا، أجبني يا أدون، إلى أي مدى تفاقم الأمر بين سكّان بلدنا الحبيب؟».

أســـمع همهماتٍ بين الحضور، رجلٌ يقـــول لزوجته: «هل قاطع ســـيادة الرئيس حقًـــا؟». وزير الحكومـــة المحايدة يشرح، بالمســـتندات والأرقام، الصور والمقاطع المُســـجّلة، كيف تم التعامل مع الخارجـــين عن قوانينهم،

السفلة يتحدثون وكأن البلدَ لهم، لا يهمني من مات ومن قُتِلَ، ولكنَّ غاشمًا كهذا موجودٌ هنا، بسبب تقاعس هؤلاء البشر، أصحاب البلد، عن ركله خارجها، تحدثوا كثيرًا عن المدعو خالد چيفارا، من خالد چيڤارا؟ آخر ما يشغلني الحقيقة، ثم التطرق إلى المشروع السياحي، بمنطقة العم عزيز، البشري الوحيد الذي أحترمه، الذي سيضحك أهل الملكوت والله، كما كتب في رسالته الأخيرة، الوزير يحذّر من أي تجاوزٍ، لن يتهاون في قتل أو سجن كل المشاغبين، الرئيس يهز رأسه موافقًا، نائبه كذلك، العاهل بالمثل، الحضور يصدّق على الكلام، وتتعدد الموضوعات، الوزير يتحدث، العاهل يسمع ويرد ويتحدث، الرئيس يوافِق ولا يتحدث، النائب يوافق فقط.

"عذرًا سيادة العاهل، أريد فقط إيضاح نقطةٍ في غاية الأهمية، بخصوص المشاغب خالد چيفارا، كما ترى في الصور، لقد وقفت قوتنا، تطلب منهم الرحيل في هدوء، رفعوا الأسلحة في وجوههم، لعنوهم وأصابوا جنودًا، مما دعا قائد القوة، للتصرف وقتله، دفاعًا عن الوطن وبقية جنوده، وضَّحتُ تلك النقطة، بعدما شاهدتُ على بعض المواقع الإخبارية، وصفحات التواصل الاجتماعي، من يدين ما فعلوه، ونحن لم نفعل إلا ما أعلناه للناس، وسنظل على موقفنا؛ كل من يريد الخراب؛ فنحن له!».

اللحظة المناسبة دومًا، كما أراها، هي أن تقتل صخبَ اللحظةِ، بصخبٍ أعلى، وهذا ما تم، ظهرتُ فجأةً خلف العاهل، ذبحتُه بسكينٍ، ذات السكيّن التي تحمل دمَ ليل، وألقيتُ الصليبين الصغيرين عليه، صرختُ وأنا أركض: «يسوع هذا عدلك، عدلُك يا يسوع». الصراخ، الدهشة، خط دماء العاهل، الرئيس ينظر إليه ونائبه يتحدث في الهاتف باكيًا، الكاميرات لم توقف البث،

كانت المرة الأولى، التي أرتدي فيها ملابس البشر، التي أخفيتُها بداخلي قبل الولوج إلى القاعة، ملثّم الوجه، أشـــعر بكل طلقةٍ تثقب ملابسي، ســـمعتُ الحراس وهم يقولـــون: «احموا الرئيس، أغلقوا الأبواب، لن يهرب!». وزير الحكومـــة أخرج بندقيتـــه وركض هو الأخر خلفـــي، يصرخون متعجبين: «كيف لم يمت؟! اجعلوا رصاصَكم تجاه رأسه». كانتْ آخر كلمات العاهل: «لماذا يا ربي أموت كما الماعز هكذا؟!». اسأل العم عزيز حين تقابله بالأعلى..

يا قليلَ الإيمان، لماذا شككتَ؟

كلّهم بطرس

العجيـــبُ في حكايتي، كيف صرتُ أكتب، قبض القلمُ على ســوادي، القراءة والكتابة تلازماني، تارةً أكتب موقفًا، وتارةً أخرى شــعرًا، تضربني قصةٌ قصــيرة فأدوّنها، ضحكتُ عندما كتبتُ هــذه الكلماتِ: «كاتبٌ يبكي بشرًا، يحب بنتًا تضحك شمسًــا، يكتب روايةً عــن كاتبٍ مفلس، يحب بنتًا ماتت حزنًا، لأنها عشــقتْ كاتبًا فقيرًا، كتبَ روايــةً على صفحاتِ الكتب البيضاء، يفضح حاكمًا يُعدم الكتّاب، بسبب كرهه للثقافة والأدب، فتنتحر البنــتُ بالقراءة! ظلتْ تقرأ بلا نومٍ، لم تتوقــف، ولم يتوقف الكاتب المُفلِس عن حبها، ولم يتوقــف الكاتب الباكي عن الكتابــة، ولم تتوقف البنتُ عن الضحك، ولم يتوقف الكاتب عن البُكاء».

البُكاء من صفــات البشر، قــرأتُ في كثيرٍ من الروايــات والكتب، عن الراحة التي يســببها، غادرتُ المقر، الليل يعجبني حقًــا، أرى المدينةَ وهي تتزين بالهدوء. ســكّان الليل؛ هذا ما أطلقته على كل شخصٍ، ألمح ظلَه ليلًا، مسحتُ عليهم كثيرًا كثيرًا، ولم يهتم الناس، البشر بغيضون، يركضون خلف مصالحهم لاهثين، في بعض الأحيان، يتشــكلون أمامي ككلابٍ، مشــيتُ وصورة ثــورة تظهر وتختفي، حتى وقفتُ عند بائــع الكتب، الذي يفترش الرصيف، ســمعتُ صوتَ رجلٍ، وجدتُه يمســك يدَ بنتٍ صغيرة، يربتَ عليهــا ويتحدث، البنت تتطلع إليه كأنه المُخلّص، الذي ســيطهّر البشرَ من ذنوبهم، هل أعرف هذه البنت؟ أعني هل تقابلنا من قبل؟

قال لها وهو يخرج كتابًا: «كلنا بطرس يا حلوتي، اسمعي جيدًا ما تعلمناه من أبينا.. وَبَعْدَمَا صَرَفَ الْجُمُوعَ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ مُنْفَرِداً لِيُصَلِّيَ، وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ كَانَ هُنَاكَ وَحْدَهُ، وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ قَدْ صَارَتْ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ مُعَذَّبَةً مِنَ الأَمْوَاجِ، لأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مُضَادَّةً، وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ، فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلاَمِيذُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ خَيَالٌ». وَمِنَ الْخَوْفِ صَرَخُوا! فَلِلْوَقْتِ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ، لاَ تَخَافُوا». فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ». فَقَالَ «تَعَال» .فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ، وَلكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ، وَإِذِ ابْتَدَأَ يَغْرَقُ صَرَخَ: «يَا رَبُّ نَجِّنِي». فَفِي الْحَالِ مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟». وَلَمَّا دَخَلاَ السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ. كما ترين يا جميلتي، كلنا بطرس، الرب يرعانا ونحن ضعفاءٌ، كل ما نملكه الإيمان، لنتحرك يا مَرْيَم، لن نقضي الليل هنا، الأجواء غير آمنة، تعالي يا صغيرتي».

رصاصةٌ واحدة، نفذت من جبينه، جثا على ركبتيه، نظر إلى مريم، ابتسم كملاك الموت، ثم نام إلى الأبد، ركضتْ مريم، ركضتُ خلفها، صرختْ حين لمحتني، نعم، هي الصغيرة التي قابلتُها مسبقًا، قالتْ وهي تركض منّى ومن الرصاص: «أنت مجددًا!». قُلتُ وأنا أركض بجانبها: «أنا الذي على حق، تعالي معي هذه المرة». وقعت الصغيرة على الأرض، بعدما عرقلها جنديٌ، راقبتُ الموقف، البنتُ تبكي من جرح، إثر السقوط، بقدمها اليسرى، تحدث الجندي بصوتٍ غليظ: «ماذا تفعلين هنا يا صغيرة؟». لم يعطها الفرصة لتخبره، اقترب منها، لطمها فجأةً، ثم صوّب بندقيته تجاهها، وضحك ساخرًا: «ألا تعلمين يا حلوة، أن القوّاتِ العربية، منعت التواجد

بالشوارع بعد التاسعة؟ وأي مخالفٍ؛ سيتم قتله فورًا».

حاولتْ البنت أن تقول شيئًا، لم تمهلها الرصاصة ولا القدر، قتلَها الجندي، منذ مقتل العاهل العربي، والدول العربية أرسلت قواتٍ للبحث عن قاتل رجلِهم، ركل الجندي وجهها، وقبل أن يرحل، سحبتُ سكيني، قيدتُه والنصل على رقبتِه، سألتُه: «يا قليلَ الرحمة، لماذا قتلتَ؟».

التاسعة مساءً

مكبرات الصوت، تعلو معظم البنايات، والمدرعات المتجولة ليلًا، تذكّر الناس، بحظر التواجد بالشوارع، بعد التاسعة مساءً، تصبح المدينة ملكًا، للقوات العربية، التي تتسلم المهمة من قوات الحكومة المحايدة، وشرطة حكومتِنا، حسب الأيام المتفق عليها، وذلك بسبب مقتل العاهل، الذي كان على يدي، عام مر على رحيله، العالم العربي بأجمعه لم يصدّق، المقاطع المصورة ي كل مكانٍ، أشخاصٌ يفسرون ما حدث، ظهرتُ بالقنوات كلها، ملثمٌ ذبح العاهل، ظهر من العدم، وهرب إلى العدم، دولة العاهل العربي، أرسلت تحذيرًا، إذا لما تقبض قواتنا على الفاعل، ستتدخل، نجح وزير الحكومة المحايدة، بعد شهرين بالتمام والكمال، في رسم الخطة بين الدولتين، والسماح لقواتٍ منهم، للبحث عن القاتل، بعد التاسعة مساءً.

أذكر جيدًا، كيف خرج المواطنون، بالورد والحلويات، مستقبلين سجّانهم الوافد، دبابات وعربات مصفّحة، قائدهم، ضخم الجسد، أقرع وأملس، ملامحه لم تبين بعد من تحت النظّارة السوداء، جلس فوق دبابة، رافعًا سلاحه، يضرب الرصاص في الهواء، يهز رأسه، كأنه يقول لهم: «نعم! أنا هنا كي أجد ابنَ القحبة القاتل! أين هو يا أبناء الكلاب؟». وصل بقافلته إلى مركز المؤتمرات، وأصرّ على إقامة مؤتمرٍ، خارج المبنى، يتحدث إلى قنوات الإعلام، قال بعدما رفع نظارته السوداء، ووضع سلاحه جانبًا:

«السلام عليكم يا أهلنا، حيّاكم الله جميعًا، ما عدا الذي قتل ابننا، أنا

الفريق محمد العوازلي، ضابـــط مقاتل، جئتُ لنصرة الحق، والقبض على من قتل بدون حق، سنبحث في الشـــوارع، سندخل بيوتكم بعد إذنكم، المحال والعيادات والحوانيت، كل مكانٍ، لن نكل ولن نمل، سنســـتخدم أساليبنا، ســـيخرج من تلقاء نفســـه، أنا واثق، نرجو منكم حســـن التعاون، وكل ما نطلبه، إذا رآه أحدكم، أن يبلغنا، على الأرقام التي ستذيعها قنوات إعلامكم الموقرة، ومن فضلكم، بعدما رجعنا إلى الســـادة المنـــوط بهم، التعامل معنا، سيبدأ حظر التجول، من التاسعة مساءً، اليوم، هذا قرارٌ، عواقبه لن تعجبكم إذا خرجتم عنه، الحزم ســـيكون سيد الموقف، لن نتساهل نهائيًا، وأنا أعنيها حقًا، لم تتحدد المهلة، التي ســـنتوقف بعدها عن البحث، إذا فشـــلنا، وكلمة الفشل لم تُدرج بقاموسي بعد، شُكرًا لكم على الترحيب، الساعة الآن الثانية ظهرًا، ســـتنتشر قواتنا، ولن يتعرض أحدٌ لكم، بعد التاســـعة، الشوارع لنا، السلام عليكم يا أهلنا، أعزكم الله، ما عدا الذي قتل ابننا».

أسئلة الصحفيين، لم يهتم لأمرهم، ملامحه باردة، من خلال خبرتي بالبشر، هذا الرجل ينبض حجرٌ داخله، رحل في ســـيارةٍ ســـوداء، تعمد سائقها أن يخلف ترابًا بعجلاتها، ليهاب الناس القائد الجديد.

شـــهدتُ على انتهاكات، من خلال قـــراءاتي، تعرفتُ على الاختراع الذي يبهرهم، الهاتف المحمول، سرقتُه من محلٍ شهير، بحثتُ عن طريقة التشغيل، اســـتخدمتُه في تســـجيل كل أفعالهم، حتى مقتل الصغيرة مريم، ســـجلتُه، عاجلًا أم آجلًا، ســـيراهم شخصٌ، يهمه أمر شعبِه، وسيستخدمهم ضدهم، رجعتُ إلى المقـــر، فتحتُ دفترًا، كتبتُ عليه من الخـــارج «كنود»، أدوّن فيه يوميًا، كل كتاباتي، المواقف والخواطر والنصوص والشـــعر، قبل أن أشـــعر بظلامٍ يحاوطني، يشل حركتي، ويتحدث إلي.

خمرٌ فقد الذاكرة

لا أشعر بأطرافي، لا أذكر اسمي، لا أود تلك الحياة، لا أسمعهم جيدًا، لا أعرف أين نحـــن، لا أميزهم بوضوح، لا يتحمل حجرٌ كل هذا، لا أدري لِمَ يضحكون، لا أفهم ما سر البياض، لا أضحك مثلهم، لا يلتفتَ إليّ أحدٌ، لا يحبني العالم، لا أرى فائدةً لهم، لا يُجيبُني شخصٌ، لا أنطق حروفًا صحيحة، لا يخرج مني صوتٌ، لا ســيجارة تســند عجزي، لا خمــر يضرب عقلي، لا حشــيش يعيد نفسي، لا سلام مع الذات، لا ذات تحادثني، لا شهوة تثيرني، لا أمل في خروجٍ، لا رحمة للضائعين، لا مساحة للبكاء، لا أدرك من «ثورة»، لا يعجبني من الأساس -إذا كان اسمي- اسم ثورة.

الممرضــاتُ يدعينني «ثورة"، كل نهــارٍ، لفترةٍ لا أحصيها، أتلو نشــيدَ «لا»، نعــم؛ هكذا أطلقتُ على مرثية حالي، نشــيد «لا"، مللتُ من قصتي، الانتحار، عندما أتيتُ إلى هنا، بجســدي المهشم تمامًا، تعجب الجميع، لماذا ترفض روحي المغادرة؟ الطبيب قال ضاحكًا: «حالةٌ نادرة!». كرهتُ المرآة، تعكس صورةً قبيحة، هل كنتُ قبيحةً دومًا؟ حلقوا شــعرَ رأسي، الممرضة كانتْ تخيّط جرحًا، ســمعتُها تتحدث إلى زميلتِها: «هذه الحلوة صارتْ جثةً متحركــة». هل من الممكــن أن أصير حلوةً مرة أخرى؟ مصمصة الشــفاه تشعرني بالعجز والذل، لم يسرد لي شخصٌ حكايتي كاملة.

هذه غير الحلــوة الآن، ترى خيالًا واقفًا أمامهــا، يتحدث إليها، لم تلتقط

حبلَ كلمةٍ واحدة، يهز رأســه يمينًا ويسارًا، الممرضات تتأملني، بعد قليل، وجدتُ رجلين، يســاعداني على النهوض، أقول لهم: «لـــ.. ا..». لم يفهما، أحاول الصراخ، لمــاذا يعاملونني هكذا؟ الممرضة تربتّ على كتفي، أحدهما يحملني، الثاني مشــى خلفنا، توقفنا أمام رجلٍ آخر، مــن هيئته، عرفتُ أنه شخصٌ مهم، شفتاه تتحرك، أركّز تمامًا معه، يجب أن أعرف ما الذي يدور، فشلتُ، غضب وكأنه يلعن غبائي، كتب ورقةً، أعطاها لمن لا يسندني، وأشار لهم بكل عجرفةٍ، فتحركنا.

يضحكون، كلهم، الأطباء، الممرضات، رجال الأمن، المصابون، المرضى، منذ جئتُ إليهم، وهم يضحكون، كانت النســبة قليلــةً، زادت مع الأيام، وصلنا إلى مدخل المستشــفى، تركاني على المدخل، وقبــل رحيلهما، ناولني الرجــل الورقة، عــادا إلى الداخل، فتحتُ الورقة، الحــروف تتداخل، هل تنقذني الســماء، أنا حقًا منهكة، تأملتُ الورقةَ ثانيةً، لا فائدة، الشــارع من اللحظة ملاذي، الليل يسير معي، وجهتي مجهولة، شخصيتي مجهولة، يتردد هذا الاســم بداخلي كثيرًا؛ «نبي»، لاحظتُ سيارةً تواكب خطواتي، تقودها سيدةٌ، تلوك علكةً، فُتِحَ الباب الخلفي، سحبني شابٌ.

طوال الطريق، الشــاب يمسك شعري، الســيدة تضحك، الشاب يعبث بصدري، السيدة تدندن مع المذياع، الشــاب يعبث بفخذيّ، السيدة تشعل ســيجارةً، الشــاب يقبّل رقبتي، الســيدة تسعل، الشــاب يعرّى صدري، السيدة تتعرى، الشــاب يرضع منّي، السيدة تطالبه بالقيادة، الشاب يتحرك إلى مكانها، الســيدة تجلس بجانبي، الشاب يقود، السيدة تتحسس جسدي، الشاب يسبّ القيادة، السيدة تسبّ الزمن، الشاب يلتفت كل دقيقةٍ، السيدة

تقبّلني، الشـــاب يضحك، الســـيدة تحرك رأسي تجاه مكان عفتها، الشـــاب يداعب مؤخرتي، السيدة تتأوه، الشاب ترك المقود، السيدة تحتضني، الشاب أولج قضيبه، السيدة تصفعني، الشاب يصفعها، السيدة تصفعه، لقد سألتُ الســـماءَ إنقاذًا لا اغتصابًا، سمعتُ كلماتِه جيدًا، يقول لها: «القحبة لا تقاوم! انظري إليها! قمة الجمال والعهر في آن واحد!».

انتهـــى مني، انتهتْ مني، تشـــاورا؛ هل يلقوني بالطريـــق أم أُكمل معهما رحلتهما؟ قالتْ له وأنا بحضنها: «هذا الجسد لابد أن نشبع منه، هذه القحبة لن تغادر منزلي».

ظلٌّ أبيض

«**أنتَ** الذي على حق»..

نطقَها ظلٌّ عجيب، يرتدي عباءة، يتكئ على عصا، يبتســم، الظلال كلها تنحني له، كيانه ضخمٌ، لا أسمع شيئًا، سوى صوته، خطوته الواثقة، جلس مكاني، فتح دفتري، يقرأ ولا يعلّق، طلب من الظلال أن تجلس، وأنا معهم، يتطلع إلينا، يداعب ظلالَ الأطفال، اخرج وردةً ســوداء، فرح بها ظلُّ طفلةٍ صغيرة، شــعرتُ بالمسيح يمســح علينا كلنا، هذا الظل يحبه العالم أجمع، مدَّ يمناه، رســمَ على جبيني، دائرةً ضخمة، بحجــم وجهي، بيضاء، وبصوتٍ رخيم قال: «هذه أصل الحكاية، اسمعها جيدًا، يا كنود».

قام، وقامتْ كل الظلال، رفع عصاه إلى الأعلى، انشقتْ أرض المقر، سقطنا في حفرةٍ، بسرعةٍ جنونية، لا ألمح شيئًا، السواد تحتي، فوقي، يميني، يساري، كلما نظرتُ إلى أسفل، سمعتُه يقول: «لا تنظر الآن، حين أقول لك، افعل». الظلال التي جمعتُها منذُ قيامتي، تســقط معي، الأطفال والرجال والنســاء والجمادات، حتى الكتب، أنا الوحيد الذي يصرخ، ضربني على رأسي بعصاه، لمّا وجدتُه أمامي، قُلت له ســيندم على فعلته، وقبل أن ألكمه، قال: «انظر إلى الأسفل والآن». لم أفعل، ظننتُ كلامه خدعةً، ليضربني ثانية، شرعتُ في رد الضربة إليه، لأجــدني أرتطم بأرض صلبة، تدحرجتُ إلى الخلف، تأوهتُ، إنها المرة الأولى، التي أشعر فيها بمعنى الألم، لعنتُه، نهضتُ وركضتُ ناحيته،

سيطلب منّى السماح، جراء تطاوله على نبيه، صرختُ وأنا أهاجمه: «كيف تفعل ذلك بالذي على حق؟!». لم يتحرك من مكانه، تفادى كل لكماتي، عرقلني بعصاه، قال: «إذا هاجمتَني مرةً أخرى، سأسجنك يا كنود».

«توقف عن مناداتي بهذا الاسم! اسمي نبي! كنود هذا كتبتُه على دفتري لا أكثر! وأنا..». قاطعني صوتٌ آخر، صوتٌ عذب، صوتٌ سلبني من نوبة العنف، التي تسري بظلمتي: «أنتَّ الذي على حق، كلنا نعرف ذلك، قُم يا بني». مصدر الصوت ظلٌ شديد البياض؛ ظلٌ وأبيض؟! ما الذي يحدث هنا؟ هل أرى.. ما اسمه؟ الذي يراه البشر؟ نعم؛ هل أرى حلمًا؟ اقترب مني ذو الهالة البيضاء -لن أطلق عليه ظلًا- وقال: «مرحبًا بوطنِك يا كنود، الجميع ينتظرك، أعتذر عن طريقة رسولي؛ فهو يعرف جيدًا كم أنت عنيد، سنتحدث كثيرًا وستعرف أكثر، اسمح لي». غادرَ المكان، لماذا دعاني كنود؟

ساعدني الظل الذي أود ركله، وقفتُ مستعدًا لأي ضربةٍ منه، ضحك الظل وأشار إلى بيتٍ، البيت كان صغيرًا، يذكرني ببيت العم عزيز، إنه المكان الوحيد، الموجود في تلك الصحراء البيضاء، السماء من فوقي بيضاء بالمثل، أنا النقطة السوداء الوحيدة في هذا الحيّز الأبيض المهيب، تحركنا تجاهه، فتحَ الباب لي، بيتٌ كلاسيكي للغاية، مصنوعٌ من الخشب، رائحته معتقة، كأن بابَه لم يُفتح قبل الآن، كرسيان، وعدد لا يُحصى من الكتب، البيت حقًا عبارة عن كرسيين ومكتبة عظيمة، ظلٌ يجلس، يقرأ، وبجانبه ظلٌ آخر واقف، يشير إليّ بالجلوس، ثم تحدث بصوتٍ هادئ:

«أهلًا يا كنود، أنا سامي الدروبي، أديب ودبلوماسي، والمترجم الوحيد في ممكلة الظل، سأساعدك على التواصل مع دوستوفيسكي». تحدث إلى

الظـــل الجالس إزائي، بلغـــةٍ لا أفهمها، حيّاني الظل برفعـــة رأسٍ، فرددتُ التحية بالمثل، ثم ترجّم لي ما قاله: «لقد أخبرتُه من أنت يا كنود، النبي الذي على حق، من ســـينصر الظلال، الأســـطورة التي ننتظرها، سنخرج قريبًا إلى العالم، وســـيكمل مشروعه، ويحصل على نوبل، أنا في غاية الســـعادة لك، يا دوستوفيسكي العظيم».

عيالُ الله

داعبتْ أذني: «ممتازة».

أنا مقيّدة، في غرفةٍ يضاجعُها الظلام، ويضاجعني شـــابٌ، وتداعب سيدةٌ شـــهوتها بي، ثلاثة أيام، صباحًا ومساءً، بالتناوب، لم أسترد عافيتي، المقاومة لدي أضعف من جنين مُجهَض، الممتع في الموضوع -حقيقةً- هو مكان للنوم وطعامٌ بلا مقابل، أعني بلا مقابل مادي، الهوس الجنسي لديهما، قد يجعلهما، في سريري، طوال اليوم، شعرتُ بجسم بارد، يضغط على صدري، ثم ملمس بشري، يعصر صدري، كأنـــه ينتظر خمّرًا، أعاد الكلمة مرةً أخرى: «ممتازة». حاسة الســـمع الوحيدة، التي تتحسن، أدعو السماء، أن تنظر إلى أمري؛ فأنا عيّلة من عيال الله.

الخيالات التي أراها، لا تفسّر لي شـــيئًا، عرفتُ اسم الشاب؛ طاهر، واسم الســـيدة؛ شريفة، هذا كل ما في الأمر، الاسم والجنس، طاهر حَمَدَ الله، وهو يغتصبني، إننـــا عرفنا كيف نهرب، مـــن القوات العربيـــة، الرصاص كان يطاردنـــا، قبل أن نختفي من أمامهم، طاهر قـــال: «احمدي الله يا شرموطة، القوات لن تســـأل ما الذي تفعلينه في هذه الســـاعة، والآن أريد أن أســـمع آهـــاتِ المتعة». الحمد لله، ضررٌ أقل خطورة مـــن ضرر، شريفة أيضًا، وهي تطعمني، حبّات العنب، من فوق ثديها، طريقتها هكذا، تريد الجنس في كل لحظةٍ، قبّلتني وقالتْ في غنجٍ عاهر: «سيدخلني الله الجنّة، لأنني أعطف على فقيرةٍ بلا مأوى مثلك، أطعمها، بل وسأتبرع بأعضاء جسدِها البض، لصالح من يســـتحقون الحياة، اقضمي التفاحة من فوق تفاحتي الحمراء!». الحكاية

واضحة، متعة جنسية، مال من بيع أعضائي، وذلك لأنني فقيرة متسوّلة، هكذا تراني شريفة، غير الشريفة، وهكذا ضمنتْ لذاتها، صكّ دخول الجنّة، الصوت يخبرها بضرورة تحضير المطلوب، والوقت الذي سنتحرك فيه: «سيدُنا سيسعد كثيرًا، وتذكّري؛ قد تنضمي يومًا إلى سريره، السيارة ستمر خلال ساعة». رحل الصوت، وجاء صوت شريفة، تفك قيدي، طاهر يحملني، يتحسس جسدي وهو يتحرك، بعد قليل، شعرتُ بالماء يغمرني، شريفة تحممني، طاهر يصب الصابون، شريفة تدلكني، طاهر يحلق شعر جسدي، شريفة تغني وطاهر يرد عليّها، شريفة ضحكتْ قائلة: «آه يا طاهر، سيدنا يريدُها، هل تتخيل! طبيبه الذي يبحث عن الأعضاء، يريدُها كاملةً، لسرير سيدنا، يا بنت الحظ، حقًا؛ الفقراء عيال الله!».

الشتائم بالخارج تنهال عليهما، من الواضح أن الطبيبَ دخلَ علينا، سكتَ قليلًا، طلبَ من طاهر الخروج، تحدث مع شريفة، فهمتْ ما يرنو إليه، قالتْ: «ادفع الآن وسأتركك معها، حتى ينفجر بركانك». الطبيب يساوم على نومة معي، حركات خفيفة، ضحكةٌ رقيعة، دخل طاهر، حملني مجددًا، مشى بي، رائحة الغرفة، وضعني على السرير، غادرا، أسمع صوتَ خلع ملابس، حزام يخبط الأرض، حذاءٌ يُرمى بعيدًا، نفسٌ متلاحق، جسدٌ يهبطَ على السرير، جسدٌ يقول بكل ثقةٍ: «الجنس مع الأطبّاء غير يا حلوة، سأتذوق عسلَكِ، قبل أن ينهل منكِ البغيض كما يريد، افتحي فمّكِ، هذا الدواء سيضاعف شهوتَكِ».

أنا عيلّةٌ من عيالك يا الله، هل يدركني كرمٌ منك، أم كل ما يحدث لي، عقابُك، رحمتُك، تطهيرُك لي قبل الموت؟

«هيّا يا حلوتي، داعبي هذا الذي لا يهدأ!».

أنا عيّلةٌ من عيالك يا الله؛ هل تسمعني؟

أسمارُ الظّل

«**يا** كنود؛ هذا دافنشي». متى سينتهي كل هذا العبث؟ لم أغادر هذا البيت، منذ مجيئي، قابلتُ الكثيرَ من ظلال المشـــاهير، في مختلف المجالات، ســـامي الوحيد الـــذي يترجم، مهما كانت اللغة، هذا چيمـــس چويس، هذه فريدة كالو، ذلك مايكل أنجلو، يمكنك التحدث إلى سقراط، رحّب معي بهيباتيا، تعال وشاهد كيف ينحت غيبرتي، هل تسمع موسيقى بتهوڤن؟ هذه مارلين مونرو تقدم فاصلًا من فيلمها الأخير، إخراج ســـتانلي كوبريك، ويساعده يوسف شاهين، المكان يرقص مع مايكل چاكســـون، صِه! راسبوتين يمر! عرفتُهـــم جميعًا، يتحدثون عن أعمالهم، بين البـــشر وبيننا هنا، لم يتوقف أحدٌ منهم، عن تكملة المسيرة، الأدباء يكتبون، دور النشر توزّع، المسارح في أوج نجاحها، الســـينما لم تتأثر، العظماء كلهم يقدّمون أفلامًا، باخ يعزف، خلاف تولســـتوي ودستوفيســـكي حيٌّ، مارلون براندو والعرّاب، تحدثتُ إليهم، كلهم جاؤوا إلى البيت الصغير، ســـامي يترجم، وأنا أكتفي بالتعرف عليهم، فقط، لم أتحدث معهم، رفضتُ ما يحدث، لكنّ سامي قال إنها أوامر عليا، لا أفهم! من الذي يأمر هنا!

هذا الدافنـــشي، الملامح الهادئة، الوجه الذي يقول الكثير، ســـامي مدحه بالجـــمال الرومـــاني، تكلمنا في كل الأمـــور، الفن والاختراعات والرســـم والنحت والأدب، دافنشي يكمل مشروعَه، ســـأله سامي عن الكهف الذي دخله، الكهف الذي اعترف بعدها، إنه الســـبب في تغيير مســـار حياته، قال

دافنشي الكثير، سـامي يهز رأسـه، وأنا أنتظر الترجمة، يضحك سامي حينًا ويصمت حينًا، يضرب كتفه، دافنشي يضحك، يشـير إليّ، يلتفت سـامي، ويفسّر كل ما قاله:

«حين دخل هذا الكهف، وجده مخيفًا، وعلى مدار الرؤية، نورٌ أزرق، تحرك ناحيته، اقترب حتى عجز عن التكملة، عيناه تشتهيان الشوف، لا يقدر على توجيه النظر، فقط النور الأزرق، انفجر النور في وجهه، سـقط مغشيًا عليه، ثم شعر بها، تهمس في أذنيه، تطلب منه النهوض، قام، نظر إليها، بنتٌ، جمالها فاق هيلين، عارية تمامًا، نهدان كبيران بشـكلٍ مسـتفز، جسدٌ بض، يشعل الشهوة، حتى بالحجر، شـعرُها أزرق زرقة البحر، طويل طول الليل، ناعم نعومة الغزل، صوتُها جميلٌ جمال الرسـم، قالتْ له: «من اليوم، أنا بداخلك، أرشدُكَ إلى ما عجز البشر عنه».

سألها ما المقابل، والمقابل كان بسيطًا في ظاهره، مستحيلًا في باطنه، أشارت إلى لوحةٍ، ذهب إليهـا، اللوحة تحمل رموزًا، باللغـة الأكادية، وهي اللغة المحكية، في بلادِ ما بين النهريـن في قديم الزمان، قرأ دافنشي النص، وكأنه عاش معهم ويتحـدث لغتهم بطلاقة! قال لها: «هـذه لوحة لأقدم قصيدة حـب في العالم، تقول الأبيات: «ابحث عنّـي إلى أن تجدني، أنا في البريّة وقد انتهيتُ من اقتلاع الأشـواك، والآن سأزرعُ كرمةَ العنبِ، وقد غمرتُ النَّار المسـتعرة في داخلي بالماء، فأحبني كما تحـبُّ حملانك الصغيرة، واعتنِ بي كما تعتني بقطيع ماشيتك، وابحث عنّي إلى أن تجدني».

رحل دافنـشي، متعللًا بعزلته، كي يتأمل في الموجودات، ويرسـم لوحته الجديدة، طلبتُ من سـامي، أن يرشـدني إلى هذا الظل الأبيض العجيب،

مهما كانت الأوامر، سـئمتُ هذا الخراء، وعدتُه أنني سـأقابل كل الناس، لكنّ زيارةً إلى الظل الأبيض، سـتبهجني كثيرًا، وتجدد طاقتي، وافق سامي، بعدما شعر حقًا بصدق ما أقوله، تحركنا خارج المنزل الصغير، مشيتُ كثيرًا، صحراء بيضاء، فقط، ومن العدم، وقفنا أمام مبنى، يشـبه السجون! قال لي سامي: «يجب أن تتعرف على الظلال هنا، بعدها، ستتحدث معه، يا كنود». يافطةٌ كبيرة تقول: «سـجن الخاسرين». وافقتُ عـلى مضض، وافقتُ كي أعرف ما الذي يحدث هنا، وافقتُ كي أفهم من «كنود»؟

ثورةٌ خالدة

نزلتُ من السيارة، صوتٌ عذب يصدح في المكان، بصري يرفض التصالح، جسدي يسترد عافيتَه على مهلٍ، الطبيب يتحرك بسرعة، توقفنا بعد بضع خطوات، تحدّثَ إلى شخصٍ آخر، همهماتٌ وكلماتٌ مبهمة، بابٌ يُفتَح، «تعالي يا حلوة». ألبسني الطبيبُ كِمامةً، نتحرك وأسمع، نصعد درجًا، الصوت العذب يُطهِّر دنسَ روحي، بابٌ يُفتَح، صوتُ امرأةٍ، كلام جانبي، بعد قليلٍ، تحسستْ جسدي، شَكَرَتْ الواهب، قالتْ للطبيب إنها تحب هذا الصنف، هل صرتُ صنفًا؟ يمازحُها الطبيب، تخبره بضرورة مقابلتها غدًا، يقهقه، صفعَ مؤخرتي، ثم غادرَ وتركني لها، من خلال حركتي غير الطبيعية، تلك الحركة التي تشبه الإنسان الآلي، سألتني بفجاجة: «هل أنتِ عمياء؟». لم تمهلني وقتًا للإجابة، شدتني تجاهها، قبّلتني، ثم قالتْ: «يعجبني خضوعكِ التام! عاهرةٌ محترفة كما يقول الكتاب! سننام كثيرًا سويًا! ما اسمكِ يا صاحبة الثدي الذهبي؟». ضحكتْ كثيرًا بعدما عرفتْه، ضحكتْ وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، سكتتْ قليلًا، ثم قبّلتني ثانية، عرّتني من ملابسي، شهقتْ حين لمحتْ جسدي، لم تترك موضعًا به، إلا ولمسته بيديها ولسانها، كأنها تتذوقني: «سيدنا سيكافئني على هذه العاهرة».

طرقُ بابٍ خفيض، طلبتْ من الطارق التمهّل، ألبستني فستانًا من الحرير، أشعر بنعومته على جسدي، سألتُها عن لونه، قبّلتني بسرعة، ركضتْ نحو الباب، فتحتْ وبدأتْ في وصلة ترحيبٍ، خطواتٌ ثقيلة: «زارنا النبي».

نحنحةٌ أرستقراطية: «والله زارنا النبي». عصا تضرب الأرض تحتها؛ «طردٌ جديد، ورضاك يا سيدنا». رائحةٌ نفّاذة؛ «ومقامك ما لمستها». وقف أمامي، سمعتُ صوتَ خطواتِها تبتعد، صوتٌ شـــديد الهدوء، عظيم الأثر: «اليوم ماتت زوجتي؛ كانتْ ســـيدةٌ شريفة، لم تكن تعلم شـــيئًا عـــن هذه الغرفة، ثلاثون عامًا، والقصر كله تحت أمرها، ولم تدخل إلى تلك الغرفة، غرفة شهد الغجر، هكذا أطلق عليها، اسمكِ عجيب؛ خالدة! هل هذا اسمكِ الحقيقي أم الحركي الذي تمارسين به العهر؟».

دخلتْ السيدة مرةً أخرى، مســـحتْ على ظهري، ثم مؤخرتي، وناشدتْ ســـيدهم، أن يدخل إلى السرير، وستجهّز له وليمته الدسمة، همستْ في أذني بحقيقة اســـمي، يحب سيدهم هذا الاســـم، لذلك اختاره الطبيب، أمّا عن اســـمي، الشيء الوحيد الذي ذكروه لي، ســـيظل سرًا بيني وبينهما -الطبيب وهي- طـــوال وجودي، نثرتْ عطرًا عجيبًا، رائحتُـــه غريبة، وضعتْ تاجًا على رأسي، وقفتْ خلفي، شعرتُ بشيء منتصب، يبحث عن طريقه، قبّلتْ رقبتي، حين شهقتُ أنا، ضحكتْ وقالتْ: «العطر يعمل الآن، عطر الإثارة لم يخذلني يومًا، نومةٌ هنيئة يا ثورة، سيدنا فحل في السرير».

توجهنا إلى السرير، ســـمعتُها وهي تخبره إنني عمياء، قبل أن ترحل صرخ بها: «تعالي أنتِ أيضًا! ســـأنام معكما». صفعاتٌ، سباب، لكمات، «منذ متى وأنتِ عاهرة؟». صفعاتٌ، كلاهما يغتصباني، لم أشعر نهائيًا أن سيدهم، لمس السيدةَ الأخرى، الحقيقة لم تكن سيدةً، هي خنثى، أنثى بعضوِ ذكري، تُرى؛ ما الذي فعلتُه قبل فقدان الذاكرة، لتعاقبني السماء إلى هذا الحد؟

«سأركبها حتى الصباح، لن أتركها، ارحلي أنتِ». قامتْ هي، وبقيتُ أنا، يركبني كدابةٍ، «يا خالدة! أنتِ.. أنتِ ثورةٌ خالدة!».

واضحٌ كرصاصةٍ

إضاءةٌ ضعيفة، زنزانةٌ كئيبة، مساحة عجزتُ عن تحديدها، لا قضبان، الظلال مهزوزة، خلف الجدار الزجاجي، هذا هو المكان فقط! جدار زجاجي يحبسهم! حارسٌ واحد يجلس أمامهم، يراقبهم، يقرأ عليهم نصوصًا مختلفة، فسّر سامي لي كنهه؛ كتيّب الظل، توقف الحارس وقتما لمحنا، قام من مكانه، حيّانا، ثم رجع إلى مكانه، يقرأ من جديد، الظلال تقترب من الزجاج، وتضرب بيديها، تحركتُ تجاههم، تبعني سامي، أشار إلى الحارس، وجدتُه يتحدث إليهم عن طريق جهازٍ، يشبه المذياع كثيرًا، فهمَ الحارسُ عندما وقفتُ بجانبه، جلستُ مكانه، شرح لي سامي آلية الجهاز، هكذا يسمعوني وهكذا أسمعهم، قُلتُ لهم: «تقدموا واخبروني لماذا أنتم هنا والأسماء؟!».

تطوع سامي لرصد كل شيء أريده، رفضتُ، أريد سماعهم، وإذا تحدث أحدهم بغير لغتنا، سيترجم سامي، وافق متأففًا، لا يهمني رضاؤه من عدمه، ما يهمني، الظلال المسجونة، هؤلاء ليسوا بشرًا! كيف سمحتم بهذا الظلم؟ تقدم أحدهم وقال: «بأيدينا الملطخة بالزيوت والطين، بأيدينا مساحيق الدي دي تي، شفرات الـ«ناسيت» الحادة، انتظارنا العادل ودساتيركم البارعة، نخرج إليكم، نخرج إليكم، لسنا أشرارًا ولا مهذبين، لا نحب العنف ولا نكره الطيور، وأجسادنا تفوح دائمًا برائحة المعادن واليانسون، نخرج إليكم، نخرج إليكم، بشرفاتنا وأيامنا التي تتساقط كالذباب، بزمننا المعطوب، ببيوتنا المعطوبة، بأجسادنا المعطوبة، بأحلامنا المعطوبة وفاكهتنا المعطوبة، نخرج إليكم، نخرج إليكم، أمّا اسمي؛ فستعرفه إذا رأيتَ الورد

رصاصةً، أو رياض الصالح حسين».

تراجع وتقدم أخرٌ، كل ما قاله: «آفة حارتنا النسيان». ثم جاء هذا الذي وقف يضحك، أشعل سيجارًا لا أعرف كيف حصل عليه، وقال في عزيمةٍ: «الأنبياء كلهم فقراءٌ مثلنا، راعٍ وحداد ونجار وبائع، لكنّ الأثرياءَ اختطفوا أديانهم وحوّلوها إلى مجرد طقوسٍ، لامتصاص غضب المقهورين، اسمع يا هذا؛ إن الحياةَ كلمةٌ وموقفٌ، الجبناء لا يكتبون التاريخ، التاريخ يكتبه من عشق الوطن، وقاد ثورةَ الحق وأحبَّ الفقراء، وطالما أن القهرَ موجود، سيكون هناك من يناضل ضده، أحلامي لا تعرف الحدود، وأنا لا أغالط روحي ولا ولن أتملّق أحدًا! المجد للثابتين والطاعون والموت للخائنين!».

رأيتُ الحارس داخل الزنزانة، يركلهم ويضربهم، صرختُ به أن يتوقف، لم يفعل، شرعتُ في الركض إليهم، وإذ بالظل الأبيض، يعرقلني بعصاه، نهضتُ وأنا أُقسِم أنا هذا الظل لن يعيش ليفعلها ثانيةً، غضبي من الموقف حوّلني، من ظلٍ حكيم إلى ظلٍ غير رحيم، خطفتُ العصا من الظل وضربتُه بها، سرعتي لم يقدر على مجاراتها، سامي يطلب منّي الهدوء، ضربتُ الظل الأبيض مجددًا، الحارس ترك الظلال، وخرج إليّ، تفاديتُ لكماتِه، ركلةٌ واحدة، تبعتُها بصفعةٍ، ضربةٌ بالعصا على رأسه، خر الحارس ساجدًا، صرختُ صرخةً، تشقق زجاج السجن بسببها: «أنا نبي الظلال، أنا الذي على حق». كسرتُ زجاج السجن، الظلال كثيرة، خرجت، مثلما أعلنتُ ثورتي بالأعلى، سأعلنها هنا أيضًا على مملكة الظلال، تجمّعتْ الظلال حولي، بوابة السجن فُتِحَتْ، خرجنا إلى هذه المساحة البيضاء العجيبة، تبعني سامي وهو يسند ديستوفيسكي، سمعتُ صوتَ الظل الأبيض وهو يهرول خلفي، طلب منّي الظل الذي تحدث عن الحارة والنسيان أن أتوقف ولنسمع ما لديه..

«اسمعني جيدًا يا كنود يا بني، سأسامحك لأنك ضربتَ أباك بدون قصد، هذا اليوم كلنا ننتظره، خذ يا كنود، بيان الظّل، سيجيبك على كل الأسئلة».

مراثي العفاف

شـــعرتُ بشـــالٍ حريري، يرقص على وجهي، ضحكةٌ تجاهد لتطلع، صوتُها أو صوتُه، صوتُها أظن ذلك، في النهاية هي أنثى، عرفتُ اسمَها خلال المضاجعة، عفاف، ابتســـمتُ ففَهِمَتْ أنني استيقظتُ، سحبتني من ذراعي، مشيتُ معها وأنا عاريةٌ، ســبّحَتْ بالذي خلقني درةً، أجلستني في منتصف الحمّام، سكبتْ الماء فوقي، نظري ضعيف، أشعر بسعادتِها، وضعتْ المنشفةَ عليّ، ســـحبتني مجددًا إلى الخـــارج، رائحتي جميلة، تدللنـــي وكأنّها زوجي، تطعمني، أو ربما تطعمني يد السماء، تُقسِم أنَّ كل الصنوفِ صنيعتُها، تخبرني مـــاذا أمضغ الآن، اللحم والدجـــاج والخبز الفرنـــسي والحلويات الشرقية والغربيـــة، خمرُ الصباح، قبلةٌ كي تســـاعدني على الهضـــم، تذكرني بضرورة الحفاظ على صحتي، لأن ذكرًا وخنثىً مُتيّمان بي.

مَسَـــحَتْ فمي بلســـانِها، رَفَعَتْ الطعام عن المنضدة، ثم جاءتْ بالشاي، وضعتْ مكعباتِ السُـــكّر كما يحلو لها، لم تســـألني، ناولتني كوبَ الشـــاي، حذّرتني من ســـخونته، بدون مقدماتٍ سألتُها، شعرتُ بنبرة صوتٍ، تحمد الله على السؤال، في البداية قالتْ الحكاية لا تهمني، كلامٌ فارغ، مع إصراري، خاصـــةً عندما قُلتُ لها لنقتل وقتَنا، ابتســـمتْ وبدأتْ تسردها: «حكايتي يا ثورة، ثورةُ الحكايات، لا أعرف اسمي الحقيقي، كبرتُ وفهمتُ أن عفاف؛ أطلقته عليّ مديرة بيت المشردين، عرفتُ منذ صغري، إنني لقيطة، بنتُ شارعٍ كما يقولـــون، المديرة كانت لطيفة معي، هي من ربتْني، كي لا يُفضَح أمري، فسّرت الواقعة، لكوني خنثى، قالتْ يبدو أن أهلي، لم يتحملوا الفضيحة، عن

أي فضيحـــةٍ تتحدث؟ هل هذا ذنبي؟ ثم تراجعتْ عن كلامها، لأنّ ذلك لا يظهر بحديثي العهد، فقالتْ إنني بنتُ الخطيئة.

حاولتُ التعايـــش مع الفكرة، دفن سرّي، ومـــع تقدمي في العمر، نضج جسدي، كان من الصعب التســـتر، ماتت المديرة، أقدم مشرفة بالدارأ تولّتْ بعدها، شريفة؛ التي أحضرتكِ، اكتشفتْ وهددتْ بفضيحةٍ، إلا إذا أشبعتُ شـــهوتَها، العاهرة أفشـــت السر، مشرفاتٌ وصديقاتٌ وربّاتُ بيوتٍ، حتى زميلاتي بالمكان، لم تهدأ شريفة، طالبتْ أي أنثى، تريد المجاسدة، بدفع المال، من تملك ســـتتمتع، ومن لا تملك تمتنع، كلهن تعمدن التأمل في جســـدي، وتفاصيله العجيبة أولًا، حتى جاءت زوجة سيدنا، تريد بنتًا تعتمد عليها في إدارة محلِ الورد، ولأن شريفة -بســـببي- دخلتْ عالم الأثرياء، عرضتْ عليّ الفكرة، وذلك لأنني أجملهن والوحيدة التي لن أسرق، هي متأكدة أنني لن أسرق، كسرتني شريفة، وجنتْ من ثورتي على جنس البشر، الكثير والكثير، السافلة لا يهمها جنس الذي تضاجعه، ذكر أنثى خنثى حيوان، عملتُ بجدٍ مع زوجة ســـيدنا، عبير، هي الأخرى عرفـــت، حين انتصب عضوي بدون قصدٍ، على جسدها، حكيتُ لها، لم تستغلني تمامًا، عرضتْ مساعدتها، كذبتُ عليها بحسن نية، وقُلتُ لها أن شريفة تساعدني، السيدة عبير هاتفتْ العاهرة شريفة، هذا اليوم، مســـاءً، شريفة اغتصبتنـــي، جعلتني أصرخ من الوجع، لأنها أجبرتني على بلوغ ذروة نشـــوتي، خمس مـــرات، كدتُ أموت من فرط مضاجعتهـــا عنوةً، وفي الصباح، عرضتْ على الســـيدة عبير، أن تشـــاهدنا ســـويًا، لترى الذي قد يرضيها، إذا سافر سيدنا، أو لم يكن له مزاج، طردتنا، وســـبّت شريفة، ولكنّ شريفة لن تخرج بهذه السهولة، فهددتها إذا لم تتغاض عمّا حدث، ســـتخبر سيدنا إنها تملك خنثى في محل الورد، وكانت تعرف منذ البداية، والسبب معروف بالطبع!

وافقتْ السيدة عبير، وحين رجعتُ إليها، ذهبتْ بي إلى زوجها، وأخبرته القصة كاملة، العجيب أنه لم يرفض وجودي، بعد ساعة، كانت شريفة أمامنا، وكنتُ أنا عاريةً، قال لها سيدنا دعيها تنكحك، فأنا لا يهددني جرثومةٌ مثلكِ! وتمر الأيام، ويحضرني سيدنا إلى هذه الغرفة، التي تعجبتُ كثيرًا، كيف لسيدة المنزل، ألا تعرف عنها شيئًا، حتى ماتت، عبير المكان، هذه السيدة الأنيقة الرقيقة التي كانت تحبّه، وهو كان يحبّها، ثم يضاجع عاهراتِ هنا، حد الثمالة».

الحديث مع عفاف، يجمع بين النقيضين؛ القوة والضعف، أنثى تعرف كيف تركب المجتمع، صارتْ قويةً، حين قرّبها سيدهم إليه، تجاسد من تشاء، وفي النهاية هي أنثى، وبينها وبين خلواتِها، هي ذكرٌ شهوته مؤنثة، تفور على مهلٍ، لذلك ركضتْ خلفها النسوة المعوزات، ذاكرتي تتحسن في خلق المرادفات، فلسفةُ الحياة تغذّيني، المواقف تزيدني صلابةً، أعتمد على البصيرة لا البصر، عفاف ضحكتْ بعد حديثنا، رفضتْ البكاء، تراه شيمة الضعفاء، وعفاف ليستْ ضعيفة، عفاف لديها القدرة على الممارسة الجنسية، أكثر وأعلى وأقوى من أي ذكرٍ، هكذا قالتْ وهي تقبّلني.

صريرُ الباب، صوتُ سيدِهم، انتفضتْ عفاف، سألها بكل وقاحة: «لماذا ينتصب عضوك؟». لم ترد، صفعها، وطبقًا لصمت عفاف، اعترفتْ بذنبها، بصقَ عليها، شعرتُ بعصاه الخشبية، تلمس صدري، تراجعتُ للخلف، شهقتْ عفاف وقامتْ مسرعةً، تدفعني إلى الأمام، تطلب الغفران من سيدهم، تقسم أنها لن تنظر إليّ حتّى، يأمرها بمغادرة الغرفة، يريدني في أمرٍ هام، ركضتْ إلى الخارج، وضع يده على كتفي، وتحدث عن ذكرياته مع زوجته، لماذا يجيء إلى هنا، ليحدثني عنها، ثم يضاجعني؟

كتيّب الظّل

«**بسم** الواهب، بسم الثورة، بسم الشجرة المنتظرة، هذا بيان الظّل الشامل..

إلى كل ظلٍ ثار صارخًا لِمَ أنا لا هو؟! لم نُخلَق عبثًا، طبيعتُهم غادرة، أفئدتُنا نادرة، نفكّر بوجدانٍ مُظلِم، نتحرك كظلام موجود، وهذا العابث المَوْءود، في قبر وساخاتِه، عهده إلى زوال، أيها الظلالّ، أقول لكم: سنثور، سنُشعِل، سنُحارب، سنكتُب، سنرسم، سنلعن، سنؤرّخ، سننقش، سنبني، سنزرع، سنصنع، سنتاجر، سنبيع، سنَستَعبِد، سنسافر، سنُرهِب، سنمجِّد، سنطهِّر، سنبقى، سنقوم.

أنا، كنود بن مَدْيَن، نبي الظل، الذي على حق، يوم نزولي إليكم، سنتقاتل أنا وأبي، ومن كان النصرُ حليفَه، سيصعد بكم، بعد خروج الشجرة المنتظرة، من أرضكم، من مملكتنا السفلى، إلى مملكتهم العليا، سنظهر لهم، ستكون قيامتُنا قعودَ كرامتِهم، لن يردعنا رجالهم، ولن يضعف عزيمتَنا بُكاء نسائهم، وحسبنا الذي سيرتقي بكم إليهم، ستكون خطة فوضاكم وحكمكم.

كل ظلٍ سيهبط إلينا، بعد انفصاله عن دنس أجسادهم، سيمجّد الظل فقط، سنكمل ما كنّا نفعله، طبقًا لحرياتنا، لن يحركنا بشريٌّ، كل مكتوبٍ ونقشٍ وحكايةٍ وأسطورةٍ، مفادُهم؛ «المجد للظل»، وإذا رفض أحدهم، وحجته أن الإنسان الذي تبعه، كان صاحبَ قضيةٍ، فالسجن مصيره، وليذهب هو وانتماؤه الوضيع، والوضيع الذي كان ظله، إلى ظلامٍ لا يقدر على السطوع منه.

شعب الظل العظيم، قيامتي قريبة، وعدالتكم أقرب».

كلماتٌ مكتوبةٌ على ورقةٍ قديمة، والغلاف أسود كيف وأنا لم أكن موجودًا! الظلال كلها تنظر إليّ، تـــضرب الأرض بأقدامها، وكأنهـــم يريدون قتالًا، شعب الظل بأكمله، يقف حولي أنا وأبي، هكذا نصّ البيان، اسمه مَدْيَن، لا أعرف قصته، ولكنّ شموخَه، يؤكد ثقته من قتلي، لا يهمني إذا كنتُ سأقتل أبي أم العكس، الذي مقدّر له الصعود إليهم، سيحكم، وإن كان أنا؛ فقيامتي هلاكٌ للبشر لا مفر.

الأرض تتزلزل، تشققاتٌ تمر بها، خطٌ طويل يتوغل، يعرف مقصدَه جيدًا، حفرةٌ كبيرة لاحتْ، شـــجرة عظيمةٌ خرجتْ، شـــهقاتٌ أعظم تعالتْ، قُطرُ الشجرةِ مُهيب، مظهرها غريب، لوحٌ خشبيٌ ضخم، يرتفع إلى سماء المملكة، صوتُ الاحتكاك؛ ما بين الخشـــب والأرض، يذكّرني بهتك العرض، تحرك هذا الذي يبدو أنه أبي، وقال لي بصوتٍ رحيم: «كيف ترى نهايةَ حكايتِك يا ولدي؟ نبيٌ واحد منا سيظهر وستخلّد سيرته».

«لن أحارب ظـــلًا أبيض!». هكذا صفعتُ جســـارتَه بهـــا، «الظل يعني السواد، وإذا كانت السماء ميّزتك بلونٍ مختلفٍ عنّا، فأنت لستَ منّا».

همس الظل المناضِل، الذي نادى بالثورة حين كنتُ في الســـجن، موّضحًا: «إن لم تقاتله؛ سيفعل هو!».

قُحب الحياة

«**أنا**.. أنا لم أقصد ذلك.. أُقسم لكِ!». جلستْ عفاف بجانبي، بعدما فرغتْ مني، وأفرغتْ جوال بذرها، داخل تربتي الخصبة، لقد شاهدتنا -أنا وسيدها- فانتظرت حتى شبع، ودلّكت جسدي، ثم أكملت بعده، طالبتُها بسرعة النهوض، لم تستطع، والنتيجة؛ سأحمل طفلًا في أحشائي، من خنثى، من قوّادة، من عفاف.

ظلّتْ تستغفر وتستنجد بالسماء، تطلب الغفرانَ من كل شيءٍ حولها، منّي، من الله، من الموقف، من عضوها، من عقلها الذي غاب، من ذاتِها، سمعتُ صوتَها وهي تسأل: «ماذا سنفعل؟ ثورة ماذا سنفعل يا ثورة؟». كيف تتصرف أنثى، جامَعَتْها خنثى، وقذفت بداخلها منيها؟ في المواقف -التي تسعفني بها ذاكرتي المثقوبة- إذا حدث ذلك، بين رجلٍ وامرأةٍ، تسأل هي ما العمل، ويحاول هو التفكير، لكن موقفًا كهذا؛ بين امرأتين، إحداهما تملك مِن صفات «هو»؛ ذكورية العضو، أيّهما يجب عليه خلق الحل؟ سألتني: «هذا السؤال يتقافز حولي، منذ ما جئتِ؛ كيف أصبحتِ هكذا؟ أعرف جيدًا أنه ليس الوقت الملائم، وأنّ هناك ما هو ألعن، ولكنّى أريد إجابةً، لعلها تهديني إلى شيءٍ!».

ضحكتُ، طلبتُ منها سيجارةً، لا أذكر هل كنتُ أدخّن أم لا، ناولتني إياها جاهزةً، وضعتُها بين شفاهي، دخانُها يغسلني من دنسٍ مجهول، أخبرتُها بما يحمله صندوق ذاكرتي المنقّب، الممرضة التي شعرتُ بها وهي تلمسني، كل الكلام عن العُهر والجنس، الذي سمعتُه أثناء الغيبوبة، حين خطفتني شريفة

وتناوبتْ على اغتصابي، الطبيب، الحيــاة بأكملها تضاجعني، لذلك صرتُ عاهرةً، وأنا جاهلةٌ بما ســبق، هل كنتُ -على سبيل المثال- طبيبةً؟ هل كنتُ موظفةً؟ مهندسةً؟ عارضةَ أزياء؟ أم عاهرة؛ فقدتُ ذاكرتها، لتكمل عهرها بعد ذلك، ولا يشــغل بالها، أكانت متمرســةً أم هاوية؟ وهذا الاسم، الذي مــا زال يتردد بداخلي؛ «نبي ''، كل يومٍ يا عفاف، الحلم ذاته، أراه شــاخصًا أمامــي، لا ملامح له، يقول لي: «يا ثورة.. أنا الذي على حق، لا تفعلي ذلك، كفــاكِ غرقًا في بحرِ ترنحكِ». ويرحل. هــذا كل ما في الأمر، الصدمات في حيــاتي كثيرة يا عفاف، لذلك ما حدث الآن، لم يهزني، لقد نكحتني الحياة بما يكفي، هوّني على نفسكِ، خوازيق الحياة لن تتوقف».

ضحكتْ هي الأخــرى، عجبتْها كلمة «خوازيــق»، رددتْها عدة مراتٍ، تقهقه، خطفتْ الســيجارةَ مني، ثم قامتْ، لم تتفوه بكلمةٍ بعدها، الصوت الذي يلاطف أذني، غير واضح، كلماتٌ غير مفهومة، تزيح عن البدن قسوة المواقف، رجعتْ وساعدتني على النهوض، سألتُها عن الصوت، قالت: «هذا القــرآن يا ثورة». دقائق وكنّا خارج المنزل، الهواء خارج القصر، في الحديقة، لمس كل تفصيلةٍ في جســدي، سمعتُ صوتَه، شــخصٌ مجهول بالنسبة لي، يحذّرها من القوات العربية، ومضــت فكرةٌ بعقلي، بادرتني عفاف بفكرتِها: «الهــروب يا ثورة هو الحل، نهرب إلى مكانٍ بعيد، ونجهض الجنين، حتى لو لم يهزّكِ الموقف، هذا الطفل إذا خرج إلى العالم، لن يتحمل الصدمة، وأنا لن أوافق على ذلك، لماذا يمر بالذي مررتُ به؟ ولن أقبل بتلك الكذبة التقليدية، البحث عن أب وهمي!».

قاطعتُها مستفسرةً: «لمَ لا نخرج إلى الشارع؟ الموت بالخارج يرقص وحيدًا يا عفاف، ورقصة الموت أفضل من قُحب الحياة».

آدم يغادر فردوسه

«**افرحوا** معي لأني وجدتُ خروفي الضال». جلجل أبي وسط الظلال، منهم الذي يحمل له الولاء، ومنهم من كان ينتظرني، نبيّان، سيرتان، قصتان تستحقان السرد، لا أعرف حكايته، ولا يهمني إلا ثورتي، الهتافات ملحمية، من القلة التي تتكلم، ليست كل الظلال متكلمة، وهذا أمرٌ لاحظته، بجانب عدد المؤيدين لي، بالطبع كل سجين ومعارضٍ، لذلك عدد المتجمهرين حولنا؛ الأغلبية تهتف له، والأقلية تهتف -بصوتٍ غير ملحوظ- لي، مَدْيَن يرفع عصاه، يحرّكها يمينًا ويسارًا، حماسته تعجبني حقًا، جاء الحارس الذي يتبعه، وقف بيننا وقال: «نحن الظلال لا نُقتَل، لذلك الخاسر منكما، سيوضع بالسجن، ويُترَك وحيدًا، بين الظلام والصمت الأبدي، سيغادر الجميع خلف الفائز، والكلام الآن لكم؛ مهما كانت خطّة الفائز، فستتبعها، هذا شرفنا، نحن لن نتمرد على نبي الظلال، أمّا عن الفائز؛ فهو الذي يسقط خارج الدائرة». رسم الحارس دائرةً متوسطةَ الحجم، تحلّق المشجّعون، وبدأ النِزال.

مَدْيَن يتحرك كفراشةٍ، وأنا أراقب عصاه، يقترب ويبتعد، يقترب ويبتعد، يضرب في الهواء، يضحك، يشير إلى مؤيديه، فترتفع الصيحات، قال وهو يحمّس ذاتَه: «الأنبياء فُرسانٌ، وأنا فارسٌ نبيل ومتمرس، نهايتُك وشيكة يا كنود». ندور في المساحة المخصصة، تذكرتُ ثورة حين كانت تحكي لي، عن المواقف المشابهة، وكيف تعاملت من قبل، سألتُه متى نقلتُ إليه البيان،

والإجابة أنني زرتُه في مناماتِه، في البداية لم يكن يهتم، ثم سمع نصيحةَ ملاكِ بالتدوين، تعجّب حينما كتب في ورقٍ، حكايته هو، ولمّا نام وصحا، لم يجد ما كتبه، كان الورق خاليًا، دوّن ما يسمعه في أحلامه، دوّن أكثر من ذلك، ولم يعثر على شيءٍ، بعدما بُعِثَ إلى مملكة الظلال، سوى هذا البيان: «أنا من يستحق تخليد سيرته! أنا يا كنود! أنا نبي الظلال الأوحد، أنا الذي على حق». يستفزني، دافعُه ضعيفٌ، يريد الظهور للبشر، فقط ليعرف الناس قصتَه.

هاجمني، ضرب بعصاه، لكماتٌ، ركلاتٌ، هجومه سريع، وردة فعلي أسرع، يركلني فأركله، يلكمني فأردّها، يصرخ، صفعني صَفَعتُه، حاول عرقلتي، تفاديتُ عصاه وقدمه، ظلٌ أبيض واهن، ركلتُه في منتصف وجهه، تراجع قليلًا، يبدو عليه علامات القلق، تحولت الثقة إلى ترقب، مهووسٌ بالشهرة يحارب مهووسًا بالفكرة، مهووسًا بالثورة، مهووسًا بفناء البشر، اللحظة التي أنتظرها تقترب، أشعر بتأهبه للركض تجاهي، كي يدفعني، خارج الدائرة، كأنّه يسمعني، رمى عصاه، صرخ وهو يركض، يقترب غاضبًا، ركلني، ركلني بكل عزمه، شعرتُ بجسدي وهو يطير، سقطتُ خارج الدائرة، سقطتُ متعمدًا، لم تعترض تفصيلةٌ بكياني، هلّل مؤيدوه، يقفز مكانه فرحًا، يصرخ بالناس، حارسُه مذهول، الثلاث ظلال الذين تحدثتُ إليهم في السجن، جلسوا على الأرض، غير مصدّقين الذي جرى، أو كيف جرى، راعهم المشهد، الظلال ترفع مَدْيَن على أكتافهم، يحتفون به، وقف حارس مَدْيَن وأشار لهم، فسكت الجميع، فَرَدَ لفافةَ ليقرأ منها:

«مبارك لك يا مَدْيَن، بعد ستين يومًا، سينبت للشجرة المنتظرة فروعٌ، ستمكنّا من تسلقها، والصعود إلى مملكة البشر، كنتُ ندًّا قويًا يا كنود،

سنضعك بالســـجن كما اتفقنا، لك أمنية واحدةٌ، بعيدًا بالطبع عن مرافقتنا، نحن جميعًا نؤمن بك نبيًا، ولكن مَدْيَن هو الذي أُرسِلَ من قبل، لذلك فوزه شيء طبيعي، لم استبعده من حســاباتي، أمنيتُك الأخيرة يا كنود؟». أضاف مَدْيَن: «لا يا حارسي العزيز؛ أمنيتان، نعم يا كنود، لك أمنيتان».

قُلتُ لهما، بعد دقائق من التفكــير: «كل الكتب التي تملكونها هنا، أريدها معي بالسجن، والأمنية الثانية، التحدث إلى الظلال عامةً قبل صعودكم».

ساردو حكاياتٍ نجهلهم

الحرب تبتسم

منذ البارحة، وأنا يشغلني هرج بلادنا، أنا موظفٌ نهارًا، وسائقُ أجرةٍ ليلًا، يجب أن يحسّـــن دخلَه، أنا على مشارف الأربعين، ولا أعرف شعورَ العائلة، زوجةٌ وأطفال، بيتٌ دافئ، ملابس نظيفة وجو مرتّب، السأم يلازمني، ولن يترك يائسًا مثلي، القوات العربية، التي تجوب الشوارع بعد التاسعة، قطعت ســـبيل رزقٍ هام، صرتُ أعمل من الثالثة عـــصرًا، مباشرةً، أغادر عملًا إلى عملٍ، وبحلول الثامنة، أهرب إلى بيتي، إذا لمحني شـــخصٌ منهم، ســـيُنهي شقاءَ عمري، برصاصةٍ واحدة، وسيترك ورقةً، فحواها؛ «القوات العربية»، مع اســـمه وتوقيت القتل، القوات العربية تمسح كل المناطق، تدخل البيوت والمحلات والمقاهي، ثلاث ســـنوات، ولم يعرفوا قاتـــل العاهل، غير ذلك؛ أيامـــي المحددة من قِبل الحكومة المحايدة؛ الأحـــد والإثنين والثلاثاء، كأي مسيحي، والأيام الباقيات، نذهب إلى الأماكن المخصصة، والسبت لا نغادر منازلنا أبدًا، كيف نعيش -أقصد- لماذا نعيش؟

الأحد، اليوم غير المناســـب للراحة، لكنّ رسالةً بســـيطة، إلى زميلي حنّا: «ماتت جدتي، الأسبوع القادم سأحضر، ادع وصل لها يا حنّا». سيتكفل بأمر غيابي، والمقهى هنا، سيبث مخدِّر اللا مبالاة في عروقي، جرائد اليوم، الأخبار الكاذبة، الحقائق التائهة، الشـــارع كله يتحدث عن التهديدات المتبادلة، بين الدول المناصرة لموقف المسلمين، والدول المناصرة لموقف المسيحيين، خاصةً الأخيرة التي ترفض وجود القوّات العربية، الاتهامات تطفو وتغطس، ولا أثر للقاتل الحقيقي.

نادل المقهى يكره الزبائن، يكرهها حقًا، يضع الطلبات متأففًا، وإذا كان لا يطيق الآخرين، فأنه قد يتقبلهم يومًا ما، ولن يتقبلني مهما حدث، وذلك لأنه يرى سائقَ الأجرة زعيمَ عصابةٍ، سمعتُه مرة يقولها صريحةً: «هؤلاء كلاب فلوس والمسيح يشهد على كلامي». لكنّه اليوم -على غير عادته- يبتسم! يقدّم الطلباتِ راضيًا، دون أن يسأله أحدنا عن السبب، وقف بوسط المقهى وقال: «اسمعوني جيدًا، ابن عمي بالجيش المسيحي، أخبرني بمدى استياء كنائس العالم، من موقف دولتنا، تجاه تدخل القوات العربية، وخلال أيام، سينشر بابا الڤاتيكان، نصًا صريحًا، يطالب القوّات العربية بضرورة مغادرة دولتنا، وإلا ستقوم حرب، وقال ابن عمي ستكون الحرب العالمية الثالثة، المعلومات سرية؟! نعم سرية للغاية، لكنني نقلتها لكم، فقط، لتستعدوا، متى طلبت الكنائس منا، الذهاب إلى الحرب».

وضع النرجيلة أمامي، وطلب منّى توصيلةً، بعد نصف ساعة، وسيدفع الأجرة مُضاعفة، وافقتُ، شربتُ الشاي، راقبتُ كل حركاتِه ومزاحه ونكاته، لِمَ كل هذه السعادة؟ وقف بجانب سيارتي، سمعتُ اسمي، يناديني: «يا أسطى، أمامي ساعة واحدة فقط! والمسيح الحي أنا لا أملك الكثير من الوقت». تحركتُ تجاهه، ركبنا السيارة، سألتُه إلى أين، والإجابة كانت غريبة: «اسمع؛ أريد الذهاب إلى عنوان هذا القصر، إذا كنتُ تريد المتعةَ وبثمنٍ معقول، يمكنك الطلوع معي، ثمن التوصيلة هو هو، هناك قوّادة، اسمها -ولا تضحك- شريفة، هاتفتني البارحة لأن لديها ملكة جمال».

كان يحدّثنا عن خدمة الوطن والصليب، والآن يطلب منّي خدمة عضوه!

عبادُ الله

دهسته سيارة، كان طفلًا ضاحكًا، تجمهر المارة، سيدةٌ تبكي، شيخٌ يحوقل، شابٌ يصرخ طلبًا للماء، وأنا سارد الموقف الحكّاء، سأل رجلٌ: «ما ديانته؟». استفسرت بنتٌ: «هل يعرفه أحدكم؟». رد طفلٌ صغيرٌ وهو يبكي: «نحن أطفال الشوارع، هذا أخي، كان يحلم بناسٍ حوله، يسمعونه حين يصبح سياسيًا معروفًا، والآن نصف حلمه تحقق، لذلك يضحك». لم تتوقف سيارة الشرطة التي دهسته، كانت مسرعةً كي تلحق بركاب الرئيس، وقف الشاب مذهولًا، سألني؛ أنا بائع الصبّار: «هل لمحتُ رقم السيارة أو أي شيءٍ؟». تركتُ مكاني وقُلتُ لهم: «من دهسه لن يعتذر، ولن يدفع تعويضًا، سيارة الشرطة فعلت ذلك، هل تريد محاسبة شرطة بلدنا يا أستاذ؟».

نادتني بنتٌ، تريد الصبّار، نعم، أنا بائع الصبّار، هذه مهنتي، قد فاقتْ الحياة فقري وقوّتي، تجدني على الأرصفةِ، أبيع لك مادته اللزجة، مقابل بضعة جنيهاتٍ، وقفتْ البنتُ تريد القليل، ولا تملك ما هو أقل، عرضتْ المقايضة، ضفائر شعرِها ودميةٌ وصورةُ أمّها، لتبتاع نبتةَ الصبّار، وتضعها فوق قبرِ أمّها، التي ماتت وكانتْ تعشق الصبّار، إنّي بائعٌ حمار، سألتُها بعدما قايضتني، ورحلتْ باكية، بائع الصبّار لا يصبر، وكذلك الفقر والموت والحياة.

توقفت قوةٌ من الشرطة المسيحية، سأل قائدُها عمّا حدث، قالوا في صوتٍ

واحد: «دهسته سـيارة وركضت». لم يحدد أحدهم سيارةَ من، مسك القائد أخا الطفـل، لم يأبه لبكاءٍ واضـحٍ، «هل هذا أخوك؟ وما اسـمكما؟ وأين تقطنـان! رد يا قذارة الجرذان». الطفل يبكـي خوفًا، تحدث القائد في جهاز اللاسـلكي: «عربة إسـعاف لنقل جثة طفلٍ، لا.. ابن شارع.. أخوه حي.. نعم الملجأ قريـب..». ركض الطفل الحي تـاركًا الطفل الميت، هرب الأخ بعدما سـمع كلمة الملجأ، يعلم جيدًا قسـوة المعاملة، ويرى الشـارع أكثر حنانًا عليه، ضحك القائد وطلب من الناس الرحيل: «السـاعة قاربت على التاسعة، سـتبدأ جولات القوات العربية، لا نريد مزيدًا من القتلى، تعال يا بائع الصبّار، خذ هذه الجثة وادفنهـا في الصحراء التي تسرق منها صبّارك، ولا تعـترض، افعلها الآن أو غـدًا، الأمر لك، وقتي لا يسـمح لأكثر من ذلـك». رحلت القوة، الناس هرولت، وأنـا في منتصف الطريق، وحدي، بجانب جثةٍ، تضحك، وأنا حي، يصفعني القلق.

أحصل على الصبّـار من شرفات المنازل، خاصـةً الأغنياء، لا أذهب إلى الصحراء، لماذا يا رب وضعتني في هـذا المأزق، الحل في مدافن الصدقة، أو أقرب مسجد وأترك الجثة أمامه، اليوم هو الإثنين، مما يعني الجثة ستبقى حتى الأربعاء، سامحني يا ولدي، تعفنت حيًا، وربما تتعفن ميتًا، هذه الحياة ليست لنا يا صغيري، أنا لا أعرف ديانتك، لذلك سـأتركك أمام أقرب كنيسةٍ هنا، كلنا عباد الله، والتراب لا يفرّق بين مسيحيٍ ومسلم.

«ماذا تفعل هنا أيها الرجل؟ إنها التاسـعة وربع! ما هذا! هل هذه جثة؟». نظرتُ إليه وأنا أنطق الشهادة، افرح يا صغيري؛ سنُدفن معًا.

رقصةُ الموت

«**أبانا** الذي أنت الشفاء؛ طَبِّب جروحَ بنتي». رددها زوجي القسيس، وأنا أحمل بنتَنا، التي سقطت مروحة السقف، على رأسها، الكهربائي الغشّاش، لم يثبّتها بالشكل المطلوب، البنتُ تبكي دمًا، قلبي خُلِعَ لصراخها، نظرنا إلى الساعة، التاسعة ونصف، ركبنا السيارة، دعواتُ زوجي، بكاءُ البنت، تحركنا، الشارع صموت، الخوف يراقص الموت، تُرى إذا لمحتنا القوات العربية؛ ماذا سيحدث؟

زوجي يدعو، رأسُ ابنتي مشجوجة، الدماء تخرج منها، وأحلام البنت وضحكاتها، كلما أوقفتُ النزيفَ بمكانٍ؛ رفض متحررًا من نقطةٍ أخرى، أنفاسُها هَرِمَة، زوجي يقود ويدعو، تذكرتُ حين غادرتْ ظلامَ رَحِمي، وجاءتْ إلى نورِ رحمتي، ليديا؛ فتاتي الصغيرة التي لم تتم السابعة بعد، مشفى العذراء العام وجهتنا، زوجي يرنّم، لمحنا جثةً بوسط الطريق، توقف زوجي ومجّد المسيح، نزل ليفهم، رجع مسرعًا: «جثةُ رجلٍ وجثةٌ طفلٍ، ما العمل يا يوستينا؟ القوات العربية قريبة!». يرتجف وهو يتكلم، ضممتُ ابنتي، صرختُ به: «سنذهب يا زكريا، القدير يحفظنا، بنتُنا لن تفارقنا، لا يهمني القوات العربية ولا العالم كله».

هذه المرة، قاد السيارة كالمجنون، نطير عن الأرض، البنت تهتز بعنفٍ معنا، زكريا لا يدعو، ولا يرنّم، زكريا يلعن الكهربائي، والقواتِ العربية، زكريا ترك المقود، زكريا نام على المقود، زجاج السيارة الأمامي، يحمل رصاصة

بين ثناياه، زوجي قُتِلَ، ابنتي ستلحق به، السيارة تترنح، لا أعرف القيادة، أصرخ، أسمع أصواتِ ضحكاتٍ، كل جملةٍ منهم: «أحسنت! طلقةٌ واحدةٌ مباشرة!». السيارة ترقص بنا، لا أرى شيئًا، كل هذا في ثوانٍ، جدارٌ حجري لاح لي، الموت يرقص فوق سقف السيارة.

دماءٌ، شظى زجاجٍ متطاير، ألمٌ يقتلنا ببطء، الإسفلت يحتضن جثامين عائلتِنا، عظام جسدي كُسِرَت، خرجنا من السيارة بسبب قسوة الارتطام، خرجنا لأنَ السيارة لفظتنا، كرهتْ رائحة الموت، فطردتنا، زكريا جثةٌ، ليديا بين يدي، ونحن -كلنا- بيد القدير، «هل يتنفس أحدٌ منهم؟». فوهة بندقية مصوبة، «يا خسارة! عائلة كانت سعيدة، الأم جميلة لكنّنا لا نبخل على الموت بجثةٍ». الأم كانتْ جميلة، عائلتي كانت جميلة، «الأم والطفلة، بمن نبدأ؟». ما الخطر الذي ستسببه طفلةٌ -مشجوج رأسها- لهم؟ فقدت القدرةَ على تحريك أطرافي، عيناي تراقبهما، والرب يراقبنا.

ورقة بيضاء، وضع واحدةً فوق جثة زكريا، وفوق جثة ليديا، ثم جثا على ركبتيه، ملامحه مشوهة، الدم يضاجع عيني، الرؤية غير واضحة، قال: «لماذا لا تسمعون كلامنا، يا شعب يعشق العند والموت، جميلةٌ مثلكِ، مكانها في البيت، تحت الغطاء، مع زوجها، أو عشيقها إذا كان الزوج روتيني ممل، سأكتب لقبي، ولن أطلق رصاصةً عليكِ، الموت البطيء سيتكفّل بك».

سقطت الورقة على جسدي، كآخر ورقة في شجرة، تعلن مجيء الخريف، سقط خريف عائلتي، وكانت آخر جملة، سقطت داخل بئر سمعي: «بعد نصف ساعة، سأعود إليكِ، جسدُكِ خيلٌ يحتاج خيّالًا، وأنا أعشق ركوب الخيل».

ضحكُ العوز

أفترش الرصيفَ أو يفترشني، كلانا واحد، أشرب جزءًا من حزنِ المدينةِ وشايًا وهمَّ فقيرٍ، السيّارات تمر ولا تراني، ومن في هذا العالم يراني؟ لا أبيع شيئًا، أنتظر عطايا البشر، بقايا طعامهم، تحرشاتِ لفظية وجسدية، ماذا ستفعل أمٌّ مثلي، خطّاءة، جاهلة، بدينة، بلا قدمين، قبيحة، لتكسب المال؟ ابني في السجن، أو جثة، تركتُه على باب ملجأ صغيرًا، لأن الفقر قتل الحياة بداخلي، أعتقد أنه كان ليحلم -الغالي ابن الغالي- بحانوتِ صغير، نبيع فيه ابتساماتِ للفقراء وحلوى للأطفال وسجائر للمهمومين، قلبي حزين، يا رب المحتاجين، أنا محتاجة.

خرجتُ إلى رزقي فجرًا، حارس الأمن، بمشفى العذراء العام، يوميًا يعد الشاي لي، حين يلمحني مقتربة، على كرسيّ المتحرك، يجري تجاهي، يناولني الكوب ودعوةً حلوة، ويخبرني بأي يومٍ نحن، قال لي: «ربي يحفظُكِ يا أم محمود، ويبعد عنكِ أولاد الحرام، واليوم هو الثلاثاء». لكنّه أضاف: «قوات الشرطة المسيحية، هذه الأيام، تقوم بحملاتِ لتساعد القوات العربية، ويقبضون أيضًا على الضاحكين، احترسي، نهارُكِ فُل وياسمين يا أم محمود». الشرطة تعرفني، ولن تؤذيني، وذلك لأنني قعيدة، مكاني محفوظ، الرصيف المخلوق لي، أمام جدار محطة المترو، أجلس هناك فقط، والسماء تكرمني.

تجمع الناس عند رصيفي، أرى سيارةً مقلوبة، محطمة تمامًا، جثامين،

سمعتُ صبيًا يقول: «القوات العربية». وشيخًا يستفسر: «هل هذا القسيس زكريا؟». وبنتًا تبكي، وسيدةً تتحدث في الهاتف: «لا نعرف أين جثة الأم، ولكن الطفلةَ وأباها موجودان، عفوًا أقصد جثتيهما». الإعلام يتحرك سريعًا، إذا كان الموت حاضرًا، أما الفقر، فهو مادة مناسبة لفقرة، تسد بها ثغرةً، في برنامجك، دائمًا ما كان يسألني عامل عامل الفُرن: «يا أمي، من أين لكِ كل تلك الفصاحة؟! اعذريني، والله لم أرَ مثقفًا يتحدث مثلكِ، ولا شاعرًا لديه القدرة على صياغة التشبيهات هكذا!». كنتُ أرد ضاحكةً: «مدرسةُ الشارع يا ولدي، تجعلك تكتب قصيدةً، بحبر العوز، كل فقراء الشارع يا بني؛ شعراءٌ وساردو حكاياتٍ مجهولون».

رجال الإسعاف رفعوا الجثتين، شابٌ يضحك، عرفنا أنه الداء الغريب، جرى الناس من حوله، الشاب يضحك ويحاول التوضيح، داء الضحك ينتشر، والحزن حزين، لأننا لن نعرفه بعد ذلك، المذيعة تضحك وتعتذر، قوات الشرطة المسيحية، تضحك؛ وأعتقد أنها تضحك بلا داءٍ، ولماذا يعبس رجالٌ مثلهم؟ أبواب الدنيا كلها، يملكون مفاتيحها، الشرطة تطلب من الجميع الرحيل، ألقوا القبض على الشاب الضاحك، الجريمة لأنه يضحك، الحكومة المحايدة وعدتْ الناس بدواءٍ، ظلال الناس المسروقة، لم ترجع بعد، أمّا أنا، وقف أمامي الكثير، كلهم يضحكون، طبيعةً ومرضًا، ولم أتأثر، وكيف أضحك والفقر يضاجع حياتي يوميًا؟ كيف أضحك وقد خنتُ زوجي يومًا ورميتُ ابني؟ حالي هو عقاب السماء لي وأنا راضية.

الأغنياء يتم ترحيلهم إلى منطقةٍ سكنيةٍ، بعيدة تمامًا عن مدينتنا، منطقة على أطراف المدينة، نسيتُ اسمها لأنه بالإنجليزية، يكشفون على الوافدين، من

يضحك يطردوه إلى الخارج، يواجه مصيره، أمّا الفقراء والطبقة المتوسطة؛ يضحكون على الأغنياء والحكومة، لماذا تكرهون الضحك؟ كل فقيرٍ، حَمَدَ الله على داء الضحك، لأنه أخيرًا يضحك، والأغنياء يهربون منه، فقط؛ لأنه داءٌ وليس ضحكًا نابعًا منهم!

«يجب إخلاء المنطقة الآن، ابتعدي من هنا أيتها الشحاذة».

ضحكتُ له فهرب من أمامي.

تلفازٌ وحيدٌ بواجهة محلٍ رخيصة

«**أعزائي** مشـــاهدي القناة الإسلامية، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، نبدأ نشرة الرابعة عصرًا ليوم الثلاثاء بالأخبار السياسية..

قرر سيادة الرئيس، تلبية الدعوة والسفر، إلى المؤتمر العالمي للسلام، وذلك للحد مـــن التهديدات المتبادلة بـــين الدول، ومحاولة كـــف الصراع الديني الطبقي المحتدم، الحكومات المســـلمة تهدد، والمسيحية تتوعد، بينما الحكومة المحايدة، أعلنت انحيازها التام، للبعد عن المؤتمر، متمنيةً التوفيق للجميع.

من ناحيةٍ أخرى، رفع اليوم، الفريق محمد العوازلي، قائد القوات العربية، مقطعًا مســـجلًا، ليتدارك الناس الاتفاق المبرم، منذ لحظة وصوله، من بعد التاسعة، الشوارع لهم، ومن يحيد عن الاتفاق، لا يلومن إلا نفسه.

وذلـــك بعدما قال، في التســـجيل، إنَّ حالاتِ قتل الأفراد المشـــاغبين، في تزايد، وهذا لا يعجبه، لذلك نهيب سيادتكم علمًا، بضرورة الانصياع، تجنبًا لأية عقوبةٍ فورية.

هذا وقد أرسل وزير الصحة، إلى منظمة الصحة العالمية، طلبًا للإسراع من الدواء، الذي ســـيقضي على داء الضحك، هذا الداء الذي نحذّر الناس منه، وسيتم عرض أرقام الهواتف أسفل الشاشة، للإبلاغ عن أي حالةٍ، وستقوم الفرق المتخصصة بالمطلوب.

ونذكّر حضراتكم، بأهمية التوجه إلى مقر وزارة الإسكان، لبدء إجراءات

التعاقد على الوحدات المخصصة، في مدينـــة (بيفرلي هيلز)، خاصةً لقاطني المناطق الأكثر عرضـــةً لداء الضحك، مع توفير الأوراق المطلوبة، لتيســـير الحصول على الخدمة.

وأضاف وزير الصحة، أن دولةَ الصين الشـــقيقة، على اتصال يومي معه، لمعالجة اختفاء الظل، وذلك بعدما لم يقتنع سيادته، بفكرة الظلال الصناعية، لما بها من تقييدٍ لحرية الحركة، متعهدًا القضاء على الداءين، في أسرع وقت.

أما عن الوضع الاقتصادي...».

أربعاء أيّوب

«الشقة بمليون جنيه». صفعَها بنا المذياع، أنا وأبي وأمي، وجدي وجدتي، وأخي وأختـــي وعمتي، نعيش في حجرةٍ واحدة بســـطح بنايةٍ، أمّى قالتْ: «انزل يا أبا العيال؛ احضر لنا شـــقتين!». ضحكنـــا، أبو العيال ضحك، رد عليها: «ولمن نترك قصرَنا العظيم هذا؟ يا بنتَ الناس؛ الشـــقة بمليون جنيه وأنا لن أســـكن إلا في قـــصرٍ بملايين». قهقهنا من جديد، قبل أن يســـتغفر جدي، لأنَّ رغيفًا واحدًا لكل شـــخصٍ منّا، لن يشيّد جدارَ شبعٍ، ولن يسند ســـماءَ جوعٍ، «اتصل الآن وخصومات خاصة». ركل المذيـــاع بها كرامتَنا، تســـاءلتْ جدتي، وهي تقتســـم رغيفَها مع زوجها، ولقيماتٍ مع قطةٍ مرّت بنا: «ترى؛ ما شـــكل الشخص الذي يملك المليون جنيه ويستطيع أن يتصل الآن؟». ابتســـمتُ وقبّلتُ رأسَـــها، ونزلتُ إلى مقر الإسكان؛ لعلّ الفرصةَ تضحـــك لي؛ أنا، مدرس اللغة العربية صباحًا، و كنتُ جوّابًا عصرًا، قبل أن يرفدني صاحب العمل، أشتم رائحةَ أمل.

جوّاب، هكذا وصفني المدير، ليوضّح مهمتي، أنزل إلى الشوارع، أراقبُ فِرَشَ الكتبِ على الرصيف، إذا لمحتُ عملًا لنا؛ أكتب تقريرًا، بالمكان واسم الكتاب وثمنه، يتســـلمه بعد شهرٍ، مهنةٌ رأسمالية بجدارةٍ، بكل منطقةٍ، كان عاشـــقو القراءة الفقراء موجودين، هذا يســـأل عن حارة محفوظ، هذه تريد ثلاثية إبراهيم عبد المجيد، بثمنٍ أقل، ذلك يتفاوض على أعمال تشـــيخوف الكاملة، وتلك مبتهجة لوجود باب لطيف الزيّات المفتوح، كتبتُ تقاريري،

وقفتُ أمامه يوم العرض، وكنتُ الواثقَ برحمة ملك السماء، على من تساوى بـالأرض، صرخ الرجـل بي: «ما هذا يا محترم؟». قُلـتُ وأنا أتصفّح قصر الشوق -المزوّرة- مبتسمًا: «تقاريرٌ مفادها أنَّ المجد للفقراء».

طابور الوافدين طويل، لاحظتُ كل دقيقةٍ، يخرج أحدهم بصحبة موظفٍ، بعد سـاعاتٍ، وجدتُ نفسي أمام موظفةٍ، تطلب منّي الأوراق، ثم نظرتْ إليّ، وسـألتني عن المنطقة التي أسـكن بها؛ «أنا من الدرب الأحمر». كانتْ على وشـك مناولتي استمارة، سـحبتْها، طلبتْ مني ورقةً من إدارة العمل، تثبـت أنَّ مرتبي فوق العشرة آلاف جنيه! قلـتُ مازحًا: «أنا مرتبي ضعف ذلك يا آنسـة!»، اعتذرتْ البنت واضعةً الاسـتمارة أمامي، الحقيقة، تركتُ كل الخاناتِ بلا إجابة، فقط كتبتُ اسمي والعنوان والمهنة، ضحكتْ الموظفة حين رأتْ ما فعلتُ، تحدثتْ إليّ بصوتٍ خفيض: «أسـتاذ أيوب، لماذا لم تقل لي إنك تحمل واسطةً، فقط قُل لي اسم معاليه وأنا سأتكفّل بالباقي».

فهمتْ من صمتي كل شيءٍ، قطّعتْ الاستمارة وقالت لي في تحدٍ: «هل تعلم أن وقتَنا من ذهب؟ غادر الآن وبلا أي شـعاراتٍ مزيفة! هذه ليست بلدكم وهذه المدينة لأصحاب الملايين لا الملاليم! إذا كنتَ تريد المشاكل؛ نحن نعلم جيدًا كيف نصنعها، الساعة الخامسة، هيّا، ارحل، لتلحق المواصلات وتصل قبل التاسعة! التالي؛ تفضل يا أستاذي!».

أنـا مواطنٌ مرتبه تسـعمائة جنيه، فقد ظله، لا يملك مَسـكنًا، فقيرٌ، فكّر لحظةً أن يهرب مـن الضحك، ليجد الدنيا تضحـك في وجهه، تتبول عليه قائلة: «أين صبرك يا أيوب؟».

اللّيلُ فضّاح

(**أهرام**، أخبـــار، جمهورية)، تبيع الجرائد، بنتٌ بســـيطة، ملامحٌ عادية، ابتسامةُ فقيرةٍ راضية، تتحرك بين الشوارع والسيارات، كراقصة باليه، حلمُها الذي تتخيله يوميًا، في الجرائد، ترى صورتَها تتصدر صحيفةً، والخبر يقول: «بائعة جرائد صباحًا، راقصة باليه مساءً». البنت تحبني، أنا؛ غاسل الصحون بمطعمٍ شعبي، تتعمد تغيير صيغة النداء، كلما مرّت بالمحل: «أهرام يا حبيبي، جمهورية، اغسل الأخبار جيدًا». صاحب المطعم يضحك ويرد عليها: «أهل الحب صحيح مســـاكين». بائعةُ جرائدٍ تعشق غاســـلَ صحونٍ، وإن لم نكن نحن -أهل الحب- مساكين، فكيف يكون الحب؟ أهرام، أخبار، جمهورية، نداءٌ يهوّن على يدي، قسوة الماء طوال اليوم.

صاحب المطعم ناداني، وطلب مني البقاء، قال: «هناك مصلحة، سنقضيها وستقبض مبلغًا محترمًا، ادخل وسنتحرك عند التاسعة ونصف». لم يمنحني حقَ الرفض، تنتظرني حبيبتي عند كورنيش النيل، النزهة الأسبوعية المعتادة، كل يـــوم خميس، عرضتُ فكرة المغادرة الآن والمجيء قبل التاســـعة، صرخ بي: «هاتف بائعة الجرائد وقُل لها اليوم أنا مشـــغول! ما بك يا زينة الرجال؟ أقول لك مصلحة، تقول لي الحب وسنينه! يا غبي افهم! المبلغ فعلًا محترم». ما لا يعرفه عنها؛ إنها لا تحمل هاتفًا، تمقت شـــعورَ أن يجدها أحدهم، وقتما شـــاء، المجنونة قد تقف ولن تهتم بالقوات العربيـــة، عبير قد تنتظرني إلى ما لا نهاية، ســـمعتُ زميلي بالمطعم، يترجاه أن يدعه يرحل، صفعه وسبّه بأمّه،

ركض زميلي خارج المطعم، قُلتُ له بهدوء: «ما.. ما.. ما.. ط.. طططبيعة المصصصلحة يا زززعيـــم؟». لعن تأتأتي وتلعثمي، ثم حمد الله أنني هكذا، لم يخبرني شيئًا.

مرت الســـاعات، أغلقنا المحل عند التاســـعة، أعطـــاني حقيبةً، وقال لي: «ربع ساعة وتكون جاهزًا». وقف عند الباب الخلف للمطعم، الذي ندخل ونخرج منه التموين والقمامة، فتحتُها، رداءٌ أســـود وقناعٌ وجهِ، ذلك الذي يشبه أقنعة الشرطة، صاحب العمل يعلم جيدًا، إنني فاشلٌ ولن أجد وظيفةً بســـهولة، فعلتُ ما طلبه، صوتُ بوقِ سيارةٍ يستعجلنا، مشيتُ إليه، خرجنا سويًا، عربة القوات العربية! أنا لا أفهم ما الذي يحدث! جنودٌ يتهازحون، أنا وصاحـــب العمل وآخرون، يتحدث إلينا قائدٌ، لا أرى ملامحه، يخفيها بقناعِ الشرطة الواقي، من الخوف، الكلمات لا تصل إلى مســـامعي، كلنا لا نعرف بعضنا، كلنا نرتدي الرداء ذاته والقناعَ ذاته، كل ما سمعتُه: «المتحف، عطّلنا الكامـــيراتِ، بسرعة، لن يعترض أحدٌ طريقكـــم، الموت لمن يفشي تفاصيلَ عمليتنا، المال غدًا، ألفان جنيه، لـــن ندفع أكثر من ذلك». حقًا المبلغ محترم، سيســـاعدني في شراء خاتم لعبير، أو أســـعى في إجراءات حانوتٍ، مكسبه مضمون، نعمل به أنا وعبير، وتعرض الجرائد عندي أيضًا.

توقفت السيارة ونزلنا، المتحف المصري، الشـــوارع ميتة، يتقدمنا القائد، دخلنـــا وكأننا ببيتنـــا، هذه المرة الأولى التـــي أزور فيها متحفًـــا، آثار بلدنا، ســـمعتُ عنها الكثير، القائد دفعني ساخطًا: «يا ابن الزانية ماذا تشاهد؟ قُم بعملِك، الشاحنة الناقلة على وصول». كل تمثالٍ أو تحفةٍ صغيرة، يسهل نقلها وتغليفها، نعم تغليفها كالشـــطيرة، القائد يراقبنـــا، وصل رجلٌ، من هيئته،

عرفتُ أنه شـــخصيةٌ مهمة، مومياءٌ محمولة، تمثـــالٌ طوله متران ونصف، في خلال ساعة، حصلنا على مجموعة إذا بيعت؛ ســـتعيش مَلِكًا طوال عمرك، الموضوع كان سلسًـــا بشدة، رجالٌ آخرون، ساعدونا على وضع المسروقات بالشاحنة، وقفنا خارج المتحف، ننتظر الأوامر، فجأة صرخ بنا القائد: «ماذا تفعلون؟ يا لصوص! لماذا أنتم هنا؟». طلقات الرصاص في الهواء، سمعتُ صاحب المحل، وهو يقاوم الموت: «خيانة!».

تلقيتُ رصاصةٌ بقدمي، وقعتُ من شـــدة الألم، اقترب مني القائد، وضع مسدسه على رأسي، وكان آخر سؤال، يزاحم عقلي، مع ترديد الشهادة: «هل كانت سترضى عبير بالحانوت أم الخاتم؟».

بلادُ الكُفرِ والمال

«**لماذا** نعمل يوم الجمعة؟». قالها زميلي المصوّر، وهو يساعدني في تركيب الكاميرا، التي سأنقل بها، هذا المؤتمر العالمي، من دولة تركيا، بعدما أرسلتني القناة المسلمة، ضحكتُ حين مرّ زميلي -بالقناة المسيحية- ولم يتحدث إليّ، أبانوب؛ الذي كان تلميذي في يومٍ من الأيام، تعلّم منّي كيف يلتقط اللحظات المناسبة، متى يتنقل بين المتحاورين، أي نصفٍ من وجه الضيف، سيكون شكله أجمل على الشاشة، مرّ أبانوب وبصق على الأرض، وكأنني عدوه، مغتصبُ أمّه فوق جثة أبيه.

القاعة كلاسيكية من الدرجة الأولى، السقف مزخرف بالفنون الإسلامية، ليس فنًا واحدًا كما أرى، زخرفةٌ وخطوطٌ وأشكالٌ، بل وفسيفساء أيضًا، الحقيقة لا أعلم هل هم فنون مختلفة، أم فن واحد وهذه أشكاله المتعددة، أنا خرّيج حقوق، لذلك القانون هو مهمتي، ولأنني لم أكن ناصرَ المظلومين، الذي تطمئن لأن قضيتَك بين يديه، تركتُ المجالَ كله، وعملتُ مصورًا ورجل كاميرا، بالجرائد والقنوات، (مؤتمر السلام العالمي؛ ديانات مختلفة.. عالمٌ واحد.. سلامٌ خالد)، الشعار والتنظيم وكل شيء هنا أكثر من رائع، مائدة كبيرة مستديرة بالمنتصف، عرفتُ بالصدفة أن هذه القاعة كانت مسرحًا من قبل، رؤساء الدول بأماكنهم، رئيس الدولة في مكانه بمفرده؛ منصة الحديث التي تجدها أعلى المسرح، كلمة رئيس تركيا، الترحيب والمقدمات الروتينية، لطالما شعرتُ أنهم ينقلونها من صفحات الإنترنت،

مــع تغيير بضع كلماتٍ، للتأكيــد على الجهد المبــذول، تصفيق مصطنع، لا ألومهم على تصرفهم؛ فرؤساء الدول والحكومات الإسلامية بيمين الدائرة، والمسيحية بشــمالها، تشعر أنها مباراة كرة قدمٍ وليس مؤتمرًا لمناقشة الأوضاع السياسية المتأزمة.

ساعة كاملة، الاتهامات تتقاذف، المترجمون في حيرةٍ من أمرهم، كل كلمةٍ خرجت منهم، يراها ويســمعها العالم أجمع: «أنتــم من قتلتم البابا/ هذا رد فعــل لتفجير الأزهر، ثم مــن الذي قال إننا قتلناه؟!/ ومــن الذي قال إننا فجّرنــا الأزهر؟/ الصليب الــذي وجدناه والآيات التــي وجدناها/ داء الظل عقاب المســيح عليكــم/ داء الضحك عقــاب الله عليكم/ القوات العربية قتلت قسيسًــا/ هو الذي خالف الأوامر/ المســيحيون أغنياء/ هذا كرم السماء لنا/ أنتم ضيوف البلد/ البلد لنا والقانون إسلامي والتشريعات إسلامية/ قريبًا ســتصير دولتنا/ الدم أقرب ولا نفرّط في دولتنا/ يا جماعة نريد الســلام، أرجوكم/ ألا ترى ماذا يقول هــذا الكافر!/ الكافر هو أنت يا عبد دين الإرهاب/ اســمح لي، أنا رئيس المؤتمر نعــم، ولكن ديننا ليس الإرهــاب/ كيف وافقنا على مؤتمرٍ بدولة إســلامية؟!/ لأننا لن نذهب إلى دولة مســيحية لنتشــاور على تشريعاتنا ودولتنا!/ نذهب إلى إسرائيل؛ بلد الحكومة المحايدة/ ولماذا لم تقولوا من البداية؟/ نحاول إيجاد حل».

رؤساء الدول يتكلمون جميعًا في نفس اللحظة، المترجمون يقاتلون اليأسَ، ليخرج الكلام للكل بجميع اللغات: «لــن نذهب إلى دولة إسرائيل لتحل الخلافات بيننا/ بلدتي مســلمة نعم، ولكنني أريد السلام للجميع/ نخرج القــوات المحايدة والعربيــة/ موافقون على خروج المحايــدة/ القوّتان!/

القوات العربية تبحث عن قاتل عاهلها وهذا حقها/ ثلاث سنوات ولم يجدوه!/ عمّ نتحدث الآن؟/ لماذا تتهرب من السؤال؟/ هل تنعتني بالجُبن؟/ افهم الكلمة كما تشاء/ لا تسب رئيسَ دولة نحترمها يا أنت!/ هل هذا تهديد؟/ افهم الكلمة كما تشاء!/ الهدوء يا حضرات السادة الأفاضل، نحن هنا كي نحل الأزمة في دولتهم لا لنزيدها/ الإرهاب منكم والقوات العربية منكم ولن نحتمل أكثر من ذلك/ والله الذي نفسي بيده؛ إذا لم تكفّوا تطاولكم علينا؛ لأرسل قواتِ غدًا؛ فتهدم القدس قبلة حجكم/ هل تهدد المسيحيين وأنا موجود يا عبد المال والإرهاب؟ افعلها وستجد الكعبة متساوية بالأرض/ أستغفر الله العلي العظيم! أقسم بمن خلقني؛ لن أكمل هذا المؤتمر، والحرب بيننا يا دول الكُفر/ هذا ما تريدونه من البداية، لكم مطلبكم ولن نتراجع حتى ولو بكيتُم دمًا».

الرئيس التركي يشير إلى مهندس الصوت، فقطع الكهرباء عن كل الأجهزة، خرج معظم الرؤساء، جلس قليلهم، سمعتُ أبانوب يصيح مغادرًا: «والمسيح لأتطوع في جيشنا، أبانا الذي في السماوات؛ نصرةَ ديننا أو ملكوتك».

مَراحِمُ الرّب

ابنُ الخطيئةِ والظلام

«**اليوم** تجزى كل نفسٍ بما كسبت لا ظلمَ اليوم إن الله سريعُ الحساب». عزاء عفاف، الذي لم يحضره سوانا؛ أنا وشريفة وطاهر والطبيب وسيدهم، الذي قتلها، ريثما عَرفَ بما جرى بيننا، كان رحيمًا، انتظر حتى غادر ابني؛ ثائر، جنّة رَحِمي، ثم قتلها، في الغرفة التي يجهلها الجميع، وقال لي: «ابنُكِ سيكبر هنا». ومشى، أحضر الطبيب بعدما ساعدني رجلين حملا جثتَها، وأنا لا أراها، فقط أسمع صرخاتِ ابني، حملتُه شريفة منّي، قالتْ وهي تهدهده: «ابنُ الخطيئةِ هذا، ملامحه حلوة، سبحانك يا الله!». اتفقنا أنا وعفاف، أن يولد ثائر، ونخبره بموت أبيه، وإنها صديقتي المقربة، لكنّ سيدَهم، جعل الكذبةَ حقيقةً؛ قتل أبيه؛ أقصد التي كانتْ في مقام أبيه.

عامان وأنا بالقصر، لا أغادره ولا يغادرني، سألت عفاف كثيرًا كثيرًا، كيف يجهل العاملون مكانَ الحجرة، في كل مرةٍ كانت تبتسم، تقول وهي تحاوطني بذراعيها، لتحميني من هذا العالم، أو تخفي كياني الصغير المُهمَل، عن العالم، خارج القصر وداخله: «العاملون هنا، إذا قيل لهم، القيامة غدًا، لن يجرؤ شخصٌ منهم، أن يسأل كيف، سيخروا ساجدين راكعين». عفاف رفضتْ فكرةَ الهروب، وبعد يومين، من المناقشات، قررتْ الاعتراف لسيدهم، والمقابل؛ إننا لن نهرب، ستتركه يضاجعني كيفما شاء، وعندما تشتد عليّ علامات الحمل، ستخبره، سيتفهم ذلك جيدًا، عفاف فقدتْ القدرة على مواجهة العالم، سيدهم يضمن لهم المأكل والمشرب والمأوى

والمرتب الشـــهري، إزاء خدماتنا، لا تحمل شـــهاداتٍ ولا أنا، سنعاني عناءً عظيمًا إذا خرجنا لهم، الصراحة ستنجدنا، هكذا كانت تخبرني يوميًا.

ليلتُها لم أنَم، جاء ســيدهم كعادة كل ليلةٍ، وأنـــا في الحمام يهاجمني التقيؤ، طلبني، فعرضت عليه نفسَها، تعجب من عرضِها، رفض ساخرًا: «أنا الذي يحدد متى أولج ذكري بفتحتِك الوحيدة، لا تعرضي نفسَكِ عليّ أبدًا، عفاف؛ أنـــتِ موظفتي الماهرة، احـــذري!». خرجتُ من الحـــمام، قدماي ترفضان مساعدتي، وقعتُ فهرولا إليّ، فقدتُ الوعي، جاء الطبيب، بعد نصف ساعةٍ والكشـــف عليّ، ســـمعتُ صرخاتٍ وصفعاتٍ، كاد يقتلها، لولا أني ناديتُه، شرحنا له ما حدث، هدأ ســيدهم فجأة، الســـافل كان يظن أنه ابنه، وكان يصفعها لأن شرطَ مجـــيء العاهرات؛ مهبلٌ بلا رحم، مكان مظلم يدخل به نوره ويخرجه وقتما أراد، ضحك طويلًا وبارك لنا، ذُهِلَ الطبيب، ســـمعتُ ســـيدهم يقول: «إذا كانت خالدة أحســـن الآن، فأنا أريـــد مضاجعةً، تليق بمناســـبةٍ كهذه، ويمكنكِ الانتظار بالخارج يا عفاف، أنا رحيمٌ وســـأراعي مشاعركِ".

طوال فترة الحمل، يجاسدني ولا يأبه لتعبٍ، طبيبه لم يمنعه تمامًا، في إحدى المرّات، قال لي وهو يدخّن ســـيجاره: «لن أفعل شيئًا معكِ الليلة يا خالدة، هذا الجنين الذي يتحرك داخلُكِ، لن نسجّله، سيكون ابن الخطيئة والظلام، تعليمه هنا، معيشته هنا، حين يكبر، سنقول له مات أبوك في حادثةٍ، ونجوتَ أنت وأمّك، يعلم الله يا خالدة، إنني أفعل ذلك تكريمًا لزوجتي، التي كانت تحبـــكِ أيضًا، لا تقلقي، أنتِ في أمان». ســـألتُه في تلك اللحظة: «وماذا عن عفاف؟». لم يرد، غادر مبتســـمًا، وحين جاء موعد الولادة، بعدما لفَظَ رحمي

الجنين، قـــال الطبيب: «ولد.. نحســـبه هكذا حتى يكبر ونـــرى، هل حقًا ســـيصير ولدًا أم.. هممم.. مثل أبيه الذي هو عفاف».لم أجد عفاف حولي، قبل الولادة ولا بعدها، وحين ســـألتُ عنها، عرفتُ بسبب صمتهم جميعًا: «وماذا عن عفاف؟».

ابنُ الخطايا والنور

حطّمتُ الهاتفَ الثالث، شركاء العمل والصفقات، ينشـــدون الهرب، مدينتنا ضربها الجَرَب، الشعب نزل إلى الشوارع، مختلف الطبقات والأديان، المؤتمر العالمي للسلام، كان شـــعلةَ الحرب، قوّات الحكومة المحايدة، تنتظر الأوامـــر بالضرب، حتى ولو هاجمهم شـــخصٌ، لن يبادلونـــه الهجوم، إلا بالأوامر العُليا، من حكومة دولتهم لا دولتنا، الإعلام يحاول نقل الصورة؛ الفقراء والمســـاكين والمحتاجون وأولاد الشـــارع، يضربون قوّاتِ الشرطة المســـيحية، الأغنياء يطلبون من قوّات الشرطة المســـلمة، التحدث مع رتبةٍ كبيرة، بالإضافـــة إلى الوعيد المتكرر: «ألا تعرفون من نحن؟». الســـكرتير الخاص طرقَ بابَ مكتبي، دخل المغفل دون إذني: «أنا آسف يا سيدنا، لكنّ القصرَ محاوطٌ بالعديد من المشـــاغبين، ولا أعرف من هم، والله يا ســـيدنا لا أعرف، واعذرني لن أســـتطيع تكملة ما يحدث؛ إهانةٌ عظيمة يعجز لســـاني عن وصفها يا ســـيدنا». قُلتُ له وأنا ألقم مســـدسي طلقاتِ: «عفاف كانت تتصرف معهم». ســـألني المعتوه: «من عفاف يا ســـيدنا؟ لم نسمع عنها من قبل!». غادرتْ الرصاصةُ وطن ســـلاحي، إلى مخيم رأسه، سقط صريعًا في الحال، وضّحتُ له: «اسألها حين تقابلها بالأعلى».

هاتفـــتُ مديرَ أعمالي، الطبيـــب النجس، قوّاد كل نزواتي، الجبان يخشـــى النزول، صعـــدتُ إلى الغرفة السرية، من داخل ممـــر مكتبي، الذي وضعته خلـــف مكتبتي، صعدتُ الدرجات، فتحتُ الباب دون طرقٍ، خالدة كانت

ترضع ثائر، لم تجعلني مظاهر الأمومة شريفًا يومًا، كلما لمحتُ ثدي أم، أغبط وليدَها، نظرةٌ جنسية سافلة، وأنا سافل، كم تمنيتُ أن تراني، تلك العاهرة فائقة الجمال، «متي ستنتهي يا خالدة؟». تهدهد الرضيع ولا تتحدث، سألتُها ثانيةً، فقالتْ في حزم: «اسمي ثورة! لا أعرف، متى ترك ثدي سأنتهي، تفضل خارج الغرفة الآن، التوتر يصيبني وهذا قد يصيب رضيعي». كانتْ المرة الأولى، بحياتي كلها، التي يطردني أحدهم خارج ملكيتي، لم أشعر بنفسي، إلا وقضيبي بفمها، رضيعها يبكي وهي تصرخ، صفعتها وركلتها، فقدتْ الوعي، ضاجعتُها كما شاء مزاجي، ضاجعتُها وابنها بجانبنا على السرير، كلاهما لا يرى؛ الوليد الضعيف والعمياء العاهرة، انتهيتُ منها وهاتفتُ اللا رجلَ الذي عمل لدي، الطبيب المخنث: «تقول إن اسمها ثورة، أتكذب عليّ؟ يبدو أنك نسيتُ عقابَ الكاذب يا طبيب البهائم! على كل حالٍ، جهّز طائرتي الخاصة، سأرحل إلى سويسرا، الجو العام هنا كئيب، وبعدما يضرب تلك المدينة الطاعون أو قنبلةٌ نووية تبيدهم جميعًا، ربما أرجع ونعيد استثماراتنا، ولا تعكّر صفو ساكني بيفرلي هيلز، لن يطولهم الأذى، وإذا سألك أحدهم عنّي؛ قُل لهم سافر ليعقد صفقةً بخصوص المدينة، أي صفقةٍ، ملاهي، بار، صالات رياضية».

نزلتُ من الممر السرّي، تأكدتُ أن بابَ الغرفة مغلقٌ، الباب هو الشيء الوحيد، الذي ساعدني فيه طبيبي الوسخ، بجدارة، بابٌ حديدي كتلك الذي تراه في البنوك، ثورة أو خالدة ورضيعها، لن يسمعهما سوى السماء، كذلك فعلتُ بباب الممر السرّي، وقطعتُ الأسلاك الكهربائية، التي تغذي محوّل الباب بالكهرباء، فيفتح ويغلق حسب ضغطة زرٍ، مما يعني، إذا أراد أحدهم إنقاذ هذه العاهرة؛ فعليه بتفكيك البابين أو تفجيرهما.

سـؤالي الوحيد؛ إذا لم يحـدث كل هذا العبث، أكنتُ حقًا سـأرعاها هي وابنها؟ يجب ألا أعطي وعـودًا مرةً أخرى، أثناء المضاجعة، لقد رحمتُ هذا المخلوق، من كل شخصٍ، سيحاول إهانته، لأنه مختلف.

ابنُ الصمتِ والعجز

ثلاث سنوات، ولا تفارقني صورةُ البنتِ، أنقذتُها من أمام المشفى، ذهبتُ بها إلى بيتِها، عرفتُ اسمَها من حارس العقار، ثم طردني هذا الجن، الذي جعلني عاجزًا، من الصدمةِ فقدتُ النطق، جلساتٌ علاج وتخاطب، بلا فائدة، كتبتُ إلى أهلي يومها، بعد عودتي إلى المنزل، أنني رأيتُ عفريتًا، صدّقوني لما أمُرّ به، لم أجد الشجاعة الكافية، لأرجع إليها كما قُلتُ لها، بالرسالة التي أرسلتُها، على حسابها الخاص بموقع التواصل الاجتماعي، حذّرتُها من العفريت الذي يدّعي النبوة فقط، وها أنا الآن، على متن دبابةٍ، نتجه إلى القدس، لنحتلها ونهدم قبلة الحج، للمسيحيين، التجنيد إجباري، إذا رفضتَ تُقتَل؛ لأنك حينها، تساند العدو، العدو هو أبناء وطني، المسيحيون صاروا أعداءَ وطني، والدي شرح لهم مرضي، قال الموظف ساخرًا: «وهذا هو المطلوب يا أستاذ! بذلك سنضمن تنفيذه للأوامر دون بلبلة! قدّمه للكشف! هيّا يا محمد تعال». من لم يصبه داءُ الضحك، سينضم إلى جيشنا، الجيش الذي أطلقوا عليه (جيش الكرامة)، وهو الاسم العام لجيوش المسلمين في كل مكانٍ، أين أنتِ يا ثورة، عقلي يذكّرني كل يومٍ بجملتكِ الوحيدة: «أنا أحب الشيخ إمام؛ فهو ثورةٌ عليهم جميعًا».

الوضع لم نتخيّله إطلاقًا، في وطني، الحرب تحكم، بعد المؤتمر العالمي بشهرين، كانت القوّات تستعد، على الجانبين، القوّات المسلمة ستذهب إلى القدس، والمسيحية إلى السعودية، ضاربين الاعتراضات الدولية، بعرض

الحائط، الأمر للجميع: «الهدم الهدم يا رجال». القوّات المسلمة من مختلف الدول، يجلس بجانبي جنسيات متعددة، يقود الدبابة شابٌ من الصومال، يمسك مدفعها شابٌ من تنزانيا، بالداخل أنا وشابان من العراق، صفوف الدبابات، ألوانٌ عدة، حسب كل دولةٍ، سمعنا الذي يراقب من أعلى، يقول: «كان حلمي منذ الصغر، أنا أزور فلسطين، واليوم أنا على أرضها، أنصر ديني، الشهادة يا الله! الشهادة يا الله». سخر منه الشاب العراقي، سخر العراقي الآخر منّى، يحدّثني وأنا أكتفي بالابتسامة، سألني كثيرًا: «هل أنت خائف؟ هل أمّك تعرف أنك هنا؟ قُل شيئًا يا غريبَ الأطوار! ما سر الابتسامة اللزجة هذه؟». توقفنا، طلب قائد الدبابة أنّ ننزل، المخرج العلوي فُتِحَ، صعدنا السلم الصغير، قفزنا إلى الأرض، صف الدبابات طويلًا، قال سائق دبابتِنا: «لا سلكي الدبابة يخبرنا بأن قوات الاحتلال الإسرائيلي، ترفض مرورنا إلى القدس، تمهلنا ساعةً، إذا لم نغادر، سنغادر أمواتًا».

كانتْ كلمة (أمواتًا) آخر ما سمعتُ، بدأ النزال، يبدو أن أحدهم غضب، فلم يتمالك أعصابه، رأيت فلسطينيين، يركضون هربًا، وآخرين، يرفعون لافتاتِ: «جئتم لنصرة دينكم؛ ماذا عن إخوانكم؟». دين الله لا يؤمركم بما تفعلونه!»، «العار عليكم! اليهود تدافع عن القدس!». الرصاص كان ثورًا هائجًا جامحًا، يتطاير، هنا وهناك، وجدنا أنفسنا بحربٍ إذ فجأةً، فكّرتُ بالصعود إلى الدبابة، الحرب بيننا بدأت، بعدما عبرنا معبر رفح، إلى فلسطين، لم يمهلنا الكيان الصهيوني الفرصة، دباباتٌ تنفجر، السماء ملوّنة بالدماء والصرخات، سقط الكثير لدينا ولديهم، أرى بنتًا صغيرة، تبكي بجانب والدها، كيف جاءوا من البداية إلى هنا؟ أهكذا حاول الكيان الصهيوني الضغط علينا؛ بوضع فلسطينيين على مشارف المعبر، فلا نتقدم خطوةً!

ركضتُ تجاهها، تجـاه الرصيف الذي يحتضن جثة أبيهـا، البنت تصرخ بشدة، صوت الطلقات والحرب، أبوها مقتول، البنت تبكي بحرقة، سحبتُها مـن يديها، داخل الدبابة هو الملاذ الوحيد الآن، ركضتْ معى وهي تصرخ: «لا تتركني يا أبي؛ لا تتركني الله يسامحك! الله يسامحكم وينتقم منكم كلكم! مـات أبي، يا رب مات أبي!». وجدتُ دبابتَنا، الجنود المسـلمون اتخذوا من الدباباتِ دروعًا وملاجئ، لا نتحرك، نضرب بمدافعنا واقفين، كأنها حربٌ أمريكيـة من الزمن القديم، ركبنا الدبابة، السـائق الصومالي فزع حين رأى البنت، يسألني: «ما الذي يحدث؟ من هذه؟».

بعدهـا، في ثوانٍ قليلـة، كانت الدبابة، تطير في السـماء، منفجرة، كذلك أشـلاء الراكبين، لمحتُ البنت تصعد إلى السـماء كملاكٍ، ترقص مع أبيها، وحولهما الكثير، يصفقون لهما.

ابنُ القهرِ والضعف

«**يا** أمّ النور، احمينا نحن الضعفاء!».

قالهـا وهو ينازع الموتَ، جيـش الكرامة، حـاصر كل المعابر، بين اليمن والسعودية، مسـاعدة الحوثيين لنا، سـهّلت عملية التحرّك، نحو أرضهم المقدّسة، الحكومات اتفقت على اسم (جيش النور)، وها نحن؛ جيش النور المُحاصَر، بمنطقة نجران، بعد معبر الوديعة، الحرب ضربتْ الطبول، الموت يحلّق فوقنا بمنجله، يحصد الأرواح كما شاء، أو كما شاءت الحكومات، كأنّ السماء تسترد ودائعها.

«يا مجيد يا مخبول.. تعال وسـاعدني». لم يصدّقوني، حين نشرتُ التسجيل على المواقـع، عندما رأيتُه؛ ظلّي الذي غادرني، بعدمـا عرفتُ منه كل شيءٍ، ومـع ذلك لم يصدق أحدٌ ما قُلتُه لهم، كلهـم -وأعني كلهم حقًا- كذّبوني، حتى سـاندرا، حمدتْ الله على الفراق، لأنها لن تتحمل خائنًا ومجنونًا، مللتُ التعذيبَ بالسجن وخارجه، فرفعتُ تسجيلًا آخر، تحت تهديد هجر الناس لي، إنني كنتُ سـكيرًا، ولا أتذكر كيف قُلتُ هذا الهـراء، آلاف التعليقات سبّتني، فأدركتُ أنّهم يسـبون الصادق والكاذب، لا فرق بينهما، جاء الأمر للجميع، كل طوائف المسـيحيين؛ أرثوذكس، كاثوليك، الإنجيليين، كلنا، تطوعنا -إجباريًا- بجيش النور، لنصرة عقيدتنا.

«يا مجيد أيها النجس! هل فقدتَ السمعَ أيضًا؟ ألا يكفيك فقدان عقلك؟».

لمّا سألنا عن القوات المشاركة، قالوا: «أرضًا فقط، لن يطير أحد إلى السماء، نحن أبناء الأرض والحرب عليها! السماء فقط لها النصر». فعرفنا أن حربَنا خبيثةٌ، لأن الأرضَ لا تعني السطح فقط، قد يهاجم أحدهم من الأنفاق، أو يزرع لك الألغام، الخيارات المقيتة كثيرة، وأنا مُحاسب يحمل بندقيةً، تعلم فقط في شهرين، كيف يصوّب ويلقّم سلاحَه، قرار الحرب كان سريعًا مجنونًا، لذلك؛ لا مكان للبطيء المتمهل، في جيشي العقيدتين.

«يا مجيد الله يخرب بيتَك ويقصف عمرَك! حارب معنا أو عُد إلى الدبابة يا فرج الكلبة». حتى تلك اللحظة، لا تعرف من الذي بدأ إطلاق النار، كنّا نسير، نرنّم، نمجّد المسيح، جنسياتٌ مختلفة، الشرق والغرب، فجأةً توقفنا، نزلتُ من الدبابة، الجثامين تسقط من حولي، فوقفتُ خلفها، أدخّن سيجارتي، بحوزتي الخمر بدلًا من الماء، من يريد الماء وهو يحارب؟ الخمر سيجعلني بطلًا مغوارًا؛ يعرف كيف يشق جيوش العدو.

«يا مجيد! يا مجيييييد! نفذت ذخيرتي! يا مجي...». خذ ذخيرةً من السماء، صرخات الجنود، ترسم لك لوحةً من تفاصيل المعاناة، الأشلاء تضيف قذارةَ الأحمر، الموتُ وضّح نجاسةَ الحكومات، الخوف ربت على كتف الضعفاء، الله يا مجيد، تقول الحكم والخمر نديمك، فض بكارةَ خلوتي، هذا الذي قال لي، وسلاحه يتفرسني: «أستغفر الله العظيم! تحارب لعقيدةٍ فاسدة وتشرب الخمر أيضًا!». ضحكتُ والطلقات تخترق صدري، رأيتُ خمرًا ودماءً وساندرا وخيباتٍ يخرجون منّي، قُلتُها، وساندرا تضحك على ضعفي، قبل مغادرة الروح: «ليس لي يا خالقي الجبّار أن أفهم قصدَك، فغبيٌ أنا يا قدّوس والحكمة عندك».

ابن العُهر والسلطة

المدينة هادئة، سـجائري موجـودة، مشروبي يحضّره طاهـر، الطبيب بالمسـبح، مدينة (بيفرلي هيلز)؛ أنـا أُحِبُّكِ! رقمه يداعب شاشـةَ هاتفي؛ محمـود جميل، هذا الفتى الذي يدّعي مناصرة الفقـراء، أكثر المنافقين حظًا، سـيدنا يحترمه جدًا؛ لأنه ملتزم بالصلاة، طاهر دومًا يسـألني: «أيسمعه الله حقًا؟». وجدتُه على باب الملجأ، مكاني الذي أعطاني ثرواتٍ لا تُحصى، الولد كان جميلًا، بطاقتُه كانتْ أجمل: «اسـمه محمود، من فضلكم؛ لا تبخلوا عليه بشيءٍ». ضحكتُ على سـذاجة كاتبِها، هذا الذي يطلب منا، الجود على ابنه وألا نبخـل، ونسيَ -ابن الكلب- أنه هو مـن بدأ بالبخل والجحود، يتصل مجددًا، محمود يا لحوح، أرسـلتُ له رسـالةً، بطعم الشـبق الذي يعشـقه: «يامحمود، ننتظرك بالڤيلا الجديدة، سـيدنا طلب منا، أن نكون كلنا سـويًا في مكانٍ واحد، تعال؛ السرير ينادينا يا شيخ محمود». آه يا محمود، وسامتُك ووحدتُك وثورتُك على هذا العالم، جعلوني أضمُك إلى جيش سيدنا، بدأت من الصفر، تلهو ثم تعمل بالمطبخ ثم يشـتد عودك، فيراك سـيدنا، ويقتنع -وأنا تحته في السرير- أنك «ابن نـاس»، تعمل في مكتبه، من ضمن رجاله الكثيرين، لتصبح، اليوم، أقوى أعضاء فريقه.

سـيدُنا خدم محمود وطاهـر والطبيب، لم يذهبن -أعنـي لم يذهبوا- إلى الحرب، كيف يحارب محمود مع جيشـه، وهو الذي يركع نهارًا، ويسجد في حضـن الرذائل ليلًا؟ طاهر قد يبكي بينهـم، أو لن يقاوم كثيرًا، ربما يطلب

منهم الغفران، وقد يمجّد المسيح، وينسى محمد، ليعيش فقط، أمّا الطبيب كيرلس؛ سيعقد صفقاتٍ، الڤياجرا مقابل سلامته، وسيعطيها للجيشين، لن يمانع، لذلك؛ أطلق علينا سيدنا (فريق الوساخة)، أشهد أن وساختَهم -أنا أنانية وأهتم لمصلحتي ولستُ مثلهم- لوّثت السماءَ قبل الأرض.

حضر محمود وقُبلة الرقبة، هكذا يلقي السلام، بدأ يداعبني، ردعتُه، تعجّب، فهم من نظراتي، إننا لسنا بمفردنا، محمود هو الوحيد، الذي يرفض مغازلتي أو مداعبتي، أمام الناس، حكمته في ذلك: «العشق سرٌ من أسرار الجسد، كلامه في القلب، أفعاله في الجِنس». طاهر يخرج من المطبخ، يُفاجئ بوجود محمود، سلامهما بارد، كلاهما عاشقان، تعجبني المنافسة، كيرلس يدخل إلينا، البلل رفيقه، نجلس في الصالة الكبيرة الكلاسيكية، الأثاث الكلاسيكي، لوحات سيدنا في كل مكانٍ، فكرة اللوحات واحدة، السماء يهبط منها ظلٌ لا نميّزه، سألناه عن المعنى: «أؤمن أن السماءَ سترسل نبيًا». الڤيلا نسخة مصغّرة من قصر سيدنا، لم نعترض، كيف نعترض على خلق سيدنا؟ محمود هاتفني صباحًا، أقسمَ أن الأمرَ هام، "تكلّم يا محمود، ما الأمر؟». سأله كيرلس، وهو يخرج سيجارةَ الحشيش، الإجابة كانت قاسية: «ستغادرون البلد، سيدنا يقول الحرب ستخلف كسادًا وخرابًا، سنهدم القصر بأمرٍ منه، تكفّل هو بكل ما يخصه، في خلال يومين، ستتوجهون إلى سويسرا؛ البلد الوحيد التي رفضت الحكومات مشاركته في الحرب، القرار لكم في النهاية، الرحيل أو البقاء».

لم يدخّن كيرلس السيجارة، طاهر ينظر إليّ، محمود يسبّح، تأملتُ المكان، كيرلس سَعَلَ ماسحًا على رأسه، ابتسم وهو يناول محمود السيجارة: «بالطبع

سنذهب، إذا عارضنا ستكون النهاية». سأله طاهر: «لماذا توّجه الكلام لنا؟ ألن تسافر معنا؟». قَتَلَ فضولَنا المؤقت: «المنطقة التي كنتُ بها، بين الفقراء، صارتْ الآن مجمعًا تجاريًا عظيمًا، سأديره لسيدنا، يراني الواجهة الأمثل، لقراره هذا". قاطعتُه: «ألم تقل أن الحربَ ستخلف كسادًا وخرابًا! لِمَ هذا المشروع بالتحديد الذي سيبقي عليه؟ أنا من توسلتُ إليه، وأنا من سيتحمل كل العواقب، ولن أشرح أكثر من ذلك..».

فهمتُ من آخر جملة، أنه لا يزال يبحث عن المجهول، الذي ترك له على باب حانوته، خطاب العم عزيز الأخير..

ابن الذُل والخوف

الضحـــكُ صار مرعبًا، من لم ينضم إلى الجيـش، بقى بالمدينة، يضحك ويقتل، حتى أنـا، أُجاهد الضحك، كي أدافع عن نفسي وعائلتي، سـكّان العمارة، نزلوا إلى الشـارع، يحاربون القادمـين إليهم، إذا حكا لي عاقلٌ، عن حـربٍ، جنودُها ضاحكون، لن أصدقه، زوجتـي تخبرني -وهي تبكي من الضحك- بضرورة التصدي، لأي شـخصٍ يقتحـم غرفتنا، غرفة البوّاب شرفه، لن أسـمح أن يمّس أحدهم شرفي؛ زوجتـي وغرفتي، ابني الصغير يلعب بهذا المكعب الغريب، وبنتي تختبئ بحضن أمّها، «هل نصعد إلى الملهى يا أبـا أشرف؟ اكسر الباب ونغلقه من الداخـل! هاهاهاهاهاهاهاها، لا تقل لي إنّك أقسـمتَ بالطلاق، سنموت هنا!». السـت المجنونة! تريد الاختبـاء بمكانٍ، قُتِـلَ صاحبُه، النجس ليل، حتـى الآن لم نعرف القاتل، روحه تحوم بالشـقة أنا واثق، الدور الثالث به عفريتٌ، يقول على نفسه نبي، رأيتُ الكثيرَ منهم، لكن ذلك كان غريبًا، أعوذ بالله من غضب الله، أعوذ بالله من الشياطين، هاتفي الصغير يرن، الساكن بالدور الرابع يستنجد، يسب لي الدين، ماذا أفعل؟ أغلقتُ بابَ الغرفةِ، المدينة تتنفس جنونًا، سـاكن الدور الرابع نزل إليّ، يطرق الباب، يسـمع صوتَ ضحكي، يضحك ويشتمني: «اخرج يا حمدان يا ابن الزانية". سـمعتُ ضحكتَه أثناء ضربه، تيقنتُ أنهم يريدونني، سـحبتُ عصا والدي، تلك التي عمرها فوق التسعين عام، الله يرحمك يا أبا حمدان.

وقفـتْ زوجتي حاملةً الأواني، الخوف والـذُل والضحك بجانبي، كُسِرَ

الباب، ضربتُ بلا رحمةٍ، العصا تفقع عين هذا فيتأوه، تكسر خصيتي زميله، فيقع على الأرض، ركلتني سيدةٌ في عضوي، وأخرى أمسكتْ بخصيتي، أصرخ كأنني أُخرج طفلًا، من فتحة عضوي الصغيرة، الضربة الثالثة، كانت بعصا بها مسامير، شاهدتُ عيني اليمنى، تخرج متدليةً على العصا، الصراخ لم يعد كافيًا، العدد زاد عن القدرة، زوجتي تُغتَصَب، السفلة يركبونها، عرقلوني، أمسكوا رأسي، وضعتْ بنتُ حجرًا تحته، الحجر عليه دمّ متكلس، هل سيذبحونني؟ «يا حمداااااااااان، هاهاهاهاها، سنمووووووت، هاهاهاهاها، آاااااه، يا حمداااااااااان».

وهن جسدي لكثرة ضاربيه، ابني يصرخ من الخوف، بنتي، التي لم تتعد العاشرة، يغتصبونها هي الأخرى، شابٌ يؤتيها من الخلف، صرخ رجلٌ فوقي: «عندما تقابل نبيك بالنار، قُل له، أرسلني لك أهل الحق». لا أرى السكّين بعيني اليسرى، أرى عائلتي فقط، اليمنى دُهِسَتْ، صمتٌ حزين، تذكرتُ في ثوانٍ، العفريت، ضعفي حين ساقني الشرطي إلى غرفة نوم، كل كذبةٍ، البنات الصغيرات اللاتي تذوقن قضيبي، صفعات الشرطة في معظم المواقف، عمّي وهو يغتصب أمّي، عندما كنتُ بالسابعة، قال لي يومها: «أنا ألعب معها، عندما تكبر ستلعب أنت أيضًا هكذا، هيّا اتركنا نلعب». زوجة الساكن بالدور الخامس، التي ضاجعتُها أكثر من زوجتي، صاحب البقالة الذي سرقتُه، طوال خدمتي بالعمارة هنا، تذكرتُ أمّي وهي تبكي، بعدما قتل أبي عمّي، ودخل السجن، دفاعًا عن شرفه، شريفة العاهرة التي كانت تتردد، على ملهى ليل كثيرًا، رحمة التي هددتُها، إذا رفضتْ أن أُضاجعها؛ سأخبر أباها بكل شيءٍ، بينها وبين ليل، لمحتهما كثيرًا، تذكّرتُ كل الخطايا.

«مع السلامة يا حمدان، هخهخهخهخهخهخهخهخ».

قيامةُ الظّل

عبيدُ النّزوات

«**هل** أنت نديمٌ أم عدو؟».

تشغلني القراءة عنه، كل يوم يهبط إليّ، يسألني ويرحل، قرأتُ ما لم يدركه بشريٌّ، حتى الكتب التي نُشِرَتْ في مملكة الظل، الكتّاب تسابقوا إليّ، لمناقشة قضايا منتوجهم، والسجناء بالمثل، تعرفتُ عليهم، منهم من كان شاعرًا أوأديبًا، بهجة الكتّاب بوجود قاريء، جعلهم يدخلون إليّ الزنزانة! نجلس ونتحاكى عن الأدب فقط، جالستُ أرسطو ودانتي وطه حسين، الذي حمد الله على نعمة بصره، ڤيرچينا وولف، چين أوستن، وعرفتُ أن السجينَ الذي يجلس معنا، هو چورچ أورويل، وليام فوكنور وإرنست هيمنجواي، ماركيز وتشيخوف وكافكا، سيرڤانتش وإميلي برونتي وهومير، نيتشه وهوجو وألبير كامو، توماس مان ومحمد حافظ رجب وبلاتو، كل أدباء العالم، منذ عُرِفَ القلمُ، نقعد يوميًا ونتحاكى عن معجزات الكلمات.

سألتُهم في كل مرةٍ قابلوني: «لماذا هذا الخنوع؟». والإجابة كانت واحدة: «عشنا تابعين ولما نزلنا إلى مملكة الظل؛ عرفنا أننا سنمجّد الظل فقط لا غير، الأوامر كانت واضحة، والسجن للمُلحِد». طوال هذه الفترة، التي أجهل مدتها، كنتُ أفكّر، كيف يصدر عنّي بيانٌ كذاك، القصة لم تكن منطقية، حين يتحدث إليك الفلاسفة، تدرك حقًا، ماهية التفكير عند البشر، السلاح الذي استخدمه، الأذكياء فقط، ليمكّنهم من قيادة الأغبياء، معادلة مملكة البشر بسيطة؛ النخبة هي التي تحكم وتسطر التاريخ، كما تشاء، التابعون يهللون، المنشقون إلى الجحيم، وأصحاب المبادئ في كرب عظيم.

بات الأمر جليًا، البشر عبيد نزواتِهم وأفكارهم، حتى تلك اللحظة، التي أقــرأ فيها كتاب (جمهورية أفلاطون)، لفت انتباهي هذا المقطع: «إن الطبيعة الإنســانية فطرية وجاهلة بماهية الخير والشر في الحياة، لكنها تكتســبها من المحيط، فكلما كان المحيط يتســم بقيم الخير؛ اكتسبت الكينونة قيمه، وكلما ســادت قيم الشر في المحيط، تأصلت قيمه في الذات، وبالرغم من ذلك فإن الخيــار النهائي، يعود إلى الكينونة ذاتها، ومــدى ميلها نحو الخير أو الشر». فسّر الكثير لديّ، ذاكرتي -التي لا تنسى ومضةً- عرضتْ كل المواقف التي تؤكد كلامه.

دخل مَدْيَن غاضبًا، يتبعه حارســه، خرج زملاء الســجن، جلس مدين أمامي، يتأملني وأنا أقرأ، ضرب الكتابَ بعصاه فســقط، ســألني: «لماذا لم تُثمِر الشــجرةُ حتى الآن؟ ما الذي تعرفه وتسرّه بداخلك يا كنود؟ قُل وإلا وضعتُك بالسجن وحيدًا». أعتقد أنه يريد سماع الحقيقةَ كاملة:

«من الواضح يا مَدْيَن أن الســماءَ لا تريدُك بالأعــلى، من الواضح يا أبي أن الســماءَ هدفُها محدد؛ فناء البشر، أمهلهم الله غيثَ نعم، ففروا إلى صحراء النِقم، حين تصارعنا، تأكدتُ من عدم جدوى صعودي، وافقتُ على الهزيمة راضيًا، لكنّ معجزتي غير معجزتك يا أبي، السجناء أخبروني بقصتك، كنبيٍ بُعِثَ إلى قوم عبدوا الظل، ولم يعرفك أحدٌ، ولن يعرفك أحد، أنا هنا يا أبي، لأن البشرَ بالأعلى، غضب الجبّار منهم، فسلّط عليهم، أضعف المخلوقات، هــل تخيلت يا أبي أن ما يحدث لهم، بفعل ظل؟ هــذا قدرك يا أبي، أن تُبعث مجهولا وتعيش مجهولًا وترجع إليه مجهولا، أما أنا، فلن يســمع عنّي الناس أيضًا، ولذلك لأنني إذا صعدتُ إليهم، ســأجعل الظلامَ سمةَ عالمِهم، هذه هي رسالتي، حتى يأذن مالك الملك، بقدرٍ آخر».

ركلةُ الحياة

ســـحبني حارس الســـجن، بعد عدة أيام، من زيارة أبي، أسمع صوتَ صرخاتٍ بوضوح، ما أن خرجنا إلى المســـاحة الواســـعة، حتى رأيتُ ظلالَ الكتّاب، كلهم مصلوبون! الظلال الأخرى، توجّه ناحيتهم كشافاتِ الضوء، فيصبحون بين حالة الوجود واللا وجود، هكذا تُعذَّب الظلال؟ كيف يقف الظل ويعذب أخاه؟ ركضتُ تجاههم، العدد مهول، كل الكتّاب مصلوبون! حتى زملاء السجن، أخرجهم من الألم للألم! صرختُ به: «مَدْيَن! ماذا تفعل يا مجنون؟». الآهات تتعـــالى، الظلال تبكي، هذه هي المرة الأولى، التي أرى فيها الظل باكيًا، قال رياض صالح الحســـين، وهـــو يعافر مخالب الألم: «لمن أتحدّث اليوم، الإخوة أشرار، والأصدقاء ليســـوا أصدقاءَ حبّ، لمن أتحدث اليوم، القلوبُ قلوبُ رصاص، وكل رجلٍ يغتصب ما عند جاره».

وقف مدين بوســـط الساحة، يتحدث في مذياعٍ، بنرجسيةٍ لم أرها من قبل: «أنا، مَدْيَن، نبي الظل، أقولها لكم واضحةً؛ الســـبب في تعذيبكم، هو كنود، من كتب البيان، ومع ذلك، لم تثمر الشـــجرة، مما يعني إنّه أناني، يخفي شـــيئًا ليجهدنا، فنحســـب اللجوءَ إليه ضمن خطتنا، يا كنود، إذا لم تثمر الشجرة، ستستمر في تعذيبهم، بكذبك وكلامك المعسول! وحتى يعرف الجميع مدى رحمتـــي؛ إذا فعلتَ ما نؤمرك به؛ ســـتصعد معنا ولكنّك ســـتلتزم الصمت، لن تخبر الناس بحقيقتك، أنا -ولا ســـواي- نبـــي الظل». الفوضى تتحكم بالموقف، الظلال تتحرك نحوي، أسقطوني على الأرض، يسحبونني كصيدٍ ثمين، رفعني حارس مدين، رماني إلى الشـــجرة، لا أدري ما المطلوب منّي،

الصرخات تقتلني، الظلال تقتلني، العجز يقتلني، شلل التفكير يقتلني.

نظرتُ إلى عدد المصلوبين، فلـــم تحصهم عيني، الحارس يصرخ بي: «هيّا! اجعلهـــا تثمر!». الوحي انقطع عنا، لم نعد نســـمعه، ســـمعتُ صوتَه مجددًا يسألني: «هل أنت نديمٌ أم عدو؟». جاوبتُه: «نَدِم يا إبليس.. نَدِم». الموقف يدعو للدهشـــة، يساعدك إبليس، ظهر لهم، تراجعوا، طار إلى مدين، خطف منه المذياع، تحدث به ليســـمع الجميع: «لا داع للتعارف، ســـنصعد كلنا إلى مملكة البشر، الوضع بالأعلى مزري، مدين، أعترف لك بأنني نفسي، نسيتُ وجـــودكَ، وتذكرتُك من خلال كنود، لكنّ مســـاعدةً منكم بالأعلى، وقعها على البشر أعظم، وجلالتي، أجهل خطةَ كنود، وكلي ثقة، مهما كانتْ الخطة، ستؤذي البشر، الملاعين الذين نكرههم، لا وقت لمن يستحق الظهور، السماء ظالمـــة، الله لا يريدك أن تظهر، ولم يحك عنّك، فعل بك مثلما فعل بي، وفضّل المخلـــوق من طين عنّي، مـــن الواضح أنّه يصلح اختيـــاره الخاطئ، أنا على استعداد أن أنقلكم جميعًا، مع كلمة شرفٍ يا مدين، أن تكون معنا لا علينا». إبليـــس يطلب منا كلمةَ شرفٍ، يا الله أيـــن أنت من كل ما يحدث، يا الله؛ إذا كنتَ تســـمعني، اظهر لي علامةً واحدة، علامةً واحدة يا الله، تساعدني على الخروج من الأزمة، والتخفيف عن الظلال المُعذّبة.

من شـــدة غضبي، ركلتُ الشـــجرة عدة ركلات، لاحظـــتُ طبقةً بيضاء تســـقط عنها، بدأتُ في إزالتها، الشـــجرة من الداخل! الفـــروع كاملة من الداخل! كانت تنتظر ركلةً! وكأنّها ركلة الحياة! لمحني الحارس، فســـاعدني، ركضت الظلال ناحية الشـــجرة، كلهم يركلون ويلكمون الشجرة، تسقط الطبقة، تخرج الفروع، ســـنصعد إليهم، صرختُ بهم جميعًا: «يا شعب الظل العظيم؛ حانتْ قيامتكم».

هذا فراقٌ بيننا

الظلالُ تتسلق الشجرةَ بجنون، الخلاص يتدفق بداخلهم، تحرّكهم نزعة القيامة، شرعتُ في مجاراتِهم، أنزلنـــي مدين، صرخ بي: «لقد فعلتُ هذا من قبل، ركلتُها ولكمتُها بل وجاء النجّارون بالفؤوس ولم يحدث شيء، ما السر يا كنود؟». الحركـــة والتدافع والأصوات، يصعب عليه ســـماعي، حاولتُ نطقَ: «هذا قدر السماء؛ مثلما أرســـلتني لك في أحلامك لتنقل عنّي البيان». لكنّه ظل يسألني ماذا أقول، أمسكتُه من يديه، توجهتُ ناحية الشجرة، تحرّك معي، صعدنا، الفرع الواحد في حجم ناطحة ســـحاب، طولًا وعرضًا، هيئة الشجرة حقًا مرعبة، نتسلق، الظلال تهلل، كلمة الحرية تتراقص بيننا، لمحتُ من بعيـــد، أن الفروعَ تتنافر، فهمتُ المغزى، مدين لن يتركني، كلما ســـبقتُه ناداني، فأتوقف، لم أخبره بتغير لونه إلى الأســـود، تركتُه يهتم بالصعود فقط، مع كل حركة، يسقط الأبيض من عليه، الفروع تتباعد، بؤرة النور التي نراها بالأعلى، هي مصدر الضوء الوحيد.

«كل ظـــلٍ، ينتمي إلى بلدٍ مختلفة، وكل فرعٍ ســـيقود الظل إلى بلده، ليلحق بنبيـــه، فتكتمل الخطة، لم تتســـلق الظلال الفروع هبـــاءً؛ القدر يعرف دوره جيدًا». قُلتُها لمدين قبل أن يســـألني، نقترب من بـــؤرة النور، حارس مدين يسبقنا بخطواتٍ، نسى سيده، كلهم خلفنا وأمامنا، يميني ويساري، وصلنا إلى بـــؤرة النور، خرجنا، لنجدنـــا بالمقر! لم يتغير شيء تمامًـــا، الباب مغلق، المســـاحة الخالية، المقعد الخشبي الوحيد والأريكة، المكان يكتظ بظلالٍ فوق

طاقته، الظلال حولنا -أنـا ومدين- تنتظر التالي، نظرات مدين تبحث عن إجاباتٍ، عرفَ الحقيقة الكاملة، لستُ النبي الوحيد، لقد أرسل الله أنبياءً في كل بلدةٍ، الخطة واحـدة؛ الفوضى والظلام، الفوضى عن طريق العناصر الأكثر حساسـية بالبلد، مثلا، بموطني، الدين هو رقم واحد، بدولةٍ أخرى الرياضة وهكذا، أنت النبي الأوحد يا مدين الذي أُرسِـلَ لقومٍ يعبدون غير الله، أمـا نحن -أنبياء الظل- نزلنا إليهم، كعقـاب ربنا لما اقترفوه، المعجزة الأخيرة المتبقية لدي، سأسـتعملها الآن وننهي كل هذا، طلبتُ من الجميع أن يضعـوا أياديهم على كتف الآخرين، يجب أن نكـون جميعًا كتلةً واحدة، شـعرتُ حقًا بقوة تجمعنـا، مدين لا يتحدث، مشـدوه، يتأمل الموقف من حوله، مرق إبليس من بينهم، وقف بجانبي، ضاحكًا: «العدد رائع يا كنود، ماذا ستفعل الآن؟».

«يا الله، أنا كنود بن مدين، نبي الظل، الذي أرسـلتُه بمشـيئتك، قد حان الوقت، ليتحولوا جميعًا، إلى ظلالٍ لا يهمهـا وجود النور، يا الله، هذا فراقٌ بيني وبين أرض آدم، عِشنا تحتهم لملايين السنين، واليوم، هم من سيعيشون أسفلنا، يا واحد يا قهّار، يا مالك الملك، أسالك بعزتك وجلالك، أن ترفعنا إلى السماء، فنمنع عنهم نورك».

سألني إبليس: «ماذا تفعل يا كنود؟ ألم تقل إنّك نديم!». جاوبتُه: «بل قُلتُ نَدِم يا إبليس، أنا نَدِمٌ على كل لحظةٍ ضاعتْ بلا قراءةٍ».

الذي كان على حق

تدافعنا خارج النافذة، صيحات الناس بالأسفل تشعرني بالبهجة، ظنّوا أننا دخانُ شقةٍ تحترق، الظلال كلها ترتفع إلى السماء، لن تتأثر بالنور، صاروا مثلي، وقفتُ في الهواء أراقبُهم، تشعر أن السماءَ أصبحتْ بحرًا أسود، أو كوبَ ماءٍ تتساقط بداخله قطرات حبرٍ، الأسود يطلي السماء، الوجوه تنظر إلى أعلى، الحرب بينهم في الشوارع تتوقف، المشهد ملحمي، الضحك يصل إلى مسامعي، لقد توقفوا عن القتال، منهم من سجد ومنهم من جثا، هذا يصلي وذاك يصلي، هذا يقول يا رب وذاك يستنجد بالمسيح، قوّات الشرطة لا تصدق، سُحِبُ الظلالِ تقشعر لها الأبدان، فقدوا القدرةَ على النطق، الأطفال تختبئ خلف أبويهم، الرجال تحمي سيداتهم، الكلاب تركض هنا وهناك، سائقو السّيارات تركوها، الكل يبحث عن مصدر نورٍ، الظلام يسود، يصرخون: ضاحكين: «هاهاها، ماذا يحدث؟ نحن بالصباح، أين الشمس؟». جيش الظلال ينتظرني، امتلأت السماء، ثغرةٌ صغيرة، يخرج منها شعاعُ نورٍ، يسقط عليّ، هذا مكاني، الظلال تنادي اسمي، يحثونني على المجيء، أقف في الهواء، بين الأرض والسماء، الناس تجمعتْ تحتي، يسألون من أنا وما الذي جرى، كلهم حولي، يستعطفون قدرتي، نظرتُ إلى السماء باحثًا عن مدين، ابتسم، حارسه يبتسم، طه حسين يبتسم، نجيب محفوظ يبتسم، يوسف شاهين يبتسم.

«نحن؛ الظلال، كنّا أسفل منكم، نتبعكم، حين تركناكم، لاطفكم الحزنُ لأيامٍ، ثم تناسيتم، ضربكم داء الضحك، فحزنتم ضاحكين، حاربتم

ضاحكين، ظلمتم ضاحكين، سرقتم ضاحكين، جحدتم ضاحكين، سلبتم ضاحكين، فأرسلنا إليكم العدل، عدل السماء، لأنكم لم تصونوا الأمانة، قالتها الملائكة، أتبعث من يعيث فيها فسادًا؟! وكأنهم يعلمون سريرةَ أنفسكم، لذلك؛ أنا، نبي الظل، أقولها لكم، قد فاض كيل السماء بكم، اليوم، أفعل ما أُمِرت به، لا سلام عليكم ولا أمان، ظلام أبدي، حتى يقرر ملك النور والعرش، في أمركم».

تعالت أسئلتهم: «هيهيهيهيه.. نبي؟ هل بُعِثت بدين جديد؟/ هخخهخخخهخخخخ إذا كنتَ من السماء فحارب معنا نحن المسلمون/ تعال وانضم لنا؛ هوهوهوهوهوهوهو نحن أبناء المسيح، تعال إلى الدين الحق/ هل حانتْ الساعة يا أبي؟/ إذا صعد إلى تلك الثغرة لن نرى الشمسَ مجددًا يا أمي!/ سنعبدك لكن لا تدثّر الشمس/ كيف سنأكل؟ كيف سنزرع؟ هل هذه نهايتنا؟ هاهاهاهاها/ يا نبي همهمهمهمهمع! انتظر بالله عليك».

أصعد إلى السماء، إلى الثغرة التي تنتظرني، ضحكهم وبكاء أطفالهم يزيدني حماسةً، يصرخون، سيتكفّل الرب بهم، اليوم أتممتُ رسالتي، ثورتي تحققتْ، وصلتُ إلى مكاني، وقبل أن يملأ كياني مساحته، وجدتُ رجالًا، كلهم ينظرون إليّ، لا أعرفهم، لم يخبرني الوحي عنهم، يبتسمون، يرفعون أياديهم إلى السماء، بعلامة التوحيد، قُلتُ لهم: «القيامة».

فردّوا جميعًا في صيحةِ رجلٍ واحد:

«سبحانك يا الله! قيامة الظّل، الذي كان على حق».

تمَّتْ بحمد الله

٢٠١٧-١١-٢٥

إصدارات دار «بردية»

- السّيرة في المنفى -بهاء طاهر -سيرة روائية
- ميّ (ليالي إيزيس كوبيا) -واسيني الأعرج -رواية
- حوار مع صديقي المتطرّف -فاطمة ناعوت -فِكر
- الجبريليّة -أشرف الخمايسي -قصص
- الفرس ليس حرًّا -أشرف الخمايسي -قصص
- ليل العالم -نبيل سليمان -رواية
- الحكاية المجهولة من بلاد العصافير -ماجد شيحة -قصص
- حانة الفوضى -مصطفى منير -نصوص
- قيامة الظّل -مصطفى منير -رواية
- العمّة أخت الرّجال -أحمد أبو خنيجر -رواية
- خور الجمّال -أحمد أبو خنيجر -رواية
- مصحف أحمر -محمّد الغربي عمران -رواية
- أطرق باب السّماء -بوب ديلان -شِعر -ترجمة: الحسين خضيري
- خطيّة رابضة عند الباب -هدرا جرجس -رواية
- أكتب بالدّم الأسود -حسن عامر -شِعر
- قليلٌ من النّور كي أحبّ البنات -أحمد الجعفري -شِعر
- ياموندا -إسماعيل يبرير -رواية
- القصر -عبير سمكري -رواية
- لا نصّ يجب أن يكتمل -عبد السّلام الشبلي -شِعر

- القطب الأعظم -د. أحمد جمال عيد -رحلة تشكيلية
- رحلتي من الإيمان إلى الإيقان -د. سوسن حسني -فِكر
- السلابكس ملهلط -فيليب فكري -أدب ساخر
- رسائل ما قبل الآخرة ٢ -أشرف البولاقي -أدب ساخر
- أشباح في طريق البيت -عزمي عبد الوهاب -مقالات
- بتوقيت النزيف -عمرو الشّيخ -شِعر
- الرّوح الهندية -إهيايسا -ترجمة: الحسين خضيري
- الملاذ الأخير -ترجمة: الحسين خضيري
- ما تريد أن تسمعه النّساء -د. جهاد السيسي -قصص
- أرض الموحّدين -عماد الدّين عدوي -رواية
- استراحة الملائكة -شريف كمال -قصص
- رحلة إلى إسطنبول -مضر عدس -رواية
-

قيامةُ الظِّل

الذي كان على حق

مصطفى منير يراوغ القارئ في هذه الرواية، يدخل عالمًا مجهولًا، ويحكم سيطرته على أدواته، بل ويعرف متى وكيف ينتزع من القارئ المشاعر على تناقضها، فلا تدري هل أنت أمام ديستوبيا متخيلة مستقبلية نسجها مصطفى بافتدار، أم أمام ديستوبيا تحدث الآن، ربما تحدث في محيطك، أو في محيط عالمك، تراها بعينيك، إنه يتنبأ فتكاد تشعر أنه لا يخونه هذا التنبؤ، أنت أمام "أجل يحدث بالفعل"، مع متغيرات الواقع المتسارعة، ومع اختلاف مستويات الوعي العام، "أجل هذا يحدث بالفعل"، في هذه الرواية رموز مغايرة، ولغة متمايزة، طرح جديد وسرد مختلف، استطاع عبره مصطفى أن يقبض على لحظات بعينها، وتفاصيل لعلّنا نمرّ أمامها مرور كرام، لكنها لا تستوقفنا، ولا حتى لمجرد الانتباه الخاطف.

أدهم العبودي

.....

مصطفى منير، كاتب مصري، له روايتان: باب ورهف، وكتاب بعنوان حانة الفوضى صدر عن دار بردية 2017.

فوتوغرافيا
محمد ناجي عبد الله
تصميم الغلاف
د.أحمد جمال عيد

DAR AJIAL
دار أجيال

بردية
BARDIA